المحور الأول

التعريف العام بالإسلام

غير مرخصة للطباعة

١٢

الإسلام حضارة الغد

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من الدستور الإلهي للبشرية

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۞ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [النور: ٥٥ ـ ٥٧].

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۞ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ۞ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۞ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۞ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۞ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۞ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ ـ ١١٢].

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يبقى على ظهـــر الأرض بيت مدر، ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإســـلام، بعز عزيـــز أو ذل ذليل**». رواه أحمد وابن حبان.

عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشـــارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها**». رواه مسلم.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ربنا لك الحمد، كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، وصلاةً وسلامًا على صفوة خلقك، وخاتم أنبيائك ورسلك، سيدنا وإمامنا وأُسوتنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومَن سار على دربه.

(أما بعد)

فقد شهد العالَم حضارات متعددة في بقاع مختلفة المكان، وفي عصور مختلفة الزمان، ازدهرت حينًا ثم ذبلت، وأشرقت ثم غربت، وأقبلت ثم أدبرت، بعضها كان في الشرق، وبعضها كان في الغرب، وبعضها شمل قطرًا أو قُطرين، وبعضها شمل أقطارًا، بعضها بقي قرنًا أو قرنين، وبعضها دام قرونًا وأعصارًا.

ولكن العالَم لم يشهد حضارةً مثل الحضارة السائدة اليوم، فقد اتسع نطاقها حتى أثَّرت في أقطار الأرض كلها، شرقيها وغربيها، باديها وحاضرها، ولذا غدت توصف بـ «العالَمية» وإن كان الغرب أباها وصانعها.

كما أنها ملَّكت الإنسان من القدرات والوسائل ما لم تملكه حضارة من قبل، وهيَّأت له من أسباب الرفاهية ومظاهر التنعم، ما لم يتهيَّأ له في تاريخه الطويل، بل وما لم يكن يحلم به أو يدور بخاطره.

QaradawiBooks.com

ومع هذه المُكْنة والقدرة الهائلة، لم تراع هذه الحضارة فِطرة الله في الإنسان، ولم تحافظ على الخصائص الذاتية للإنسان، ولم تبالِ بمستقبل الإنسان، ومصير الإنسان، حتى غدا علم الحضارة وتقدمها ذاته خطرًا عليها، وكاد ينطبق على هذه الحضارة وأهلها ما ذكره القرآن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

كان عيب هذه الحضارة أنها استغنت عن الله، وعزلته عن الحكم في ملكه، وتصرَّفت كأنها صاحبة الخلق والأمر في هذا العالَم، وعظَّمت كل ما هو مادي، وهوَّنت كل ما هو معنوي، واعتبرت التقدم في إنتاج أكبر كمّ من السلع والخدمات، وإشباع أكبر قدر من اللَّذات والشهوات، ولو كان ذلك على حساب القيم والأخلاق.

فلا عجب أن ضمرت رُوحها، وإن كبُر جسمُها، وانطفأ نورها، وإن بقيت نارها، فأصبحت دنيا بلا دين، وعلمًا بلا إيمان، وتمثالًا بلا رُوح.

وهذا حكمٌ على الغالب والسائد من غير شكّ، فقد توجد بذور خير ومصابيح هداية، هنا وهناك، سُنَّة الله في خلقه، ولعلها هي التي تؤخر سقوط هذه الحضارة. ولكن العبرة بالغلبة، وللأكثر حكم الكل، كما قال فقهاؤنا من قديم.

وهذا هو الذي أقلق المخلصين من أهل العلم والفكر والأدب والسياسة: أن يصيب هذه الحضارة ما أصاب ما سبقها من الحضارات، ويجري عليها القانون الإلهي الذي لا يُحابي ولا يَحيف.

QaradawiBooks.com

ونحن المسلمين نخاف على هذه الحضارة ما يخافه النُقَّاد المخلصون من أهلها؛ لأن ما فيها من خير ينتفع به الجميع، وما فيها من شر خطر على الجميع، ويُهمُّنا أن نستبقي خيرها، وأن نتفادى شرها.

ولن يكون ذلك إلا من خلال الرسالة الحضارية التي يحملها المسلمون للعالَم، وهي رسالة ربَّانية إنسانية أخلاقية، تتميَّز بالتوازن والتكامل، وتهيِّئ الإنسانَ ليقوم بعمارة الأرض وخلافة الله، وعبادته تعالى: بالعلم النافع، والإيمان الصادق، والعمل الصالح، والتواصي بالحقِّ والصبر.

إننا لا نريد أن نهدم الحضارة المعاصرة؛ لأنها ستنهدم على رؤوس الجميع، وإنما نريد أن نحميها من نفسها، وأن نقدِّم لها طوق النجاة من غرقٍ يهدِّدها، ويهدِّد البشرية معها.

إننا وحدنا نملك البديل، وهو الإسلام، الذي بعث الله به جميع رسله، وأنزل به جميع كتبه، وارتضاه الله منهاجًا لجميع خلقه، على أن نُحسن نحن الفهم له، والعمل به، والدعوة إليه، وأن نقدِّمه للناس نموذجًا يُرى، لا كلامًا يُقال، وبذلك نكون الأُمَّة التي أرادها الله بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ١٠][1].

الدوحة في ذو القعدة ١٤١٣هـ

أيار (مايو) سنة ١٩٩٣م

يوسف القرضاوي

(١) أصل هذا الكتاب بحث قُدِّم للمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بعمَّان في دورته التاسعة المنعقدة في صيف سنة ١٩٩٣م، ولكني كنتُ حذفتُ منه الفصل الثاني اختصارًا، والآن أعيده إليه ليكتمل البحث، كما أضفت إليه بعض الفقرات في بعض المواضع، تتميمًا للصورة، وخصوصًا بعد انعقاد مؤتمر السكان بالقاهرة، سبتمبر ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

الفصل الأول

روح الحضارة المعاصرة وخصائص فكرها

- روح الحضارة المعاصرة.
- الجذور الفكرية للحضارة الغربية.
- سمات الفكر الغربي وخصائصه.

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

روح الحضارة المعاصرة

لكل حضارة جسم ورُوح، كالإنسان تمامًا، فجسم الحضارة يتمثَّل في مُنجزاتها المادية من العمارات والمصانع والآلات، وكل ما ينبئ عن رفاهية العيش ومتاع الحياة الدنيا وزينتها.

أما رُوح الحضارة فهو مجموعة العقائد والمفاهيم والقيم والآداب والتقاليد التي تتجسَّد في سلوك الأفراد والجماعات، وعلاقاتهم بعضهم ببعض، ونظرتهم إلى الدين والحياة، والكون والإنسان، والفرد والمجتمع.

والحضارات الكبرى التي عرفها تاريخ البشرية تتفاوت فيما بينها في موقفها من المادية والرُّوحية، فمنها ما يغلب عليه الجانب المادي، ومنها ما يغلب عليه الجانب الرُّوحي، ومنها ما يسوده التوازن بينهما.

والحضارة التي تسود عالمنا اليوم هي «الحضارة الغربية»، وهي حضارة لها مزاياها التي لا تُنكر، من ناحية احترام حرية الإنسان ـ وخاصة داخل أوطانها ـ وإطلاق حوافزه وطاقاته، حتى استطاع أن يطوِّع «الطبيعة» لخدمته، ويُفَجِّر الذَّرَّة لمصلحته، وأن يُحَلِّق في الهواء كالطير، ويغوص في البحر كالسمك، وينطلق في الأرض كالمارد، بل غزا الفضاء، ووصل إلى القمر.. وإلى ثورة «البيولوجيا» وثورة المعلومات. كما استطاع أن يصنع ذلك الجهاز العجيب الذي وفَّر

QaradawiBooks.com

للإنسان وقته وجهده الذهني، وهو «الحاسوب»، أو الحاسب الآلي (الكومبيوتر)، وإنما فعل ذلك كله بفضل العلم الذي اكتشف قوانينه، وبرع في استخدامه وتطبيقاته «التكنولوجية» مع حسن إدارة وروعة تنظيم، وإحكام رقابة وتوجيه.

وبهذا استطاع الفرد العادي أن يعيش في مستوى من الرفاهية يحسده عليه ملوكُ العصور السابقة، الذين لم يكونوا يجدون ما يقاومون به شدة الحرِّ ولا قسوة البرد، ما يجده الإنسان الآن من أجهزة التكييف وآلات التدفئة. وما تيسَّر له من الأدوات الأُتوماتيكية التي تُدار أو توقف بمجرد الضغط على زر صغير، فيُضاء الظلام، أو يُطهى الطعام، أو يُسخَّن البارد، أو يبرَّد الحار، أو يُقرَّب البعيد، أو ينطق الحديد، بل من الآلات الآن ما يدار بغير أزرار، مثل الأبواب الإلكترونية والصنابير الإلكترونية وغيرها.

ورغم هذه الإنجازات المادية الضخمة، يقول الواقع: إن هذه الحضارة لم تهيئ لأهلها السعادة المنشودة، أو السكينة المرجوة.. إنها جسم فيل، له رُوح فأر!

أجل.. إن عيب الحضارة المعاصرة ما يتغلغل في أعماقها من «المادية النفعية»، التي جعلتنا نقول: إنها رُوح الحضارة الغربية، وأساس فلسفتها، والطابع العام لها، وجوهر فكرها الذي يميِّزها، وهو ما ينبغي أن نُلقي عليه شعاعًا من ضوء في هذه الصحائف التي نقدمها.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الجذور الفكرية للحضارة الغربية

الحضارة الغربية المعاصرة تقوم على ركائــز فكرية ممتدة الجذور، إلى عهد اليونان والرومان، ولا نســتطيع فَهم هذه الحضارة فهمًا دقيقًا، ما لم نعرف الفكر الغربي الذي اســتمدَّت منه، وقامــت عليه، ونعرف مكونات هذا الفكر وخصائصه.

ونعني بالفكر الغربي: «الفكر النظري» الذي يســود الغرب الحديث في أوروبا وأمريكا، ولسنا نعني به «الفكر العلمي» القائم على الملاحظة والتجربة، بل الفكر الفلســفي الذي يحدِّد نظرة الناس هناك إلى الدين والحياة، وإلى الكون والإنسان، وإلى المعرفة والقيم. فهو يشمل الفلسفة الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) إثباتًا أو إنكارًا.. والفلسفة الأخلاقية بشتى مدارسها.. والفلسفة الاجتماعية بمختلف مذاهبها وتياراتها وفروعها.

وسواء أكان هذا الفكر ليبراليًّا أم اشتراكيًّا، رأسماليًّا أم شيوعيًّا، فهو فكر غربي واحد في الأســاس والأصول، والســمات والخصائص، وإن اختلفت صُوره وفروعه، وتميَّز بعضها عن بعض.

أما «الفكر العلمي» القائم على المنهج الاستقرائي، فلا اعتراض لنا عليه، بل الواقــع أن أصله مقتبسٌ من الحضارة العربية الإســلامية التي ارتكزت عليه، وتفوَّقت في اســتخدامه في شــتَّى المجــالات، واعتبره

العلماء المسلمون منهجًا قرآنيًّا، وقد شهد المنصفون من علماء الغرب ومؤرِّخي العلم والحضارة فيهم بأصالة المسلمين في ذلك، وأخْذ الغربيين عنهم، كما في كتابات «بريفولت» و«جورج سارتون» و«جوستاف لوبون» وغيرهم من الشهود العدول[١].

* * *

(١) انظر كتابنا: بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين صـ ١٥، فصل: الدين في عصر العلم، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

سمات الفكر الغربي وخصائصه

هذا الفكر الغربي النظري فكرٌ خاصٌّ له سماته وخصائصه التي ينفرد بها عن فكر الشرق عامَّة، والشرق العربي والإسلامي خاصَّة، وهي خصائص عميقة الجذور، لازمته منذ نشأته في بلاد الإغريق، وانتقاله منها إلى الرومان، حتى انتقل إلى أوروبا المعاصرة، ومن ورائها أمريكا، وأثَّرت فيه عوامل تاريخية خلال صراعات القرون الوسطى تركت «بصماتها» عليه إلى اليوم.

١ ـ الغبش في معرفة الأُلوهية:

أول سمات الفكر الغربي: غبش رؤيته لحقيقة الأُلوهية، فليست رؤية صافية تَقْدُر الله حق قدره، وإنما هي رؤية غائمة مضطربة، تحيط بها الأوهام والجهالات، بل الحق أن الغرب ـ كما يظهر من تاريخه ـ لم يعرف الله جل شأنه معرفة صحيحة، ولم يهتدِ إلى الإيمان الصحيح بخالق الكون ومدبِّره، ولم يعرف حقيقة الأُلوهية الكاملة العالِمة القادرة المُريدة البارَّة الرحيمة، وذلك لأنه لم يعرف النبوَّة الهادية والوحي المعصوم معرفة مباشرة، فيما علمنا من تاريخه. ومن ثَمَّ سار في الطريق وحده باحثًا عن «العِلَّة الأُولى» أو «المحرِّك الأول» أو «واجب الوجود»، فتعثَّر وتخبَّط، وغلبت عليه الأوهام والأهواء.

حتى الفلاسفة الذين يسمِّيهم تاريخ الفلسفة «الإلهيين» ـ أي الذين اعترفوا بالأُلوهية في الجملة ـ مثل العمالقة الكبار: سقراط وأفلاطون وأرسطو، الذين رفضوا الإنكار والإلحاد، لم يكن تصوُّرهم للأُلوهية تصوُّرًا صحيحًا، بل كان تصوُّرًا قاصرًا مضطربًا مشوبًا بالكثير من الأوهام والتخليطات.

لنأخذ مثلًا «إله» أرسطو «المعلِّم الأول»[1] لدى الإغريق، لنرى أي إله هو؟ أهو الإله الذي نعرفه نحن، خالق كل شيء، ورازق كل حيٍّ، ومدبِّر كل أمر، العالِم بما كان وما هو كائن وما سيكون، الفعَّال لما يريد، والقادر على كل شيء، أم هو إله آخَر غير هذا الإله الذي نعرفه؟

لنستمع في ذلك إلى أحد مؤرخي الفلسفة المعاصرين، يقول «ول ديورانت» في «مباهج الفلسفة»: «يتصور أرسطو «الله» بوصفه رُوحًا تعي ذاتها، وهذه هي الأخرى رُوح غامضة خفيَّة، وذلك لأن إله «أرسطو» لا يقوم أبدًا بأي عمل، فليست له رغائب ولا إرادة ولا غرض، وفاعليته نقية خالصة، إلى حدٍّ تجعله لا يفعل أبدًا، وهو كامل كمالًا مطلقًا، لذلك ليس بمقدوره أن يرغب في أي شيء، ولذلك لا يعمل أي شيء! ووظيفته الوحيدة هي التأمل في جوهر الأشياء، ونظرًا لأنه هو بالذات جوهر جميع الأشياء، وشكل جميع الأشكال، لذلك فإن عمله الوحيد هو التأمل في ذاته. يا لَإله أرسطو من إلهٍ مسكين! إنه مَلِك، لا يحُلُّ ولا يربط، فالمَلِك يملك ولكنه لا يحكم!

(١) هكذا أطلقت عليه المدرسة الفلسفية المشَّائية في الحضارة الإسلامية: الفارابي وابن سينا ومن وافقهما.

ولا غرو أن يحب الإنجليز «أرسطو» فإلهه هو بوضوح صورةٌ طبق الأصل عن مَلِكهم، أو أن مَلِك هؤلاء هو نسخة عن إله أرسطو بالذات»[١].

وإذا كان إله أرسطو مسكينًا؛ لأنه لا يستطيع أن يحُلَّ ولا يربط في الكون، فأشد منه مسكنةً إله أفلوطين ـ الذي تُنسَب إليه الأفلاطونية الحديثة ـ فإنه لا يتأمَّل في شيء، حتى في ذاته نفسها[٢]!

٢ ـ النزعة المادية:

ومن سمات الفكر العربي: المادية، ونعني بها تلك النزعة التي تؤمن بالمادة وحدها، وتُفَسِّر بها الكون والمعرفة والسلوك، وتُنكر الغيبيَّات، وكل ما وراء الحس، فهي لا تؤمن بإله خالق لهذا الكون، ولا برُسُل له ينزل عليهم الوحي، ولا برُوح خالدة لهذا الإنسان، ولا بحياة أخرى بعد هذه الدنيا، ولا بعالَم غيبيٍّ غير هذا العالَم المنظور، ولا بقيمٍ مثالية فوق المنافع واللَّذات الحاضرة؛ لأن كل هذه الأشياء لا يشهد لها الحس، ولا تهدي إليها الملاحظة والتجربة.

الفكر الغربي فكر مادي، يحتقر الروحيات، حِسِّي، لا يحفل بالمعنويات، واقعيٌّ، لا يؤمن بالمثاليات.

وأود أن أُنبِّه أننا نحكم هنا على الغالب والسائد، فلا يحتجُّ علينا محتجٌّ بأن في الغرب رُوحيِّين وأخلاقيِّين ومثاليِّين، إذ النادر لا حكمَ له، والأكثر له حكم الكل، كما هو معلوم.

---

(١) مباهج الفلسفة لول ديورانت صـ ١٦١، ١٦٢، ترجمة د. أحمد فؤاد الأهواني، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٦م.

(٢) انظر: الله للأستاذ عباس محمود العقاد (٢٠٧/١، ٢٠٨)، فصل: الفلسفة بعد الأديان الكتابية، ضمن موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٧٠م.

QaradawiBooks.com

وقد غلبت هذه النزعة المادية على الحياة الغربية المعاصرة، سواء منها الجانب النظري أم الجانب العملي، حتى أصبح معروفًا لدى الدارسين المتعمِّقين أن ديانة الغرب الحقيقي اليوم هي «المادية».

وربما أنكر هذه الحقيقة أو استغربها الذين ينظرون إلى الأمور من السطح ولا يغوصون إلى الأعماق. إذ المعروف لديهم: أن أمم الغرب في مجموعها تدين بالمسيحية، وينص كثير من دساتيرها على ذلك، بل على مذهبها من كاثوليكية أو بروتستانتية، وفرنسا تعتبر نفسها حامية الكثلكة في العالَم، وإنجلترا كانت تعُدُّ نفسَها حامية البروتستانتية، وقد ورثتها في ذلك الآن الولاياتُ المتحدة الأمريكية.

وفي ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا أحزاب مسيحية كاثوليكية كبيرة، تولَّى بعضها الحكم أكثر من مرة، وحزب المحافظين البريطاني يجعل من أهدافه إقامة حضارة مسيحية... فكيف يسوغ لنا ـ بعد هذا ـ أن نُشكِّك في إيمان الغرب بالدين وتمسُّكه به؟

ولكن لا ينبغي أن تخدعنا الصور عن الحقائق، ولا القشور عن اللُّباب، ولا الأسماء عن المسمَّيات.

فالمسيحية عند هؤلاء «شعارٌ» يرتبطون به، و«صليبٌ» يتجمعون حوله، ونُزهة إلى «الكنيسة» في أيام الإجازات، وليست «قيمًا» يؤمنون بها، و«عقائد» يخضعون لها، ويُكيِّفون حياتهم وفقًا لها، ونحن نتحدث طبعًا عن الغالبية العظمى، لا عن أفراد يُعَدون شواذًّ بالقياس إلى مجتمعهم، فهم في قومهم كحلقة في فلاة.

فالغربي الحديث إذا كشفت عن جوهره الحقيقي وجدت إنسانًا لا يعرف إلا المادية دينًا والنفعية مذهبًا.

QaradawiBooks.com

وننقل هنا كلمة رجل أوروبي دارس عميق هو «ليوبولد فايس» النمساوي الذي اهتدى إلى الإسلام، وتسمَّى باسم «محمد أسد» في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق» يقول: «إن الأوروبي الحديث بما انطوى عليه من جحودٍ مهمِل لوجود النفس على أنها حقيقة عملية؛ لم يَبقَ لهدف الحياة عنده أهمية عملية ما، لقد ترك التأمل المطلق والاعتبار في الحياة وراءه ظِهريًّا.

إن الاتجاه الديني مبني دائمًا على الاعتقاد بأن هنالك قانونًا أدبيًّا مطلقًا شاملًا، وأننا ـ نحن البشر ـ مُجْبرون على أن نُخضِع أنفسنا لمقتضياته، ولكن المدنية الغربية الحديثة لا تُقر الحاجة لخضوعٍ ما، إلا لمقتضياتٍ اقتصادية أو اجتماعية أو قومية. إن معبودها الحقيقي ليس من نوعٍ رُوحاني، ولكنه الرفاهية»[١]!

ثم حلَّل الكاتب مناهضة المدنية الأوروبية للدين، وأعاده إلى سببَين أساسين:

أولهما: وراثة أوروبا للمدنية الرومانية، مع اتجاهها المادي التام فيما يتعلق بالحياة الإنسانية، وقيمتها الذاتية.

والثاني: ثورة الطبيعة الإنسانية على احتقار النصْرانية للدنيا، وعلى كبْت الرغبات الطبيعية والجهود المشروعة في الإنسان[٢].

وقد حلَّل الحضارة الرومانية التي هي أُمُّ الحضارة الغربية تحليلًا دقيقًا، ينبغي لنا أن نسجله، وأن نعيه وعيًا جيدًا، قال:

(١) الإسلام على مفترق الطرق لمحمد أسد صـ ٣٤، ٣٥، ترجمة د. عمر فروخ، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٦٥م.

(٢) المرجع السابق صـ ٤٦.

QaradawiBooks.com

«إن الرومانيين في الحقيقة لم يعرفوا الدين، وإن آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية. لقد كانت أشباحًا سُكِت عن وجودها حفاظًا للعُرف الاجتماعي، ولم يكن يُسمح لها قط بالتدخل في أمور الحياة الحقيقية، بل كان عليها أن تنطق بالرجْز على ألسنة عَرَّافيها إذا سُئلت عن مثل ذلك، ولكن لم يكن يُنتظر منها أن تمنح البشر شرائع خُلُقية.

تلك كانت التُّربة التي نمت فيها المدنية الغربية الحديثة، ولقد عملت فيها بلا شكٍّ مؤثراتٌ أخرى كثيرة في أثناء تطورها، ثم إنها بطبيعة الحال قد حوّرت وبدّلت في ذلك الإرث الثقافي الذي ورثته عن رومية، في أكثر من ناحية واحدة، ولكن الحقيقة الباقية: أن كل ما هو اليوم حقيقي في الاستشراف الغربي للحياة والأخلاق يرجع إلى المدنية الرومانية.

وكما أن الجو الفكري والاجتماعي في رومية القديمة كان نفعيًّا بحتًا، ولا دينيًّا ـ لا على الافتراض بل على الحقيقة ـ فكذلك هو الجو في الغرب الحديث...

إن المدنية الغربية لا تجحد الله البتة ـ أيْ جحودًا مطلقًا في قوة وصراحة ـ ولكنها لا ترى مجالًا ولا فائدة «لله» في نظامها الفكري الحالي...

وهكذا يميل الأوروبي الحديث إلى أن ينسب الأهمية العملية فقط إلى تلك الأفكار التي تقع في نطاق العلوم التجريبية، أو تلك التي يُنتظر منها على الأقل أن تؤثِّر في صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموسة، وبما أن وجود الله لا يقع تحت هذا الوجه، ولا تحت ذاك، فإن العقل الأوروبي يميل بداءةً إلى إسقاط «الله» من دائرة الاعتبارات العملية»[1].

(١) الإسلام على مفترق الطرق صـ ٣٨، ٣٩.

QaradawiBooks.com

ولم ينكر «ليوبولد فايس» أن في الغرب بعض الأفراد المتدينين، إلا أنهم لا يستطيعون أن يقفوا أمام الموجة المادية العاتية، أو يؤثِّروا في توجيه التيار الفكري العام. قال: «لا ريب أنه لا يزال في الغرب أفراد عديدون يشعرون ويفكرون على أسلوب ديني، ويبذلون جهود القانط حتى يوفِّقوا بين معتقداتهم وبين رُوح حضارتهم، ولكن هؤلاء شواذٌّ فقط.

إن الأوروبي العادي، سواء عليه أكان ديمقراطيًّا أم فاشيًّا، رأسماليًّا أم بلشفيًّا، صانعًا أم مفكرًا؛ يعرف دينًا إيجابيًّا واحدًا. هو التعبد للرُقيِّ المادي، أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر...

إن هياكل هذه الديانة ـ أي معابدها وكنائسها ـ إنما هي المصانع العظيمة، ودور السينما، والمختبرات الكيماوية، وباحات الرقص، وأماكن توليد الكهرباء! وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما، وقادة الصناعات وأبطال الطيران! وإن النتيجة التي لا مفر منها في هذه الحال: هي الكدح لبلوغ القوة والمسرَّة ـ أي اللذة ـ وذلك يخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح، مصممة على أن يفني بعضها بعضًا حينما تتصادم مصالحها المتقابلة.

أما على الجانب الثقافي، فنتيجة ذلك خلق نوع بشَريٍّ تنحصِرُ فلسفته الأخلاقية في مسائل الفائدة العملية، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر، إنما هو التقدم المادي لا غير»[1].

(١) الإسلام على مفترق الطرق صـ ٤٧، ٤٨.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وليست شهادة «ليوبولد فايس» على المدنية الغربية هي الشهادة الوحيدة، فهناك كثيرون غيره من أبناء الغرب المسيحيين شهدوا بما شهد، وأكدوا ما قال، وقد نقل لنا الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه القيم «ماذا خسر العالَم بانحطاط المسلمين» عن الأستاذ «جود» الإنجليزي قوله: «إن نظرية الحياة التي تسود هذا العصر، وتحكم عليه: هي النظرة في كل مسألة وشأن من ناحية المعدة والجيب»[١].

وقد أجاد الصحفي الأمريكي المشهور «جون جنتر» تمثيل هذه النفسية في كتابه «في داخل أوروبا» بقوله: «إن الإنجليز إنما يعبدون بنك إنجلترا ستة أيام في الأسبوع، ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة»[٢]!

وهذه شهادات قديمة، وقد ساء الوضع وتدهور كثيرًا، وكثيرًا جدًّا، عمَّا شهده وشهد به هؤلاء النُقَّاد، وقد ذكرت الإحصاءات الحديثة أن (٥٪) فقط من الغربيِّين هم الذين يذهبون إلى الكنيسة أيام الآحاد، وإن لم يكن هذا الذهاب يعني التدين بالضرورة.

٣ ـ النزعة العلمانية:

ومن سمات الفكر الغربي وخصائصه: النزعة العلمانية ـ وهي من ثمار الخصيصتين السابقتين ولوازمهما ـ وهي تلك النزعة التي تفصل بين الدين والدولة، وبعبارة أخرى: بين الدين والحياة الاجتماعية.

فالدين في نظر الغربي علاقة بين الإنسان وربه، محلها ضميره الذي بين جنبيه، فإن خرج من الضمير، فلا يجوز له أن يتجاوز جدران المعبد،

(١) انظر: ماذا خسر العالَم بانحطاط المسلمين صـ ١٦٥، نشر مكتبة الإيمان، المنصورة.
(٢) المصدر السابق.

QaradawiBooks.com

أو الكنيسة، وليس من شـأنه أن يوجه الحياة بالتشْريع والإلزام، وفرض تعاليمه وأحكامه على المؤسسات التي تحكم المجتمع، وتدير دفته من تعليم وتربية وثقافة وإعلام، وإدارة واقتصاد، وسياسة وتشريع.

وقد آمن الغرب بهذه الفكرة، بعد صراعه المرير مع المؤسسة الدينية الممثلة في الكنيسـة ورجالها وكهنتها، الذين زعمـوا أنهم يمثلون في الأرض إرادة الإلـه فـي السـماء، وأن رأيهـم دين، وطاعتهـم عبادة، ومخالفهم شيطان.

وللأسف كان رأيهم وفكرهم ـ الذي اعتبروه دينًا من عند الله ـ يؤيِّد الخرافة ضد الفكر، والجهل ضد العلـم، والجمود ضد التحرُّر، والظلم ضد العدل، والظلام ضد النور.

أقامت الكنيسـة «محاكم التفتيش» لمطاردة العلم، ومحاكمة العقل، ومقاومة الابتكار، ومحاربـة كل جديد، وفعلت الأفاعيل التي لم يعرف التاريخ لها مثيلًا، ضد العلماء والمفكرين والمخترعين، وقتلتهم أحياءً، وحرقتهم أمواتًا.

فلما مسَّ الغربَ المسـيحي نفحةٌ من الشرق الإسلامي، هبَّ يدافع عن ذاتـه، ويثور على جلَّاديـه، ويرفض الدين الذي حرمـه من الدنيا، وحرَّم عليـه العلم والتفكير، دين الكنيسـة والبابـوات، الذين يملكون قرارات الحرمان، وصكوك الغفران، يوزعونها على مَن يشاؤون.

رفض الفكر الغربي الناهض الدين الذي كبَّله بالأغلال، ولم يسمح له بالبقاء إلا مستكِنًّا في الضمائر، فإن خرج، فإلى المعابد والكنائس أيام الآحاد لا يعدوها.

QaradawiBooks.com

ولا غرو أن الغرب بعد أن أنزل الدين عن عرشــه، وعزله عن عجلة القيادة، نهض بعد عثْرة، وارتقى بعد هبوط، واغتنى بعد فقر، وقوي بعد ضعف، وهذا ما جعله يزداد إيمانًا بما انتهى إليه خلال مسيرته التاريخية: أن لا مكان للدين في توجيه الدولة والمجتمع.

ومما يؤيِّد هذ التوجه في الفكر الغربي: أن الإنجيل نفســه يؤيد هذا الاتجاه ويدعمه، حيث يقول المسيح: «دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»[1].

ومعنى هذا: أنه قبل قسمة الحياة نصفين: نصف للدولة المعبَّر عنها بـ «قيصر»، ونصف للدين، الذي هو «لله».

فهذا الانشطار والانقســام والانفصام بين الله وقيصر، أو بين الدين والدولة؛ هو أحد السمات الأساسية لفكر الإنسان الغربي.

٤ ـ الصراع:

ومن خصائص الحضــارة الغربية: أنها حضارة تقــوم على الصِّراع، لُحمتها وسَدَاها الصراع، لا تعرف السلام ولا الطمأنينة ولا الحب.

وهو صــراعٌ متغلغلٌ فــي كل النواحــي، متنوعُ الأشــكال، متعددُ المجالات، متباينُ الأسلحة والأساليب.

إنه صراع بين الإنسان ونفسه، وصراع بين الإنسان والطبيعة، وصراعٌ بين الإنسان والإنسان، وصراعٌ ـ أيضًا ـ بين الإنسان والإله!

فالإنســان في الغرب يصارع فطرته التي فطره الله عليها، إذا أراد أن يحيا الحياة المثالية التي تريدها له ديانته النصرانية، فالوضع المثالي له

(١) إنجيل متّى (٢١/٢٢).

QaradawiBooks.com

أن يستقذر الجنس، ويرفض المال؛ لأن الغني لا يدخل ملكوت السماوات، إلا إذا دخل الجمل في سَمِّ الخِياط، ويحرم نفسه من الطيبات من الرزق، ومن زينة الله التي أخرج لعباده، ويتحمَّل السيئة من المسيء، ويدير خدَّه الأيسر لمن ضربه على خده الأيمن! فإذا لم يستطع أن يفعل ذلك ـ كما هو شأن معظم الناس ـ ظل يعاني عقدة الصراع بين مثاليته التي يؤمن بها، وواقعه الذي يعيشه ويمارسه.

وإنسان الحضارة الغربية في صراع مع الطبيعة؛ لأنه ينطلق من أن الطبيعة عدو له، يجب أن يفرض سيطرته عليها، ولهذا يُعبِّر الغربيون عن ذلك بكلمة «قهر الطبيعة» وهي كلمة لها دلالتها وإيحاؤها. على حين يرى الإسلام أن الطبيعة بكل ما فيها مُسخَّرة لمنفعة الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

وهو ما عبر عنه النبي ﷺ أجمل تعبير وأرقه في شأن جبل أحد حين قال: «**أُحد جبل يحبنا ونحبه**»[(١)].

والإنسان في الحضارة الغربية في صراع مع أخيه الإنسان، وهو صراع يأخذ صورًا شتَّى.

فهو صراع بين الأفراد من أجل منافعهم الفردية المتباينة، ولا سيما مع سيادة النزعة الفردية، والفلسفة النفعية، وشيوع مقولة «هوبز»: «الإنسان ذئب للإنسان»! وقول كل امرئ بعد ذلك: «أنا وليخرب العالَم»!

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٩)، ومسلم في الحج (١٣٦٥)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

وهو صراع بين الطبقات والجماعات، وخصوصًا مع استئثار كل جماعة بالمنافع لأنفسها، وجورها على غيرها، واحتقارها لمن سواها.

وهو صراع بين الأُمم والأجناس، وخصوصًا مع حدَّة الشعور القومي، ونزعة الاستعلاء عند كل أُمَّة، وهو ما أدَّى إلى حروب إقليمية وعالَمية، وما لا نزال نرى أثره في العلاقة بين البيض والسود، أو البيض والمُلوَّنين عامة، في أمريكا وإفريقيا وغيرهما.

وهو صراع بين المؤسسات، كالصراع بين الكنيسة والدولة، الذي انتهى إلى ما عُرف عندنا باسم «العِلمانية»، وتعني: فصل الدين عن شؤون الدولة والمجتمع.

ومثله الصراع بين الدين والعلم، وبعبارة أخرى بين المؤسسة التي تمثل الدين وهي الكنيسة ورجال الأكليروس، والمؤسسة التي تمثل العلم، وهي الجامعات ومراكز البحث وغيرها.. وقد تجسَّد هذا الصراع في محاكم التفتيش التاريخية، وما قامت به ضد العلم والعلماء من مآسٍ تشيب لهولها الولدان.

وأدهى من ذلك كله وأمرّ في الحضارة الغربية: الصراع بين الإنسان والرب أو الإله، وهذا فكر موروث من مصدرين رئيسيين:

١ ـ وثنية اليونان وآلهتها التي كانت تُغِير وتدمر وتحرق.

٢ ـ العهد القديم (التوراة وملحقاتها) الذي يصوِّر الإله حاقدًا ناقمًا غيورًا حتى إنه يخلق الإنسان (آدم) ثم يخاف منه، ويخشى أن يزاحمه في المعرفة أو الخلود، فيُحرِّم عليه الأكل من الشجرة[1]. وهو

(١) سفر التكوين (٥/٣).

QaradawiBooks.com

يصارع إسرائيل، فيصرعه إســرائيل، فلا يُفلته إلا بوعد منه لمصلحة نسله وذُرِّيَّته[١]!

٥ ـ الاستعلاء على الآخرين:

ومن ســمات الفكر الغربي: نزعة الاستعلاء على الآخرين، التي تســري وتتحكم في عقول الغربيِّين كافَّة، فهم يعتقدون أنهم أفضل من غيرهم عنصــرًا، وأنقى دمــاء، وأنهم خُلِقوا ليقودوا ويســودوا ويحكموا، وأن الآخرين خُلِقوا ليكونوا مَسُــودِين ومحكومين لهم، هكذا بالفِطرة والخِلْقة.

ولهذا سادت نظرية عندهم هي نظرية «تفاضل الأجناس» وأن الناس ليسوا سواسية ـ كما نؤمن نحن المســلمين؛ لأن أباهم واحد، وربهم واحد ـ بل الأجناس والعــروق متفاوتة بحكم الخِلْقة، والجنس الآري أفضلها وأذكاهــا وأقدرها، هكذا آمن «رينان» وغيره من الفلاســفة في القرن الماضي.

ولقد ســقطت هذه النظرية من الناحية العِلميــة، فلم يُثبت العلم أن هناك جنسًــا أفضل من جنس، من جهة الخِلْقة والفِطــرة، ولكنها البيئة والظروف المساعِدة، وقد كانت شُعلة الحضارة في يد الشرق قديمًا، أيام حضارة الفراعنة والهنود والصينيِّيــن والبابليِّين والفينيقيِّين وغيرهم، ثم انتقلت الشُّعلة إلى الغرب أيام حضارة اليونان والرومان، ثم عادت إلى الشرق على يد الحضارة العربية الإســلامية، ثم انتقلت مرة أخرى إلى الغرب بعد أن مسَّــته نفحةٌ من الشَّــرق الإســلامي عن طريق الأندلس

(١) سفر التكوين (٢٤/٣٢ ـ ٣٠).

وصقلِّية، ولقاءات الحـــروب الصليبية، والدَّوْر الآن للشـــرق لا للغرب الذي أفلس في قيادة الحضارة وإسعاد العالَم بها.

لقد سقطت نظرية تفاضل الأجناس علميًّا، ولكنها لم تسقط نفسيًّا، وما زال لها تأثيرها في أنفس الكثيرين، بل الأكثرين من أبناء الغرب في علاقتهم بالآخرين.

والعجيب أن نجد رجلًا عالِمًا كبيرًا، مثل «د. ألكســيس كاريل» من علماء هذا القــرن، ومن الحائزين على جائــزة نوبل في العلوم، يؤمن بتفوق الأجناس البيضاء على غيرها، كما سننقل ذلك عنه في الفصل القادم.

ولهذا نجد الأوروبيِّين يعتقدون أن أوروبا أم الدنيا، وأن التاريخ منها بــدأ، وإليها يعود، وأن التاريــخ القديم والوســيط والحديث هو تاريخ أوروبا وحدها. وأن الحضارة هي حضارتهم وحدهم.

وهذا ما أخذه الأوروبيون عــن الرومان الذين كان العالَم في نظرهم ينقسم إلى رومان وبرابرة، فكل من عداهم برابرة همج!

وقد رأينا الاستعلاء العام لدى الأوروبيين عامة ينتقل إلى أقطارٍ منها خاصة، كلٌّ يزعم أنه الأنقى ســلالة، والأذكى عنصرًا. كما صنع «هتلر» ورفع شــعار: ألمانيا فوق الجميع. وكما فعل «موســوليني» وجماعته، ورفعوا شــعار: إيطاليا فوق الجميع. وكما فعل البريطانيون الذين رفعوا شعار: سودي يا بريطانيا واحكمي!

فشأن هؤلاء شأنُ بني إسرائيل الذين يزعمون أنهم ـ بجنسهم ـ شعب الله المختار.

QaradawiBooks.com

تلك هي أبرز السمات والخصائص المميِّزة للفكر الغربي، والتي كان لها نضحها وأثرها على سلوكه وتصرفاته وعلاقاته بنفسه وبالآخرين، وكان لها ثمار إيجابية في بعض الجوانب، كما كان لها آفاتها وثمارها المُرَّة في جوانبَ أخرى. وإن الغربيِّين أنفسهم هم الذين أبصروا هذه الآثار السيئة لهذه الحضارة المادية الصناعية الآلية، وطفقوا يُنكرون عليها ماديَّتها وعلمانيَّتها واستعلاءها وغرورها، وشرعوا ينادون بوجوب العودة إلى الدين، ويبشِّرون بمستقبل العقيدة.

وسنذكر شيئًا من ذلك في الصحائف التالية من الفصل القادم إن شاء الله.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الفصل الثاني

آفات الحضارة المعاصرة وآثارها على الحياة البشرية

- **الآثار الإيجابية للحضارة الغربية.**
- **الآفات والآثار السيئة للحضارة المعاصرة.**

ـ الانحلال الأخلاقي.

ـ التفسُّخ العائلي.

ـ القلق النفسي.

ـ الاضطراب العقلي.

ـ الجريمة والخوف.

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

الآثار الإيجابية للحضارة الغربية

لا يجحد منصف أن للحضارة الغربية آثارًا إيجابية، وثمارًا طيبة في الحياة الإنسانية. وهذا ما يلمسه كل إنسان في نفسه ومن حوله.

لقد استطاعت هذه الحضارة بوساطة تقدم العلوم الرياضية والطبيعية وتطبيقاتها التكنولوجية: أن تمنح الإنسان قدرات وإمكانات لم يمنحها أحد قبله، وما كان يحلم بها في نوم، أو يجول بها خياله في يقظة، وأن توفِّر له بذلك وسائلَ وأدواتٍ وأشياءَ لم تكن تتهيَّأ للملوك وسلاطين الدنيا من قبل.

لقد اختصرت الحضارة للإنسان المسافات، فقرَّبت له المكان، ووفَّرت له الزمان، عن طريق المواصلات الحديثة: الباخرة والقطار والسيارة والطائرة، وتطوير هذه الوسائل بصورة مستمرَّة، حتى غدا العالَم ـ كما قال أحد الكُتَّاب ـ قرية كبرى. ولا سيما إذا أضفنا الاتصالات السلكية واللاسلكية، والإذاعة والتلفاز والتيلكس والفاكس وغيرها من عجائب هذه الحضارة.

بل أصبحت هذه القرية اليوم تصغر وتصغر حتى صارت أشبه بحارة أو زقاق، ما يجري في أقصى طرف منه يصل إلى الطرف الآخر في لحظات معدودة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

لقد وفَّر عصر الصناعة الأول بواسطة الآلة «المجهود البدني» للإنسان، فما كان ينسخه الإنسان بخطه وقلمه في سنين طويلة، أمست تقوم به المطبعة وأضعاف أضعافه في دقائق، وما كان يَخيطه الإنسان بيديه بطريق الإبرة والخيط، ويقضي فيه أسابيعَ أو أشهرًا، أضحت «الماكينة» تنتهي منه في دقائق معدودات، وما كان يحمله الإنسان من أثقال على كتفيه غدت تحمله عنه الآلات.

ثم جاء عصر الصناعة الثاني، الذي أصبحت فيه الآلة توفر «المجهود الذهني» للإنسان، إنه عصر الحاسوب أو «الكومبيوتر»، الذي بات يقوم بعمليات معقَّدة هائلة، كان الإنسان يقضي فيها سنين وسنين، وهو الآن يُنهيها، ويظهر نتائجها في لحظات. بل يقوم بأشياء ما كانت لتدور بفكر الإنسان؛ لأنها أكبر من طاقته المعتادة.

ولقد تطوَّر هذا الجهاز العجيب حتى أصبحت أجيالُه الجديدة أقل كلفة، وأكثر قدرة، وأصغر حجمًا، وأمسى يتدخَّل في كل جنبات الحياة، ولم يعد أحد يعيش في هذا العصر يستغني عنه، فهو في الآلات الحاسبة الصغيرة، وفي لهو الأطفال.

وقد دخل الحياة العلمية الإسلامية، فدخل في علوم القرآن، وفي علوم الحديث، وفي اللغة وعلومها وآدابها، وفي غير ذلك من العلوم الإسلامية.

وميزة هذه الحضارة: أنها لا تقف جامدة، إنها تنتقل من طور إلى طور، انتقلت من عصر البخار إلى عصر الكهرباء، إلى عصر الذَّرَّة والنواة والإلكترون وغزو الفضاء، والثورة البيولوجية وهندسة الوراثة، مما له انعكاسات خطيرة في حياة الإنسان، والتأثير على البيئة والتوازن الكوني.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ولقد أعطت الإنسان الحوافز التي تدفعه إلى الابتكار والإنتاج، وصنعت له المناخ النفسي والعقلي الذي يشجِّعه على المُضِيّ، وهيَّأت له الإدارة الحسنة التي تساعده على إتقان عمله، فتكافئ المحسن، وتعاقب المقصِّر والمنحرف، كما هيَّأت له مجتمعًا تُرعى فيه حرية الإنسان الفرد وحقوقه الفطرية، وتُصان فيه حرماته في مواجهة ظلم الحكام وحُكم الظُّلَّام، وبهذا شعر الإنسان بكرامته وقيمته، وتحرَّر من الخوف والذل، فأنتج وأحسن وأفاد.

ولقد استطاع الإنسان في ظل هذه الحضارة أن يحصل على «دساتير» تحدِّد حقوق كل من الحاكم والمحكوم وواجباته، وأن تُلزم به أهل الحكم والسلطان، وأن تجد من الضمانات ما يكفل استمرار ذلك عن طريق «الديمقراطية» التي تحكم فيها الأكثرية التي تأتي بها انتخابات حرة، وقد تسقط هذه الأكثرية في انتخابات لاحقة، لتتسلم الراية منها جماعة أخرى رضي عنها جمهور الناس، وبهذا تُتداول السُّلطة، ولا تغدو حِكْرًا على فئة أو حزبٍ من الناس.

صحيح أن هناك قُوًى خفية هي التي تؤثر وتضغط بنفوذها وإمكاناتها، ولكنها مهما أوتيت من قوة لا تستطيع أن تُسكت صوت الجماهير، ولا أن تفرض على الناس ما يكرهون.

هذه هي الجوانب الطيِّبة أو الحسنة في الحضارة الغربية، وكلها تتعلق بالوسائل والأدوات والآليَّات التي يستخدمها الإنسان، وهي سلاح ذو حدَّين، يمكن أن تُستعمل في الخير، وأن تُستعمل في الشر، وتقارُبُ العالَم الذي عبَّروا عنه بالقرية، ليس خيرًا محضًا، بل ربما جلب وراءه شرًّا كثيرًا، ولهذا بات العالَم يخاف من الآثار المدمِّرة للبثِّ التليفزيوني

QaradawiBooks.com

المباشـــر، وهكذا كل الوســـائل، إذا لم تستخدم لغايات شـــريفة. وهو ما تفتقـــده الحضـــارة المعاصرة إلى حـــدٍّ كبير، فهي حضارة الوســـائل والآلات، لا حضـــارة المقاصد والغايات! وهو ســـرُّ ما تعانيه من نقص وآفات، وهو ما نتحدث عنه في هذا الفصل.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآفات والآثار السيئة للحضارة المعاصرة

لقد ولَّدت الحضارة المعاصرة إلى جوار آثارها الإيجابية آثارًا سلبية، ما برحت البشرية تعاني ويلاتها، وتذوق مُرّ ثمراتها.

وسنذكر هنا المعالم البارزة لهذه الآثار، معتمدين على واقع هذه الحضارة في ديارها الأُم، كما تُصوِّره التقارير والأرقام والمشاهدات.

١ ـ الانحلال الأخلاقي

أبرز آثار حضارة اليوم وآفاتها هو التحلُّل من قيود الأخلاق الذي جاءت بها كل أديان السماء، وهدت إليها رسالات الله جميعًا.

إن الثمرة من جنس الشجرة، وشجرة المادية النفعية السارية في حضارة الغرب، لا يمكن أن تُثمر خُلُقًا إنسانيًّا رفيعًا يمسك بناء المجتمع، وإنما تثمر التفسُّخ والتحلُّل الذي يهزُّ صرح المجتمع ويزلزله، ويهدِّده بالانهيار، وصدق الله، إذ يقول: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

قال ليو بولد فايس (محمد أسد) في كتابه السابق الذكر «الإسلام على مفترق الطرق»: «إننا نجد في التبدُّل الأساسي الذي تخضع له الحياة الاجتماعية في الغرب الآن تلك الفلسفة الأخلاقية الجديدة المبنيَّة

QaradawiBooks.com

على الانتفاع تبرز للعيان شيئًا فشيئًا. وكل الفضائل التي تتعلق مباشرة برفاهية المجتمع المادية، كالمقدرة الفنية والوطنية والشعور القومي؛ هي اليوم موضع للمديح، ولرفع قيمتها فوق ما هو معقول، بينما الفضائل التي ظلت تُعتبر إلى اليوم من جهة قيمتها الخُلُقية الخالصة كالحُب الأبوي والعفاف، تخسر قيمتها بسُرعة؛ لأنها لا تهب المجتمع فائدة مادية محسوسة»[١].

وفي موضعٍ آخر يقول: «إن العفاف والإحصان يصبحان مع الأيام خبرًا ماضيًا في الغرب الحديث؛ لأنهما مفروضان من طريق الخُلُق فحسْب، وليس للاعتبارات الخُلُقية أثر مباشر محسوس في رفاهية الشعب المادية. وهكذا نجد أن الفضائل الخُلُقية القديمة التي يؤيِّدها الدين، أخذت تخلِّي مكانها بالتدريج للفضائل الغربية التي تدعو إلى حرية فردية للجسد البشري غير مقيَّدة، أما ضبط النفس ومراقبة الملذَّات الجنسية، فإنهما يفقدان أهميتهما بسرعة»[٢].

ويقول «ريتشارد لفنجستون» وكيل جامعة أكسفورد في كتابه «التربية لعالم حائر»: «لو أننا كنا نبحث عن كلمة برَّاقة تصف عصرنا هذا، لطرأت على أذهاننا عبارات عدة، فقد نطلق عليه: عصر العلوم، أو عصر الثورة الاجتماعية، أو العصر الذي خلا من المعايير الخلقية، غير أن اسمًا من هذه الأسماء لن يبيِّن حقيقة العصر كاملة، أو يُنصفه إنصافًا تامًّا. على أن الاسم الأخير أجدر من غيره بعض الشيء بأن يوضع موضع الاعتبار»[٣].

(١) الإسلام على مفترق الطرق صـ ٤٨.

(٢) المصدر السابق صـ ٤٩.

(٣) التربية لعالم حائر لريتشارد لفنجستون صـ ١٤، ترجمة أ. محمد بدران.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وفي مكان آخر من الكتاب يقول: «لكنَّك إذا انتقلت من ميدان العلوم إلى ميدان الأخلاق والدين، رأيتَ نفسك في أرضٍ قفر، تسودها المعتقدات المزعزعة، والمعايير الخُلُقية المحطَّمة، حيث لا يزال اللصوص ينهبون ويسلبون، ففي هذا الميدان غدا عمل القرن العشرين أن يقوِّض أركان المعتقدات الوطيدة المستقرة، التي سادت العصر الفيكتوري، فهوى أمام تلك الهجمات إيمان راسخ، وتهشَّمت تحت تلك الضربات نظرة للحياة كانت في أكثر نواحيها نبيلة سامية»[1].

وهذا كلام قديم، ولا ريب أن الأمور أصبحت اليوم أكثر سوءًا مما كانت عليه يوم قيل هذا.

تقرير يحمل إنذارًا:

نذكر هنا نموذجًا للانحلال الخُلُقي في الغرب، وهو نموذج قديم يُعتبر ما فيه «محافظًا» بالنسبة لما تطوَّر إليه الحال، وهو ترجمة حرفية لما نشَرته كل صحف بريطانيا اليومية في إبريل سنة ١٩٦٤، وهو موجز للتقرير الضخم الحافل بعجائب المغريات الذي أصدرته الهيئة الطبية في كتيب تخطفته الأيدي فور صدوره في لندن، وهذه الترجمة ننقلها عن مجلة «المسلمون»[2] الشهرية، قالت المجلة: «أصدرت الهيئة الطبية البريطانية، في الشهر الماضي تقريرًا موضوعه «الشباب والأمراض السرية» كانت قد عهدت بإعداده إلى لجنة تضمُّ ممثلين للكنيسة، وباحثين اجتماعيين ونفسيين وأساتذة جامعيين، بالإضافة إلى بعض الأطباء، ذكرت فيه أن «القنبلة» والخوف من التحطيم المرتقب للبشرية، من بين الأسباب التي

(١) التربية لعالم حائر صـ ٢٨.

(٢) مجلة المسلمون، العدد (٨) ١٩٦٤م، التي كان يصدرها الداعية الإسلامي المعروف د. سعيد رمضان.

QaradawiBooks.com

دعت الشـــباب إلى اتخاذ «اللَّذَّة» مبدأً في الحياة، لذة لا تحترم دينًا، ولا علمًا، ولا تُلقي بالًا لروابط الأســـرة أو المسؤوليات الاجتماعية، فشريعة اليوم هي البحث اليائس عن اللذة.

إن الشـــباب يودُّون أن يجمعوا كل أنواع اللذات الحسية التي تجود بها الحياة قبل فـــوات الأوان، والأدلة التي أدلى بها الشـــباب للباحثين الاجتماعيين والأطباء والبوليس وغيرهم من المهتمين بشؤون الشباب، تدلُّ على أن الصلات الجنســـية قبل الزواج وخارج نطاق بيت الزوجية أصبحت أمرًا عاديًّا، وقد ذكر أحد الشـــهود بعد أن قام بدراســـة خاصة لسلوك الشـــباب ـ ولا ســـيما الجامعيين منهم ـ أن «شـــيوعية الجنس» أصبحت «موضة» في السنوات السبع الأخيرة.

يقول التقرير: إن نسبة زيادة الأمراض السرية أكبر بكثير من نسبة الزيادة في عدد الســـكان، فما بين ســـنتي (١٩٥١ ـ ١٩٥٢م) زاد عدد السكان بنسبة (٦٪)، بينما زادت نســـبة الأمراض التي تنتقل عن طريق الصلات الجنسية بنسبة (٦٣٪)، والأطفال غير الشـــرعيين زادوا من (٤,٦٪) إلى (٦,٦٪) في إنجلترا وويلز ما بيـــن (١٩٥٥ ـ ١٩٦٦م). وأما في لندن، فالزيادة من (٧,٧٪) إلى (١٠,١٤٪)، ويُعزى سبب الزيادة إلى التغيير الكبير الذي طرأ على نظرة المجتمع للقيم الأخلاقية عامَّة، والمتصلـــة فيها بالجنس خاصَّة، ومن بين أســـباب هذا التغيير تناقص أثر الدين، وفقدان الأمن فـــي الحياة الجديدة، وفشل التربية والتوجيه الأبوي، وقصور التربية الجنسية، وما دامت الفوضى الجنسية نذيرًا بانهيار اجتماعي، فلا بد من إعادة الاهتمام بالتربية المنزلية.

والحل الذي نراه هو: «إحداث تغيير جِذري فـــي المجتمع ذاته» وقد عدَّت الجمعية شـــرب الخمر وأندية «الجاز» والحفلات الســـاهرة من بين

QaradawiBooks.com

العوامل التي قادت إلى الفوضى الجنسية بين الشباب، والجمعية تؤكد أنه لا حل غير «العفَّة»، إذ إن العفة وحدها هي الضمان ضد الأمراض التناسلية والحمل السفاحي، فإن ثلث الفتيات اللائي يتزوجن قبل العشرين، يتزوجن «وهن حاملات»! كما تقترح اللجنة على الحكومة تكوين لجنة للنظر في أمر الأدب المكشوف، لصلته المباشرة بهذا الموضوع».

ولكن هل استجاب المجتمع ومؤسساته لهذا النداء الملخص في بريطانيا أو في غيرها؟ هل وجدت الدعوة للعودة إلى «العفَّة» قبولًا؟

الواقع أن المجتمع الغربي كله يزداد سوءًا، وينتقل من سيِّئ إلى أسوأ، وقد كنت في زيارة للندن منذ بضع سنوات، وكان معي صديق معه أسرته، فذهب يومًا إلى حديقة «هايد بارك» الشهيرة، ومعه طفلته الصغيرة، فوجد شابًّا مع فتاة في وضع جنسي مكشوف! فسألته الطفلة: ماذا يعمل هؤلاء يا أبي؟ قال: هؤلاء حيوانات! فقالت الابنة ببراءة: وماذا يفعل هؤلاء الحيوانات؟ ولم يستطع الأب أن يجيب، وفَرَّ من المكان إلى مكان آخر، فوجد مشهدًا أقبح من الأول، فأسرع الرجل بابنته عائدًا إلى الفندق الذي يقيم فيه!

وما زالت الصحف والمجلات والكتب تُمِدُّنا بالعجائب والغرائب مما يحدث في عالَم الحضارة المادية الاستهلاكية.

والبلاد الأوروبية الأخرى أسوأ من بريطانيا، وأمريكا كذلك.

ما زلنا نقرأ عن انتشار الشذوذ الجنسي، إلى حد مهزلة أو مأساة «زواج الرجال بالرجال» أو «زواج النساء بالنساء»، وأن بعض الكنائس باركت ذلك، وأن بعض القُسُس قام بمباركة هذه العقود الدنسة!

QaradawiBooks.com

هذا بالرغم من ظهور ذلك الوباء الذي أصبح حديث العالَم، ومَشغَلة الأوساط الطبية والعلمية، وهو ذلك المرض الذي يُفقِد صاحبه المناعة، ويجعله فريسة سهلة لأي «ميكروب» أو «فيروس» يفتك به، دون أن يجد من داخل الجسم الجند الطبيعي للمقاومة، فقد قضى التحلُّل والشذوذ وانتشار الفاحشة ظاهرة وباطنة على هذا الجند الذي جهز الله به كيان الإنسان. إنه المرض العضال، الذي أعياهم دواؤه، وهو ما يعبِّر عنه الإنجليز بـ «الإيدز» والفرنسيون بـ «السيدا».

وما زلنا نقرأ عن انتشار أفلام الجنس والمخدرات والسموم البيضاء بصورة أذهلت كل من يزور هذه البلاد، حتى من الموالين للغرب فكرًا واتجاهًا.

وثيقة مؤتمر السكان بالقاهرة تجسيد لانحلال الحضارة:

ولقد برز التحلل الذي أُصيبت به الحضارة المعاصرة بصورة حيَّة ومجسَّمة، في «المؤتمر العالَمي للسكان والتنمية» الذي عُقِد أخيرًا في القاهرة (من ٥ إلى ١٣ سبتمبر ١٩٩٤م)، برعاية «هيئة الأمم المتحدة» وتنظيمها، خصوصًا في «الوثيقة» التي أعدَّتها أمانة الهيئة بوصفها مشروعَ برنامج المؤتمر.

ولقد أثارت هذه الوثيقة وبنودها العالَم الإسلامي كلَّه، وصدرت بيانات عدة من هيئات كبرى مستنكرة لها، مثل مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ولجنة الفتوى به، وبيانات النقابات والجماعات الإسلامية المختلفة، مما جعل رئيس الجمهورية في مصر يعلن أنه لن يقبل أي بند يتعارض مع الدين والقيم والشرائع الإسلامية.

QaradawiBooks.com

كما أصدرت هيئة كبار العلماء بالمملكة السعودية بيانها المندِّد بالوثيقة وتوجُّهها، وطلبت إلى المسلمين مقاطعة المؤتمر، وكذلك بيان رابطة العالَم الإسلامي.

وقاطعت عدة دول إسلامية المؤتمر، كما هاجم بابا الفاتيكان المؤتمر وما ينطوي عليه برنامجه من اعتداء على حق الحياة بإباحة الإجهاض، وإقرار للعلاقات غير المشروعة.

ولقد جهدت الدول الإسلامية جهدها لتغيِّر من الوثيقة واتجاهها، ولكنها لم تستطع أن تُعدِّل فيها إلا تعديلات طفيفة، وبقيت الوثيقة كما هي، ممثلة للحضارة السائدة، ودولها المهيمنة، فقد تجلَّت فيها «الإمبريالية الثقافية» الجديدة، بعد سقوط الإمبريالية العسكرية والإمبريالية السياسية.

كل ما استطاعت الدول الإسلامية، ومعها بعض الدول الكاثوليكية أن تصنعه: أن أضافت في ختام الوثيقة جملة تقول: «إن من حق كل دولة أن تطبِّق هذه الوثيقة في إطار قيمها الدينية والأخلاقية والثقافية، غير ملتزمة بما يخالف قيمها وشرائعها وتقاليدها».

ومن حقنا ـ بل من واجبنا ـ أن نُلقي شعاعًا على أهم البنود التي تخالف فيها الوثيقة القيم الأخلاقية التي نادت بها الأديان السماوية عامَّة، وأكدها الإسلام خاصَّة:

١ ـ إن الوثيقة لم تذكر اسم «الله» جل وعلا قط، لا في أولها ولا في وسطها، ولا في آخرها، فلا عجب أن تخلو من أي نفحة من نفحات الإيمان بالله تعالى وبرسله، وبلقائه وحسابه في الأخرة، فهي صادرة عن رُوح مادية حسِّيَّة غليظة، عبَّرت عن نفسها بجلاء في إسقاط القيم الإيمانية والأخلاقية، وصدق الله العظيم: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا﴾ [الأعراف: ٥٨].

QaradawiBooks.com

٢ ـ ربطت الوثيقة بين زيادة السكان وبين الفقر واستحالة التنمية، ولذا ترى أن الحدَّ من النمو السكاني ـ وخصوصًا في العالَم الثالث ـ هو الطريق الأمثل ـ بل الطريق الأوحد ـ لتحقيق التنمية، ورفع مستوى المعيشة، متجاهلة الأسباب الحقيقة وراء كل ذلك، مثل السباق المسعور على التسلح، وإنفاق المليارات في إنتاج السلاح وترويجه، وإشعال الحروب المحلية والإقليمية، والمساعدة على عدم الاستقرار السياسي، والمذابح الجماعية، ونحوها، بالإضافة إلى إسراف العالَم المتقدِّم في استهلاك الموارد والطاقات، والاستغراق في اللَّذَّة والمتعة، على حساب فقراء العالَم، فالعالَم المتقدِّم يمثِّل أقل من رُبُع سكان العالَم، ولكنه يستهلك نحو ثلاثة أرباع موارده وطاقاته.

يقول المفكر الفرنسي المسلم «روجيه جارودي» معلقًا على المؤتمر: «يأتي الأغنياء إلى القاهرة تحت غطاء الأمم المتحدة ـ التي يتسلط عليها القادة الأمريكان ـ ليقولوا للفقراء: لا تُنجبوا بعد الآن أطفالًا، كي نستطيع الاستمرار في نهبنا وإسرافنا»!

ويوجه «جارودي» خطابه إلى الغربيِّين قائلًا: «إذا كنتُم تزعمون أن الأرض لا تستطيع إطعام جميع الناس، فلماذا تجبر الولايات المتحدة أوروبا على تبوير (١٥٪) من أراضيها الصالحة لزراعة القمح؟! لولا أنها تريد الإبقاء على صادرات وأسعار القمح الأمريكي على مستواها، وذلك على حساب الجياع من الناس».

ثم يقول: «القنبلة الديمجرافية (السكانية) خدعة لترسيخ الاستغلال، فإن ما يهدِّد الكرة الأرضية ليس هو تزايد أطفال العالَم الثالث، ما يهدِّد بالموت هو نموذج نُمُوِّكم الجنوني، الذي ما فتئتم منذ خمسة قرون

QaradawiBooks.com

تحاولون فرضه على الكرة الأرضية بأسرها، بواسطة الاستعمار (في البداية)، ثم بواسطة صندوق النقد الدولي (في النهاية).

إن تخصيب الصحراء من داكار (في السنغال) إلى مقديشو (في الصومال) بواسطة شبكة مضخات مائية تعمل بالطاقة الشمسية، يكلف مليارًا ونصف مليار دولار (١,٥)، أي ما يعادل تكلفة حاملة طائرات!

إن مؤتمر القاهرة يجب ألا يسمح بصلب الإنسانية على صليب من ذهب، لمحاولة الإبقاء على مثل علاقات القوة هذه بين أقلية مالكة وأكثرية مستغلَّة!»[1].

أما منظمة (الاتحاد الدولي للحفاظ على حق الحياة) ومقرها سويسْرا، فقد وزعت منشورًا تقول فيه: يزخر الكون بموارد لا تنضب، ويجب أن نعمِّر الكون بالبشر لإنقاذ أنفسنا وكوكبنا.

٣ ـ ترى الوثيقة أن السبيل إلى الحد من النمو السكاني يتركز في جملة وسائل:

أ ـ منها: إباحة الإجهاض، بجعله أمرًا مشروعًا قانونًا على مستوى العالَم، بهذا تقرُّ الوثيقة المذبحة البشَرِيَّة السنوية التي يذهب ضحيتها حسب إحصاءات الأمم المتحدة (٥٢) مليونًا من الأجنّة في بطون أمهاتها: (٢١) مليونًا في السر، (٣٢) مليونًا في العلانية.

والأديان كلها تحترم حق الحياة لهذا المخلوق الضعيف: الجنين في بطن أمه، والإسلام خاصة شدَّد في ذلك، حتى إنه لا يُجيز إعدام القاتلة

(١) نشرت هذه الكلمات وغيرها صحيفة العرب القطرية، نقلًا عن رويترز، صبيحة الثلاثاء ١٣ سبتمبر ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

الحامل، حفاظًا على جنينها، فإن كان للشرع سبيلٌ عليها، فليس له سبيلٌ على ما في بطنها، ولا يُجيز التخلُّص منه ولو كان من سفاح.

وإباحة الإجهاض بإطلاق تعني إطلاق العِنان للتحلل والإباحية الجنسية التي ترفضها كل الديانات والقيم السماوية.

وقد استخدم واضعو الوثيقة تعبيرات متعددة لإباحة الإجهاض منها:

١ ـ الحمل غير المرغوب فيه (يراجع نص الوثيقة صـ ٢٨ فقرة ٤ ـ ٢٧ في الإجراءات).

٢ ـ إنهاء الحمل وتخفيف عواقب الإجهاض (صـ ٤٢ فقرة ٧ ـ ٤ في الإجراءات).

٣ ـ الإجهاض غير المأمون (صـ ٦١ فقرة ٨ ـ ٢٥)، والفقرة البديلة (صـ ٦٢) طالبت بإجراء تغييرات في السياسة وعمليات تشريعية تعكس تنوع الآراء بشأن قضية الإجهاض!

ب ـ تقديم الثقافة والمعلومات الجنسية للمراهقين والمراهقات وإباحة الممارسات الجنسية لهذه الفئة في هذا السن من خلال حقهم في سرية هذه الأمور وعدم انتهاكها من قِبَل الأسرة.

وجاءت الفقرة (٧ ـ ٤٣ صـ ٥٣) واضحة نصًّا: «يجب أن تزيل البلدان العوائق القانونية والتنظيمية والاجتماعية التي تعترض سبيل توفير المعلومات والرعاية الصحية والجنسية والتناسلية للمراهقين، كما يجب أن تضمن ألَّا تُحد مواقف مقدمي الرعاية الصحية من حصول المراهقين على الخدمات والمعلومات التي يحتاجونها، وفي إنجازها ذلك لا بد للخدمات المقدَّمة إلى المراهقين أن تضمن حقوقهم في الخصوصية والسرية والموافقة الواعية والاحترام». ومعنى هذا أنه يحق لمقدمي

QaradawiBooks.com

الرعاية الصحية التدخل في الأسـرة، وعزل الأبناء عـن الآباء، واتخاذ قرارات خطيرة بمعزل عن الأسرة وتوجيهها.

جـ ـ شـجَّعت الوثيقة علـى الممارسـات التي تقع خـارج نطاق العلاقات الشرعية بين الرجل والمرأة، حيث فصلت الوثيقة بين الزواج والجنس والإنجـاب، واعتبرتها موضوعات متباينـة غير مرتبطة بعضها ببعض، وأقرَّت كافة أنماط الأسرة بمفهومها الغربي الحديث، دون التزام بالنواحي الشَّـرعية والقانونية والأخلاقية، مثـل زواج الجنس الواحد، والمعاشـرة بدون عقـد زواج، وأعطـت الجميع حقوقًا متسـاوية، بل وطالبت باتخاذ الإجـراءات الكفيلة بجعل ذلك قانونيًّـا، كما جاء في الفقرة (٥ ـ ٢ صـ ٢٩) ـ الأهداف: (أ) وضع سياسات وقوانين تقدم دعمًا للأسرة وتُسهم في استقرارها، وتأخذ في الاعتبار تعددية أشكالها.

وفي صفحـة (٣٠ فقرة ٥ ـ ٥) دعـت إلى القضاء علـى التمييز في السياسات والممارسات المتعلِّقة بالزواج وأشكال الاقتران الأخرى.

وفي صفحة (٦٤ فقرة ٨ ـ ٣١) دعت الوثيقة إلى التدريب على الترويج للسلوك الجنسي المأمون والمسؤول، بما في ذلك العفة الطوعية، واستخدام الواقي الذكري (الرفال)، وبهذا نادت الوثيقة بحرية ممارسة الجنس للجميع بدون أي التزام قانوني أو شرعي أو أخلاقي، ما دامت تلك الممارسات آمنة صحيًّا! بل وجعلت كذلك أهدافًا وإجراءاتٍ لتعزيزه، حيث طالبت بتجنيد الأجهزة التشريعية والتنفيذية والإعلامية والثقافية والتربوية لتبنِّيه ونشره.

ودعت الوثيقة إلى إلغاء القوانين التي تُحدّ من ممارسة الأفراد لنشاطهم الجنسـي بحرية واختيار، بل وطالبت بمسـاعدة الحاملات من السـفاح، واعتبار ممارسة الجنس والإنجاب حرية شخصية، وليست مسؤولية جَماعية.

QaradawiBooks.com

د ـ تقديم الوسائل المأمونة لمنع الحمل، ونشر استخدامها، وتوفيرها، وتقديم المعلومات الخاصة باستخدامها، كما ورد في صفحة (٤٣ فقرة ٧ ـ ٨): يجب على هذه البلدان أن تقوم بنفسها بإعطاء أولوية أكبر لخدمات «الصحة التناسلية والجنسية» بما في ذلك توفير مجموعة شاملة من وسائل منع الحمل، كما ورد تأكيد ذلك في (صـ ٥٠ فقرة ٧ ـ ٣١).

ومن هنا تكون الصورة الحقيقية لهذه التوصيات إباحة العلاقات الجنسية خارج نطاق الزواج، مع تأمين هذه العلاقات بإعطائها حق السرية وعدم انتهاكها، وكذلك بالوسائل المانعة للحمل حتى تكون مأمونة العواقب، وفي حالة حدوث الحمل غير المرغوب فيه، فيعالَج بـ «الإجهاض» المأمون، وكذلك الحيلولة دون حدوث الزواج المبكر، وهذا يعني تنفير الشباب عن الزواج بما يكتنفه من مسؤوليات، وخاصة في الدول النامية، مما يؤدِّي إلى انحلال المجتمع، واختلال العلاقات الاجتماعية والأسرية، وشيوع الفوضى الجنسية.

٤ ـ كما يُلاحَظ على الوثيقة أنها لم تذكر أو تُراعِ فيما تضمَّنته من مشْروع لتوصيات المؤتمر أيَّ اعتبار للجوانب الدينية والأخلاقية والتراثية، أو للأعراف والتقاليد السائدة في معظم دول العالَم باختلاف دياناته، رغم حساسية وخطورة الموضوع، حيث يتعلَّق بالأسرة كخلية أساسية للمجتمع.

فالوثيقة بهذه الصورة تقضي على شكل الأسرة، وتجعل من المجتمع عبارة عن أفراد ليس بينهم أي رابط من الروابط الأخلاقية والاجتماعية والدينية، التي ترقى بالمجتمع، وتؤمِّن وجوده واستمراره، وتحفظ كرامته، وتحافظ على قيمه وأخلاقه[1].

(١) انظر: بيان رابطة العالَم الإسلامي الذي صدر تعليقًا على الوثيقة، ووزعته الأمانة العامة.

QaradawiBooks.com

٢ ـ التفسخ العائلي

ولم يقف الأمر عند انحطاط الأخلاق فحسْب، بل امتد إلى ما كان لا بد أن يمتد إليه: إلى العواطف الإنسانية النبيلة، فغاضت منابعها، أو كادت، وتلوَّثت مياهها الصافية بجراثيم المادية الفتَّاكة، والفردية القاتلة، فتفكَّكت الأسرة وتفسَّخت روابطها، وهي الخلية الأُولى في البناء العضوي للمجتمع.

فلم يعد بين المرء وزوجه تلك العاطفة الكريمة، التي عرفتها الأسرة المسلمة، والتي تتمثَّل فيما ذكره القرآن من سكينة ومودة ورحمة[1]، ولم يعد بين الأخ وأخيه ولا بين القريب وقريبه تلك المشاعر الحلوة التي تربط أفراد الأسرة الواحدة، فضلًا عن صلات الناس خارج الأسرة.

إن تبادل المنافع والمسرَّات واللَّذَّات هو الرباط الفذ الذي يصل بعضهم ببعض، هذا هو الذي يربط القريب بالقريب، والصديق بالصديق، وإننا لنجد هذا المعنى فيما قاله أحد الساسة الغربيين: «نحن ليس لنا أصدقاء دائمون، ولا أعداء دائمون، ولكن لنا مصالح دائمة».

وما قاله في جو السياسة ينطبق على الحياة كلها عندهم.

وهل هناك أسمى وأبقى وأخلد من عاطفة الأبوة والأمومة؟ تلك العاطفة التي لم يُحرم منها الحيوان الأعجم، بله الإنسان المكرَّم. ولكن النزعة المادية النفعية العارمة، طغت حتى على تلك العاطفة الرقيقة الجميلة الأصيلة، فجعلت الآباء والأمهات يبيعون أبناءهم وبناتهم، غير مكترثين.

---

(١) يشير إليها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

QaradawiBooks.com

وحسْبي أن أســجِّل هنا بعض ما أحفظه في ملفات عندي مما أقرؤه في الصحف.

من ذلك ما نشــرته صحيفة «أخبــار اليوم» في كلمة لأحد رؤســاء تحريرها[1] قــال فيها: «قرأتُ هذا الأســبوع تقريرًا أليمًا، نشــرته بعض الصحف البريطانية، يقول باختصار: «إن بريطانيا تنتشــر فيها ظاهرة بيع الآباء والأمهات لأطفالهم، في سبيل شراء أشياء مختلفة: بيت صغير، أو تليفزيــون، أو ثلاجة كهربائيــة، والذين باعوا أطفالهم بيعًا خلال ســنة ١٩٥٩م في بريطانيا وصل عددهم إلى ثلاثة آلاف».

ويقول التقرير مفصِّــلًا: «إن الآباء والأمهات الذيــن باعوا أولادهم كلهم أزواج شرعيون، وليسوا من المطلَّقين والمطلَّقات أو الأرامل.

وأغلب الحالات تبدأ في فترة الحمل، أي قبل ولادة المولود.. وذلك عن طريق اتصالات خاصة، يقوم بها الآباء والأمهات بوساطة أصدقائهم أو أقاربهم، حتى يعثروا على الأسرة التي ترغب في تبنِّي طفلة أو طفل.

وقــد اعترف القائمــون على الجمعيــات التي ترعــى الأطفال غير الشرعيين بأن كثيرًا من الآباء والأمهات اتصلوا بهم، وعرضوا عليهم أن يتركوا لهم أطفالهم المنتظرين، كأطفال غير شرعيين، بحيث يسهل تبنِّي الآخرين لهم. ولكن الجمعيات رفضت بالطبع! أي أن الآباء والأمهات في هذه الحالة تحمَّلت نفوسهم أن يُدرج أولادهم الشرعيون في كشف الأولاد غير الشــرعيين! كما ظهــر أن هناك حــالاتٍ باع فيهــا الآباء والأمهات أطفالهم حتى بعد ولادتهم.. أطفال تتراوح أعمارهم بين شهر

(١) أحمد بهاء الدين بتاريخ ٢٦ ديسمبر ١٩٥٩م.

QaradawiBooks.com

وعشرة أشهر.. فالأب والأم هنا يبيعان طفلًا ارتبطا به نفسيًّا ومعنويًّا مدة عشرة أشهر!

ثلاثة آلاف طفل وطفلة تم بيعهم بهذا الأسلوب خلال سنة ١٩٥٩م في بلاد راقية غنية متقدِّمة هي بريطانيا!

وأسفر البحث الاجتماعي عن أن السبب هو أن الآباء لا يستطيعون الانتقال إلى شقَّة أوسع بنفس المستوى، أو أنهم في حاجة إلى شراء تليفزيون أو ثلاجة، أو في حاجة إلى امتلاك بيت صغير!».

أرأيتَ كيف هبط الإنسان؟ وكيف خبت جذوة العواطف الإنسانية الرفيعة؟ إن هذا التقرير الخطير يعلن أن الآباء والأمهات لم يبيعوا فلذات أكبادهم طلبًا لغذاء يسد جَوْعتهم، ولا لكساء يستر عورتهم، ولا لضرورة من ضرورات الحياة، بل باعوهم من أجل أشياء كمالية، يعيش كثير من خلق الله بغيرها، من أجل ثلاجة، أو جهاز تلفزيون، فما أغلى المبيع! وما أرخص العوض!

وفي المجتمع الغربي ظهرت مشكلة الأولاد المحرومين من عواطف الأمومة والأبوة، بسبب خروج الأبوين معًا للعمل، وهو ما أطلق عليه بعض الكاتبين عنوان: «أطفال بلا أسر»!

وهناك ظاهرة ما يسمى بـ «البيوت المنهارة»، وسببها الاختلاط الحر بين الجنسين، فتكثر حوادث الطلاق، ويحرم أولاد هذه البيوت من التربية الوالدية والإشراف الفطري للأبوين، فتهتز شخصياتهم منذ البداية، ويصابون بأمراض نفسية ـ رغم تمتعهم بالصحة البدنية ـ فيشعرون بالملل، ويميلون إلى العنف، ويهربون من المدرسة، إلخ، وقد

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

فشلت تدابير علماء النفس لعلاج هذه الظاهرة المرضية التي تتزايد يومًا بعد يوم.

وليس فقدان العواطف مقصورًا على الصغار، بل الكبار يعانون الحرمان من عواطف الحب الصادق، والصداقة الخالصة، والعطف الذي لا تكلُّف فيه، ولا مقابل له من أغراض الحياة.

ولعل هذا ما جعل الناس يقتنون الكلاب، ليُفرغوا فيها بعض عواطفهم من ناحية، ويتمتَّعوا بصداقتها ووفائها من ناحية أخرى! فهي لا تفارقهم عادة، كما يفارقهم أبناؤهم وأحفادهم، كما أنها لا تغدر بهم، كما يغدر بهم بعض أصحابهم وأصدقائهم، الذين أحسنوا الظن بهم في يوم من الأيام!

وفي تقرير فرنسي من عدة سنوات ذُكِر: أن في فرنسا سبعة ملايين من الكلاب في شعب عدده (٥٢) مليونًا، وتعيش هذه الكلاب مع أصحابها كأنها من أقاربهم! ولم يعد غريبًا في مطاعم باريس أن نشاهد الكلب وصاحبه يتناولان الطعام على مائدة واحدة!

سئل مسؤول بجمعية رعاية الحيوان بباريس: لماذا يُعامِل الفرنسيون كلابهم مثلما يعاملون أنفسهم؟

أجاب: لأنهم في حاجة إلى أن يُحِبوا، وأن يُحَبُّوا، ولكنهم لا يجدون بين الناس مَن يحبونه ولا مَن يحبهم!

حدثني بعض الإخوة الذين درسوا في الغرب، وعايشوا أهله، كيف يقضِي الشيوخ من الرجال والعجائز من النساء حياة الشيخوخة، إنها حياة مُوحشة لا مذاق لها ولا معنى، قد يتوافر فيها الجانب المادي للمعيشة

QaradawiBooks.com

من جانب الدولة، أو من مَورد الشخص، أو من مساعدة أولاده، ولكنها مُقفرة من المعاني الإنسـانية، فقد عوَّدوا الأبناء والبنات منذ البلوغ أن يمضي كل منهم لحال سـبيله، ولا علاقة للأسـرة به، كما لا علاقة له بالأسـرة، فالفتى يبحث عن صديقة، والفتاة تبحـث عن صديق، وهي صداقة مُتعة وجسـد، لا صداقة نفـسٍ ورُوح، ولهـذا لا دوام لها، ولا استقرار معها. إنها في الواقع علاقة ذكر بأنثى، لا صداقة إنسان لإنسان!

وتمر الأيام والأسـابيع والشـهور، ولا يكاد يرى الأب أو الأم ابنه أو ابنته، لهذا احتاجوا إلى يوم ـ يوم واحد ـ في العام، يُخصَّص للأم أو للأب، وهو ما سمَّوه «عيد الأم» أو «عيد الأب»، وقد أصبح مجرد صلة رسمية، كل ما فيها زيارة تنتهي بهدية مادية، وكثيرًا ما تُرسَل الهدية بالبريد!

هذه التربية أدَّت إلى تلك النهاية البائسة للأبوين في حالة الشيخوخة.

وقد ذكر لي بعض الإخوة أن عجوزًا في إحـدى المدن الأمريكية، كانت تعيش في بيت لها وحدها، ثم افتقدها الجيران بعضَ الأيام، ولكن النزعة الفردية المادية لم تدفع أحدًا منهم إلى السؤال عنها، حتى انبعثت رائحة كريهة من داخل الشقة، فقرعوا الباب، فلم يرد عليهم أحد، فأبلغوا الشرطة، الذين حضروا ودخلوا البيت بطريقتهم، فوجدوا المرأة قد ماتت منذ أيام، ولم يشهدها أحد، وربما كانت في حاجة إلى إسعاف أو إغاثة، فلم تجد حولها مَـن يُغيثها، ولما بحثوا عن أسـرتها وجدوا لها أولادًا وأحفادًا في مراكز مختلفة، ولكنْ كلٌّ منهم مشغولٌ بنفسه!

العائلة الأمريكية تتقدم نحو الهاوية:

طرحت مجلة اجتماعية أمريكية (Better homes and Gardens) سؤالًا أمام قرائها عما إذا كانت الحياة العائلية في أمريكا تواجه المشـكلات؟

فجاءت (٧٦٪) من الإجابات بـ «نعم». وأعـرب (٨٥٪) من القراء عن خيبة أملهم في حياة زوجية سـعيدة، وطبقًا لما نشَرته مجلة «نيوزويك» في مايو ١٩٧٨م عن نتائج اسـتطلاعها لآراء القُرَّاء حـول الحياة العائلية الأمريكية، فإن نصف الزيجات في الولايات المتحدة تنتهي إلى الطلاق، ليعقد الزواج مرة أخرى ثم يحدث الطلاق..

ويصف «رونالد كيلي»، وهو مستشـار قانوني لشـؤون الزواج في الولايات المتحدة، هذا الوضع المأساوي قائلًا: «من أكثر ما يثير الأسى في نفسي كمستشار لشـؤون الزواج هو أن هناك أفرادًا كثيرين متزوجين إلا أنهم يعيشون في بيوتهم كغرباء، فيبدو أنهم لا يشارك بعضهم بعضًا إلا في قليل، فالـكل ينطلق في طريقه أو طريقهـا، وهم لا يتوقَّفون إلا للحديث في مناسـبات قليلة، وكثيرًا ما تكون هذه مناقشات حادة حول المال، أو تربية الأولاد، أو الجنس، والمرء يستغرب كيف اجتمع هؤلاء في أول الأمر»[1].

وأصدرت مجلة «تايم» الأمريكية عددًا خاصًّا في سنة ١٩٨٦م بعنوان «رسـالة إلى عام ٢٠٨٦م»، تتخيل مختلف جوانـب الحياة في الولايات المتحدة بعد قرن، وفي القسم الخاص بالأسرة تقول المجلة تصف واقع العائلة الأمريكية: العائلة الأمريكية التي كانت قبل خمسـين سـنة فقط صخرة بَنَتْ عليها البلاد معبدها؛ تحطَّمت الآن إلى ذرَّات، وكل ذرَّة منها تدور في فلكها، والمرأة الأمريكية التي نبذت حياة ربَّة البيت قبل (١٥) سنة، لتبني مكانتها في سوق العمل؛ هي تحاول الآن إقامة توازن دقيق

(١) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية لوحيد الدين خان صـ ١٣٣ ـ ١٣٤، ترجمة سيد رئيس أحمد الندوي، نشر دار الصحوة، القاهرة، ودار الوفاء، المنصورة، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

بين هذه الأشـكال الثلاثة المتنافرة، ويجد الرجل الأمريكي نفسـه في أرض جديدة ومخيفة، وهو يعمل جاهـدًا للمواءمة معها. وحين ينفصل الرجل الأمريكي والمـرأة الأمريكية، وهو ما يحدث لنصف المتزوجين هذه الأيام، فيجد الطفل الأمريكي نفسـه فجأة مخـذولًا، فينمو بدون أساس يرتكز عليه[١].

رجال يعيشون عالة على زوجاتهم المطلَّقات:

ومن أحدث الوقائع، وأغرب الأنباء: ما هو واقع في أمريكا الآن من ابتزاز الرجال للنسـاء بدعوى المسـاواة بين الجنسـين التي طالب بها النساء في أول الأمر، وذلك عند وقوع طلاق الزوج الفقير أو المتوسط من زوجـة غنيَّة، وقد كتبت عن هـذه القضية الصحفيـة المصرية «مها عبد الفتاح»، وبعثت برسالتها من أمريكا إلى صحيفة «أخبار اليوم» في (١٩٤٤/٨/٦م) تقـول: «في الأعوام الأخيرة زادت نسـبة النسـاء ذوات الدخول الكبيرة زيادة ملحوظة؛ ممثلات، (مانيكانات)، مصمِّمات أزياء، مذيعات، صحفيات، محاميات، عضوات مجالس إدارة صعدن السُّـلَّم الوظيفـي، بطلات رياضيـات، سـيدات أعمال وشـركات وإعلانات. والواحدة منهن سـتواجه محنة فيما لو انتهت علاقتها الزوجية لسبب أو لآخر وكان الزوج أقل منها دخلًا، سيطالبها ـ غالبًا ـ أن تعوله!

وأقسـم بالله أن هذا هو التعبير المسـتخدم اجتماعيًّـا وقانونيًّا (To Support Him) وعلى ذات المسـتوى الذي تعوَّد عليـه معها! والقضاة يطبِّقون على النساء حاليًّا ذات القوانين التي تُطبَّق على الرجال في حالة إعالتهم للمرأة.. فإذا كانت الزوجة هي الأكبر دخلًا في شـركة الزواج،

(١) مجلة التايم عدد ١٩ ديسمبر ١٩٨٦م، صـ ٢٠، ٢١.

QaradawiBooks.com

فلماذا لا تعُول الرجل، أو تدفع له نفقة تساعده في حياته الجديدة مِنْ بعدِها؟ وما دام القانون في معظم الولايات الأمريكية يُبيح للزوجة أن تحصل على نصف ثروة زوجِها، ويظل يدفع لها نفقة، طالما لم تتزوَّج، فلماذا تُستثنى من ذلك المرأة ذات الإمكانيات. إن النساء هن اللاتي دَفعن إلى ذلك بفتح باب المساواة على مصراعيه، وما تفعله المحاكم الأمريكية اليوم هو تطبيق لما يُنادين به، تُردن مساواة؟ خُذن إذن، اشربن من كأس الرجل، وادفعن من دم قلوبكن وعرقكن!

ولهذا يشجعون النساء ذوات الدخول الكبيرة أن يحتطن للمستقبل، ويفعلن ما يلجأ إليه الآن أثرياء الرجال، خصوصًا المزواجين منهم، وهو أن يعقدا تسوية للطلاق، ويوقعا عليها من قبْل الزواج!

أي للاحتياط. والاحتياط واجبٌ ولا عيبَ في الحذر. وخصوصًا إذا كانت نسبة الطلاق قد بلغت (٥٠٪) من حالات الزواج!

وامتدت هذه الظاهرة حتى بلغت الطبقة المتوسطة أيضًا ـ أي ما دون الدخول ذات الستة أرقام ـ عندما يكون دخل المرأة أكبر من دخل الزوج بمسافة، يحق له فيما لو وقَع الطلاق أن يطلب النفقة! كل ما هنالك أن الإعلام الأمريكي لا يهتم بغير قضايا المشاهير، وأما العاديُّون، فالظاهرة بينهم تفشَّت، والنسبة أصبحت كبيرة، ولا تزال في ازدياد.

ولأعدِّد من الذاكرة فقط بعضَ أشهر القضايا التي تابعناها في السنوات القليلة الماضية لمشاهير النساء اللاتي حكمت عليهن المحاكم بدفع النفقة لأزواجهن السابقين، سنجد باقة من أشهر الشخصيات والأسماء: من مذيعة التليفزيون المشهورة التي تقدم برنامج «صباح الخير أمريكا» في شبكة «آي بي سي» واسمها «جوان لاندن» إلى الممثلة

QaradawiBooks.com

الشهيرة «جين سيمور» و«جين فوندا» و«كيم باسنجر» و«روزان بار» و«جوان كولينز» ومصمِّمة الأزياء «ماري ماكفادن» وغيرهن وغيرهن. وهذا بقدر ما تستطيع الذاكرة حصره.

وحتى العلاقات بين اثنين من جنس واحد، كما في قضية لاعبة التنس العالَمية «مارتينا نافر اتيلوفا»، إذ رفعت ضدها صديقتها السابقة قضية تطالبها فيها بالنفقة عن سبع سنوات عِشْرة! انتهت القضية باتفاق ودي خارج المحكمة، فاضطرت بطلة التنس المليونيرة أن تتنازل لها عن عزبة قيمتها عشرة ملايين دولار وعقار، وموافقة على حق الصديقة في نشر كتاب عن قصتهما معًا! وبدأت الصديقة الصفيقة بأن باعت ملخصًا للحكاية إلى «جريدة ديلي ميرور» البريطانية، وتقاضت عنها (٦٥) ألف دولار.. والكتاب حاليًا في الطريق!

مجتمع غريب!

وشيء أصبح عاديًا أن يقوم الزوج والذي يطلق عليه «هابي» على الطريقة الأمريكية في اختصار الأسماء والتعبيرات والأشياء.. ويقوم «الهابي» بالاتصال مع زوجته ـ أو بالأصح طليقته ـ يستعجلها لإرسال «الشيك» الذي يتضمن النفقة الشهرية ويطمئن أنه في الطريق، واسألوا جون، وجان، وجين، وكيم، وماري، إلى آخر القائمة.

والذي أثار هذا الموضوع لأكتب فيه هو قضية جديدة رفعها هذا الأسبوع ممثل معروف إلى حد ما، اسمه «توم أرنولد» ضد زوجته الممثلة المشهورة «روزان»، يطالبها فيها بنفقة شهرية قدرها مائة ألف دولار، ليستطيع العيش في نفس المستوى الذي تعوَّد عليه معها! و«روزان» هذه هي أشهر كوميديانة في التليفزيون الأمريكي، وهي بذيئة

QaradawiBooks.com

اللســـان والحركة إلى حد قد يصيب مـــن يشـــاهدها لأول مرة ـ لهول ما يرى ـ بالســـكتة! ولكن جمهورها بالملايين وتكسب الملايين، ولا تزال تدفع نفقة لزوجها الأســـبق، والذي ســـينضم إليـــه زوجها اللاحق مطالبًا إياها هو الآخر بالنفقة!

وكثيرًا ما يثار مثل هذا التساؤل على نحوٍ أو آخر في مثل الحالات.. لماذا لا يحاول هذا «اللوح» (This Bum) أن يوجد لنفسه عملًا أو وظيفة يتكسَّـــب منها بدلًا من العيش على كد زوجته؟! ولكن العُرف الساري صار يتقبل أو اعتاد.. وطالما قد دخلا بإرادتهما شـــركة الزواج وارتبطا وتعهَّدا على السراء والضراء، وأُعلنت المساواة التامة بين الجنسين، إذن فلتدفع القادرات من النساء!

وكل من يتابع الحياة الاجتماعية في أمريكا يدرك أن هذا غالبًا حال كل امرأة ذات دخل كبير وترتبط برجل ذي دخل صغير.. ســـتنتهي إلى يومٍ يطالبها فيه رجلها بالنفقة والمؤخَّر والـــذي منه! فقد أصبحت هذه لعبة أزواج هذه الأيام.. ادعاء الفقر بحجة البطالة، أو حتى بدون بطالة، ويبادر بطلب الطلاق أو يتفقان على الطلاق ويطلب منها النفقة!

ولأن المرأة أكثر رومانســـية عادة من الرجل، يسوءها ويثير تشاؤمها أن تفكر في الطلاق وهي مُقدمة على الـــزواج ـ لذا فهي التي تقع عامة في فخ زوج طمَّـــاع ومتنطِّع يحلو لـــه العيش الرغـــد المريح في كنف النســـاء! وكانت الوارثات المليونيرات فيما مضـــى هن وحدهن اللاتي يقعن في مطبَّات صِنْف محترفٍ من الرجـــال، يتزوجوهن من أجل يوم الطلاق! ومن أشـــهر الروايات الأمريكية في هذا المجال ما تحوَّل إلى فيلم ســـينما عن حياة المليونيـــرة «باربرا هاتون» وارثـــة محلات «وول

QaradawiBooks.com

ورث» التي تزوَّجت سبع مرات من سبعة ثعالب، أخذوا منها «سبع لفَّات»، فماتت المسكينة وهي على الحديدة! ومنهم من تزوجته لمدة تقل عن ثلاثة أشهر، وكان زئر نساء كبيرًا اسمه «روبيروزا» وانتهى زواج الشهرين وكسور بثروة محترمة أخذها منها في حدود المليون دولار بأسعار ذلك الزمان، وفوقها طائرة بمحرِّكَيْن، وبضع الجياد المدربة على البولو، أي حصل على مؤخر الصداق على الطريقة الأمريكية!

ولكن الثمانينات والتسعينات عرفت ظاهرة النساء ذوات الدخل الكبير من وظائفهن أو مكاسبهن وأجورهن العالية.. ومع دعاوى المساواة.. المساواة.. أخذ المجتمع الأمريكي يعتاد على هذه النوعية الجديدة من العلاقات الاجتماعية.

وبدأت هذه الظاهرة منذ نحو عشر سنوات تنتشِر، وأدَّت إلى تغيير المعنى المعهود للنفقة، والتي يدفعها الرجل إلى الزوجة التي يعولها ثم يفترقان بالطلاق.. فتحوَّل المفهوم إلى أن يدفع الطرف الأكثر إمكانيات إلى الطرف الآخر ما يعوله، أو يقتسم معه الممتلكات والعقارات، وحسَب قانون الولاية التي يعيشان فيها.

مثلًا المذيعة المشهورة «جوان لاندن» والتي يبلغ دخلها السنوي (٢) مليون دولار... فوجئت بزوجها اللُّوح الطويل العريض يطالبها بنفقة إعالة! ورفضت في البداية، ثم اضطرت للموافقة وديًّا أن تعطيه شيكًا من ستة أرقام ليَمضي عنها ويتركها في حالها، ولكنه رفض، ولجأ إلى المحكمة، فحكم له قاضٍ في نيويورك بثمانية عشر ألف دولار في الشهر الواحد نفقة مؤقَّتة لحين حصر ممتلكاتها التي اكتسبتها خلال الزواج!

QaradawiBooks.com

وما إن تُنشـــر قضية من هذه النوعية إلا وتشجع الآخرين فيجاهدوا بطلب النفقة عندما يقع الطلاق.. وهناك مسألة الرجل الذي لم يسبق له العمل قبل الزواج ولا بعده، مثل قضية مصممة الأزياء «ماري ماك فادن» التي تزوجت من شـــاب عمره (٢٤) عامًا، ولم يســـتمر زواجها أكثر من (٢٢) شـــهرًا، بادر بعدها بطلب الطلاق والنفقة والمستحقَّات، وصارت القضية تسلية الرأي العام.. فقد طالبها بنفقة سبعة آلاف دولار في الشهر، بالإضافة إلى مصاريف الجامعة وإيجار السكن ونفقات المحامين، غير حصة في شـــركة «ماك فادن» للأزياء، باعتباره شـــريكًا سابقًا في حياتها الزوجية! وبعد عام من الأخذ والرد والقذف والاتهامات المتبادلة، حكم القاضـــي بنفقة قدرها (٦٠٠) دولار في الشـــهر لمدة أربع ســـنوات، مع إعطائه مبلغًا على سبيل التســـوية أو المؤخر في حدود مائة ألف دولار عن زواج دام (٢٢) شهرًا فقط لا غير!

والمحامون المتخصصون في هذا اللون من القضايا كثيرًا ما يتحدَّثون إلى الصحـــف، ويظهرون في التليفزيـــون بدون ذكر أســـماء موكِّليهم، ويرضون فضول الجمهور، ويروون أن عدد الرجال من طالبي النفقة في ازدياد، وهم يفضِّلون الحصول على تســـوية مرة واحـــدة (أي يتقاضون المؤخر على بعضه)؛ لأن المرأة التي تدفـــع تتعمد إذلال الرجل، وهي عادة ما تكون في غاية «الغلاســـة» معه، وتتعمَّد تأخير الشـــيك الشهري ليُضطـــر أن يطلبها مرة واثنين، بينما الشـــيك «يتمخطر» في الطريق عن عمد، وهو على نار!

والممثلة المشـــهورة «جون كولنز» كانت من أولى النســـاء اللاتي احتطن للمســـتقبل، وأصرت عنـــد زواجها في الثمانينات من شـــاب

QaradawiBooks.com

سويدي يصغرها بأربعة عشـــر عامًا أن يوقع أولًا من قبل الزواج على اتفاق الطلاق! فقد كانت «جون كولنز» لا تزال تدفع نفقة زوج أسبق، فقرَّرت ألا تُلدَغ من جحر واحد مرتين.. وقد نفعها اتفاق الطلاق من قبـــل الزواج؛ لأنـــه عندما رفـــع عليها الـــزوج الســـويدي قضية نفقة مستعجلة، قدَّمت هي للمحكمة ذلك الاتفاق، فرفضت طلبه، وقد كان يُطالِب «كولنز» بمبلغ (٨٠) ألف دولار نفقة شـــهرية مؤقتة، بالإضافة إلى نصف دخلها من عملها السينمائي والتليفزيوني خلال الثلاثة عشر شهرًا زواجًا!

والممثلة «كيم بايســـنجر» اقتسمت عقارتها مع زوجها «الماكيير» الذي تزوجته لثماني ســـنوات وطالبها بنفقة لا تقـــل عن (١٢) ألف دولار شهريًّا!

«وجين فوندا» دفعت لزوجها الســـابق عشرة ملايين دولار «مؤخر»؛ لأنها كانت تكسب خلال الزواج خمسين مليون دولار في العام من بيع شرائط فيديو الرياضية الراقصة التي اشتهرت بها «الإيروبكس». وبعدها تزوجت من الملياردير «تد تورنر» صاحب شبكة «CNN» وعدة شبكات تليفزيونية أخرى، ولا أحد يعرف إن كانا قد عقدا اتفاقيات طلاق من قبل الزواج أم لا. وفي حالة وقوع الطلاق فهل ســـتأخذ «جيـــن» نفقة رغم ملايينها أم ستطالب بنصف شبكاته وحصة من ممتلكاته؟!

وأما آخر زيجة من نوعية «زواج ـ طلاق وخلافه» فهي ما أُعلن عنه منذ أيام قليلة عن زواج «مايكل جاكســـون» بابنة «ألفيس بريسلي» وهي الأخرى مليونيرة، ففي مثل هذه الحالة من الذي سيدفع منهما للآخر؟! أصبحت هذه الخواطر تتبادر للأذهان مع كل نبأ زواج!».

QaradawiBooks.com

أُمهات للإيجار:

ومن البدع الغريبة التي ابتكرتها الحضارة الغربية المعاصرة: ما عُرِف باسم «الأم المستأجَرة» أو «الأم بالوكالة»!

لقد عبث الغربيُّون بمعنى «الأمومة» النبيل والجميل، فأفسدوه.

فقد أرادوا أن يجعلوا الأمومة مجرد إنتاج «البُيَيْضة» فإذا لُقِّحت البُيَيْضة من الزوج ـ وأحيانًا من أي رجل ـ استحقَّت بذلك أن تكون أُمًّا، وإن لم تحمل ولم تضع! كل ما عليها أن تستأجر رحم امرأة أخرى بالدولار ـ أو الإسترليني أو غير ذلك من العملات الصعبة أو السهلة ـ لتحمل عنها وتلد لها، دون أن تتعرَّض هي لمتاعب الحمل، وأسقام الرحم، وأوجاع الطلْق، ومشقة الإرضاع، فماذا بقي من الأمومة غير إفراز البُيَيْضة؟

إن العرب سموا الأم «الوالدة»، بل سمَّوا الأب «الوالد» من باب التغليب، وسمَّوا الأبناء والبنات «أولادًا» دلالة على أهمية الولادة في إثبات النسب، فالأمومة ليست مجرد إفراز بُيَيْضة، وإن كان لها أهميتها في أنها حاملة خصائص الوراثة (الجينات)، ولكنها وحدها لا تصنع أمومة، الأمومة معاناة لآلام الحمل والوحم والطلْق، كما قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤].

ولهذا ردَّ القرآنُ على الذين يظاهرون من نسائهم ـ أي يقول أحدهم لامرأته: أنت عليَّ كظهر أمي ـ بقوله تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢].

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ولقد أرادت إحدى الأمهات أن تبين أحقيتها بحضانة ابنها، وأنها أولى بالأب منه، فقالت: إن بطني كان له وعاءً، وثديي كان له سِقاءً، وحجري كان له حِواءً[1]!

فماذا تقول الأم التي ليس لها من الأمومة غير إنتاج البُيَيْضة، ولم يكن بطنها للطفل وعاء، ولا ثديها له سقاء، إذ لا لبن فيه؟! إنها لم تصنع شيئًا من أجل الأمومة، لم تتعب ولم تتوجَّع، لم تحمل كُرهًا، ولم تضع كُرهًا، إنها عاشت مستريحة طوال الأشهر التسعة، ثم جاءت لتتسلمه «جاهزًا» من الأم الفقيرة المستأجَرة، التي عايشت الطفل، الذي تغذَّى من دمها، وأثَّر في كِيانها وأعصابها، فمن هي الأم حقًّا؟ ومن تكون أولى به؟

في الحق أن هذا عمل يُحَرِّمه الإسلام ويُجرِّمه، ولكن الحضارة الغربية لا تُميِّز بين حلالٍ وحرام، بل هي لا تعرف فكرة الحلال والحرام أصلًا؛ لأن هذه فكرة دينية، وهي لا تقوم على الدين أساسًا.

فلا غرو أن تحدث مشكلات من وراء هذا البِدْع الذي أحدثته حضارة الغرب، مخالِفةً بذلك تعاليم أديان السماء وتقاليد أهل الأرض.

تقول الإحصاءات: إنه في الفترة ما بين (١٩٧٦ ـ ١٩٨٦م) ولد (٥٠٠) طفل عن طريق الإخصاب الاصطناعي في الولايات المتحدة، وتوجد بها حاليًا حوالي (١٢) «مركز تفقيس» لهذا الغرض، مع احتمال انتشارها في

(١) رواه أحمد (٦٧٠٧)، وقال مخرجوه: حديث حسن. وأبو داود (٢٢٧٦)، والحاكم (٢٠٧/٢)، كلاهما في الطلاق، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

المستقبل، بسبب ما يُعتقد أن (١٥٪) من المتزوِّجين في الولايات المتحدة ـ على وجه التقريب ـ غير مخصِّبين، وهم يعانون من العقم من وجهة نظر الطب[١].

وكان «وليام سترن» وزوجته «إليزابيث» محرومين من الأولاد، فقرَّرا استئجار رحم امرأة، بُغْيَةَ حصولهما على طفل، وتعاقدا في هذا الشأن مع «ماري وايتهيد» مقابل عشرين ألف دولار، فتم حقن رحم السيدة المذكورة بالسائل المنوي الخاص بالسيد «سترن»، وحين وضعت «ماري» مولودتها ثارت أمومتها، فرفضت تسليم الطفلة إلى السيد «سترن» وزوجته، وعُرضت القضية على إحدى المحاكم التي اعتبرتها قضية «عقد اجتماعي»، وبناء على ذلك أصدرت حُكمًا بتسليم الطفلة إلى «سترن»، وحين وصل «سترن» برفقة خمسة من رجال الشرطة إلى منزل «ماري» (الأم المستأجرة) لتنفيذ قرار المحكمة، هربت الأخيرة مع الطفلة من باب بيتها الخلفي، وأُلقي القبض عليها فيما بعد في مدينة أخرى، ونُزعت الطفلة منها، وسُلِّمت إلى «سترن» وزوجته.

وقد تحوَّلت هذه القضية إلى قضية أخلاقية، وأثارت جدلًا واسع النطاق في الولايات المتحدة، وقال أسقف «نيو جيرسي»: «إن أسلوب الأم بالوكالة ـ أو «الأم المستأجرة» ـ يُحوِّل الطفل إلى سلعة استهلاكية، والأم إلى آلة لوضع الطفل».

وقد لوحظ بالإضافة إلى هذا أن المرأة التي تقوم بدور «الأم بالوكالة» وتنجب الطفل، تظل تعاني من مضاعفات نفسية خطيرة، وتقول «إليزابيث كين» التي أنجبت طفلًا بتأجير رحمها: «ذكريات

(١) مجلة تايم، عدد ١٩ يناير ١٩٨٧م.

QaradawiBooks.com

طفلي تقلقني، وقد أحتاج إلى سنوات طويلة للتغلب على مشاعري نحوه».

إن اتجاه التحرر الجنسي غير الطبيعي يخلق مشكلات غير طبيعية، والوقائع المذكورة تكشف عن بعض ملامح هذه المشكلات[١].

النفور من الإنجاب:

وأكثر من ذلك: النفور من فكرة الإنجاب نفسها، وقد أمست ظاهرة منتشرة في بلاد الغرب كلها، فما الذي يجعل الفرد يضحِّي براحته ولذته واستمتاعه الشخصي من أجل أولاده وضرورة إعالتهم وتربيتهم وحمل همومهم؟ وما الذي يجعله يحمل هذه التبعة الثقيلة، وهو يملك أن يعيش وحده أو مع زوجته حرًّا سعيدًا بلا أبناء ولا بنات يؤرِّقون ليله ويُكدِّرون نهاره؟!

هكذا يفكِّر الزوج، وهكذا تفكِّر الزوجة في ديار الغرب، تفكيرًا أنانيًّا محضًا.

حكى لي أحد الأقارب ممن كان يدرس في بريطانيا: أن الأستاذ الذي كان يعمل معه ـ وهو أستاذ مرموق في تخصصه ودخلُه كبير ـ كان يعيش هو وزوجه دون أولاد، ولما سأله قريبي هذا عن ذلك، قال له: أعطني سببًا واحدًا يجعلني أفكِّر في الإنجاب!

ولا أدري كيف تعطَّل جهاز «الفطرة» عند هؤلاء الناس؟ فغريزة حب الخلود عند الإنسان مما فطر الله عليه البشر، والإنسان إنما يَخْلُد في ذريته التي تحمل اسمه من بعده.

(١) انظر: المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية لوحيد الدين خان صـ ١٤٧ ـ ١٤٨.

QaradawiBooks.com

ثم إن العدل الفطري يقتضي أن يُعطي هؤلاء الحياة كما أعطتهم، وأن يُنجبوا لها كما أنجبهم آباؤهم وأمهاتهم، وإلا كانوا عقَقَة وظالمين.

هذا، إلى أن موجب كلام هؤلاء ومقتضى توجههم الفردي الآني أن يُطوى كتاب الحياة كلها بعد جيل واحد لو عُمِّم هذا المنطق على كل الناس، معناه فناء البشرية كلها بفناء هذا الجيل، وبقاء الأرض بعد ذلك للحيوانات والزواحف والحشرات، فهل هذا ما يريده هؤلاء النافرون من الإنجاب وتبعاته أم يُحِلُّون هذا لأنفسهم ويُحرِّمونه على الآخرين؟! أم إن هؤلاء يرون الحياة نقمة ولعنة؟ فهم يرون ألا تمتد هذه النقمة إلى من بعدهم على نحو ما قال الشاعر العربي المتشائم[1]:

هذا جناه أبي عليَّ وما جنيتُ على أحد!

هذا مع أن الحياة نعمة لا نقمة، ورحمة لا لعنة، ومنحة في طيّ محنة، تصقل الإنسان متاعبها، ويصهر في بوتقة ابتلاءاتها، ويعد للخلود من خلال تكاليفها.

هذا هو منطق المؤمنين من «عباد الرحمٰن» الذين يقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤].

إن شيوع هذا اللون من التفكير هو الذي جعل قادة الدول الغربية يتوجَّسون خِيفة من قلة النسل عندهم، على حين ينمو النسل فيمن

(١) هو أبو العلاء المعري، كما في وفيات الأعيان لابن خلكان (١١٥/١)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت.

QaradawiBooks.com

سـمَّوْهم العالَم الثالث، وبخاصَّة العالَم الإسـلامي، وهو ما يُخلُّ بالتـوازن العددي مـن ناحية، ويهدِّد حيـاة السَّـرَف والمتعة التي يحيونهـا من ناحية أخرى، وهو ما عُقِد له مؤتمر السـكان بالقاهـرة في سبتمبر ١٩٩٤م.

الإعراض عن فكرة الزواج أصلًا:

وأدهى من ذلك وأمَرُّ: ما تفشَّـى في الغرب من الإعراض أصلًا عن تكوين الأسـرة، وعن فكرة الزواج نفسها، وما يترتب عليه من مسؤولية في عنق كل من الرجل والمـرأة، فما الذي يجعل أحدهما يُقيِّد نفسـه بشريك حياة واحد طول العمر، وفي وُسعه أن ينتقل كالطائر من فَنَن إلى فنن، دون أن يدخل في ذلك القفص، ولو كان قفصًا من ذهب؟!

إن الحرية الجنسـية المتاحة فـي الغرب، والدعوة إلـى حلِّ عُقَد الكبت! والتحرُّر من المفاهيم القديمة التي دعت إليها الأديان، وسقوط قيمة فضيلة العفَّة في سُـوق الشـهوات المسـتعرة.. جعـل الكثيرين والكثيـرات هناك يُؤثِـرون حياة الاسـتمتاع الحُرِّ على حياة الأسـرة المقيّدة، وبذلك يتحرَّرون من قيود الـزواج وتبعاته، ومن آثار الطلاق المجحِفة بحق الزواج إذا ساءت العِشـرة بين الزوجين، واحتاجا إلى الطلاق حلًّا للأزمة.

فالغرب بعد أن تحلَّل من المسـيحية التي حرَّمت الطلاق بتاتًا، أو أجازته للخيانة الزوجية؛ أباح الطلاق، وأسرف في إباحته، ولكنه جعل للمطلَّقة نصف كل ما يملك الزوج من عقـار ومنقول، وفي هذا خراب بيت الرجل.

QaradawiBooks.com

ولهذا يفضِّل كثير من الرجال أن يعيشوا مع المرأة التي يحبُّونها بدون عقد، فيبقى معها ما طاب لهما العيش، ويتركها وتتركه إذا تعكر صفو الحياة بينهما، دون أي التزام قانوني أو أخلاقي من جرَّاء ذلك.

وهذا شكل جديد عندهم من أشكال الأسرة العصرية: العِشْرة دون زواج.

وشكل آخر هو الأسرة من جنس واحد، وهو ما بات معروفًا اليوم في العالَم المتقدِّم من زواج الرجال بالرجال، وزواج النساء بالنساء!

وهو ما أجازه بعض قوانينهم، ورحَّبت به بعض كنائسهم، وباركه بعض رجال الدين عندهم، حتى إن بعض القُسُس ليظهر في التلفاز، ويُعلن عن استعداده لإجراء هذا العقد وترحيبه بالراغبين فيه!

أجاز هؤلاء عمل قوم لوط (اللواط) بين الرجال، كما أجازوا «السحاق» بين النساء، مناقضين فطرة الله، ومعارضين تعاليم السماء.

وهذا الموضوع كان أحد الموضوعات الرئيسية التي أثارت المسلمين وجميع المتدينين في مؤتمر السكان الأخير: إقرار أشكال الاقتران المختلفة، وتعدُّد أشكال الأسرة!

الأسرة الوحيدة الجنس:

ومن الأمور التي تعرَّض لها مؤتمر السكان الأخير في القاهرة، وعرضت لها وثيقته، وأثارت جدلًا كبيرًا، بل سخطًا هائلًا لدى دول العالَم الإسلامي وغيره مِن كل مَن يؤمن بالدين وبالقيم: قضية «الأسرة وحيدة الجنس» أي: التي تتكون من رجلين أو من امرأتين، على خلاف فطرة الله، وشرائع السماء، وأعراف الأرض، خلال القرون والأزمان التي عاشتها البشرية.

QaradawiBooks.com

فـــالله تعالى قد خلـــق البشـــر أزواجًا، كما قـــال في كتابـــه الخالد: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النبـأ: ٨]، بل الإنسان شأنه شأن الحيوان والنبات كلها أزواج: ذكـــر وأنثى، وكل جنـــس محتاج للآخر، ولا تســـتمرُّ الحياة إلا بذلـــك، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

بل الكون كله مؤســـس على قاعدة الزوجية: الموجب والســـالب، أو الإلكترون والبروتون: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

فهؤلاء الذين أرادوا الاســـتغناء عـــن الجنس الآخـــر: خالفوا فطرة الأحياء، وفطرة الكون كله، وأول مـــن ابتكر هذا المنكر في التاريخ هم قوم لوط، الذين قال لهم أخوهم ونبيهم لوط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦].

وصفهم هنا بالعدوان، وفي آيات أخرى بالجهل والإسراف والإفساد والإجرام، وكانت عاقبة إصرارهم على جريمتهم التي عمَّتهم: أن أنزل الله عليهم عذابًا من الســـماء، فجعل عالـــيَ قريتِهم ســـافلها، وأمطر عليهم حجارة من ســـجيل منضود، ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

وها هـــي الحضارة الغربية اليـــوم تحاول أن تُقَنِّـــن عمل قوم لوط، وتجعله أمرًا مشروعًا على مســـتوى العالَم! وتزيد على قوم لوط بشذوذ آخر هو «السحاق»، الذي يكتفي فيه النساء بالنساء.

ومقتضى هذه الأسرة ذات الجنس الواحد: أنه لا إنجاب فيها بالطبع، لا أبناء ولا بنات، فأي معنى للأسرة بلا أولاد؟ وكيف تُسمَّى أُسرة؟

QaradawiBooks.com

ثم مقتضى هذا التوجه ـ لو قُبِل بأخلاقيته وتعميمه ـ هو فناء البشرية بعد هذا الجيل!

ولقد رأينا في الغربيِّين الذين قبلوا هذا النوع من الشذوذ مَن تغلبه الفطرة، فيحنُّ إلى الإنجاب، ويبحث عنه، ولكنه مليء بالمشكلات، كما نرى في القصة التالية:

«كانت امرأتان هولنديتان: «باولا ديجز» (٣٩) سنة و«جانين هاكسمان» (٣٨) سنة تعيشان كزوج وزوجة، ثم اشتاقتا إلى الإنجاب، فاتصلتا بمعهد «ليدن» لتنظيم الحمل، لأجل تحقيق رغبتهما الملحَّة في الحصول على طفل. وقد فشلتا في محاولتهما الأولى، بينما حملت «باولا» في المحاولة التالية، فأنجبت طفلًا من صُلب مجهول، أسمياه «توماس». إلا أنهما شعرتا بعد ولادة «توماس» بحاجتهما إلى ذات «الرجل» الذي أدى نفورهما منه إلى اتباع أسلوب «السحاق»!

والمرأتان تُعربان عن قلقهما إزاء هذا الواقع، بالاعتراف بأن «توماس» في أمسِّ الحاجة إلى رجالٍ يعاشرهم، ليقوموا بالدَّور الرجالي النموذجي، ويُشكِّلوا قدوة بالنسبة إليه، وقد اصطنعتا أساليب شتى لتحقيق هذا الغرض، وذلك بالطلب من أقاربهما كالجد والعم والشقيق والجيران من الرجال، للقيام بزيارات متكررة إلى منزلهما، وتقول «هاكسمان» ـ إحدى هاتين المرأتين الشاذتين ـ: لقد وقع اختيارنا على أحد أصدقائنا من الرجال، ليقوم بدور الأب لتوماس، وسيزوره الطفل من حين لآخر للتزوُّد بالتوجيهات «الفنية» اللازمة»[1]!

(١) مجلة تايم صـ ٢٥، عدد ١٠ أغسطس ١٩٨٧م.

QaradawiBooks.com

إن اتباع طريقة اصطناعية لتوفير «أب» لتوماس لن يكون بديلًا عن الأب الحقيقي بأي حال من الأحوال، ومن المؤكد أن يظل نوع من الغربة يشكل حاجزًا بين «ابن» و«أب» من هذا النوع، وحين يكبر «توماس» ستتحول هذه الغربة غير الشعورية إلى غربة واعية شعورية، لقد عرف «توماس» من هي أمه، بينما سيظل يجهل أباه طول عمره! وهذا الفراغ في حياة «توماس» سيسبب لديه أنواعًا من العُقَد النفسية، ووضعًا عقليًّا يحول دون أن يصبح عضوًا فاعلًا في المجتمع[١].

ربما يتوهَّم البعض أن في نظام السحاق ومعاشرة المرأة المرأة متسعًا لإنجاب «البنت» دون «الولد الذكر»، ولكن حتى ولادة «البنت» أيضًا تحتم الاعتماد على نفس الرجل؛ لأن الحاجة إلى حنوِّ الأب وحمايته حاجة فطرية عند البنات، كما هي عند الأبناء، بل ربما كان تعلُّقُ البنت بأبيها أكبر من تعلُّقِ الابن به، ولهذا قال العرب قديمًا: «كل فتاة بأبيها معجبة»[٢]!

إن الانحراف عن نظام الفطرة لا بد للفرد وللمجتمع كله أن يدفع ثمنه، ويتحمل نتائجه، وهو ثمن باهظ، ونتائج وخيمة.

الأسرة الوحيدة التكوين:

وكما فشلت الأسرة الوحيدة الجنس ـ المكوَّنة من رجلين أو امرأتين ـ فشلت كذلك الأسرة الوحيدة التكوين، أي التي تتكون من أم بلا أب! كما نرى في هذا النموذج الذي ابتدعته حضارة الغرب:

(١) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية صـ ١٣١، ١٣٢.

(٢) الأمثال للقاسم بن سلام صـ١٤٣، تحقيق د. عبد المجيد قطامش، نشر دار المأمون للتراث، ط١، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

QaradawiBooks.com

«أنشأ مليونير أمريكي من كاليفورنيا ـ وهو الدكتور «روبرت جراهام» ـ مصرفًا من نوع غريب يعرف بـ «مصرف نوبل للسائل المنوي»! ويقوم هذا المصرف بجمع هذه المادة من الأشخاص الحائزين على جوائز نوبل وتخزينها، لأجل إخصاب النساء، وإنجاب مواليد يتمتعون بذكاء فوق العادة! والمصرف ـ كما يدَّعي مؤسسه الأمريكي ـ أنشئ لأجل مساعدة الرجال غير القادرين على الإنجاب، إلا أن النزعة الإباحية لدى المرأة الحديثة تقودها إلى انتهاك هذا الحد، فهناك نساء يرغبن في الإنجاب والحصول على أطفال ذوي كفاءات عقلية خارقة، بدون الارتباط بالزواج، ونساء كهذه يطلبن مساعدة المصرف المذكور.

ومن هؤلاء الدكتورة «آفتون بلاك» من كاليفورنيا، وهي تبلغ أربعة وأربعين عامًا من العمر، فاتَّصلت بالمصرف المذكور، حيث أشير عليها بالحصول على السائل المنوي «رقم ٢٨» طبقًا للمواصفات التي كانت تطلبها في مولودها، ويجدر بالذِّكْر أن مواد السائل المنوي التي تم تخزينها في المصرف لا تعرف بأسماء أصحابها، وإنما لكل منها رقم معين.

وأصبحت الدكتورة «بلاك» حاملًا بعد حقن رحمها بمادة السائل المنوي «رقم ٢٨»، فوضعت طفلًا في موعده، وسمى هذا الطفل «دورون»، وهو يعني باليونانية «الهدية». وأُدخل الطفل إلى المدرسة في الرابعة من عمره، وقد نشرت صحيفة «تايمز» الهندية صورته في ملحقها الأسبوعي الصادر بتاريخ (٧ سبتمبر ١٩٨٦م)، وكان مراسل صحيفة «ديلي تلغراف» اللندنية «إيان برودي» قد قابل أم الطفل المذكور في بيتها بـ «لوس أنجلوس»، وعلى حد تعبير المراسل: «السعادة التي كانت تغمر الدكتورة «بلاك» بدأت تتحول تدريجيًّا إلى الشقاء» وذلك لأن

QaradawiBooks.com

ولادة طفل بدون أب وضعتها في مأزق، ومن المشكلات العديدة التي تواجهها الدكتورة «بلاك»: أن المولود قد تعلَّم الكلام، وهو يسأل مرارًا وتكرارًا: «أين أبي»؟

وأخبرت الدكتورة «بلاك» المراسل الصحفي البريطاني: «لقد تضايق منِّي «دورون» ذات مرة وقال: إنه سيغادر البيت ليعيش مع أبيه»[١]!

لقد كان فوز السيدة المذكورة بمولود بدون أب تجربة ممتعة بالنسبة إليها في بادئ الأمر، إلا أنها أضحت محوطة بمشكلات لا تنتهي، ومن أهمها ـ بالنسبة للطفل ـ حرمانه من حنان أبيه، ومن رعاية أبيه!

إن صوت الفطرة التي خلقها الله أقوى وأعمق من صوت «المودات» الغريبة التي يصطنعها الإنسان.

وإن انحراف الإنسان عن النظام الذي وضعته الفطرة يسبِّب له مشكلات غريبة وعويصة لم تكن تخطر على باله من قبل[٢].

٣ ـ القلق النفسي:

ولا عجب بعد أن يشيع في مجتمعٍ ما جمودُ العواطف الإنسانية، وتفكُّك الروابط الأسرية، وانحلالُ الأخلاق الأصيلة: أن يشكو الناس «القلق»، ويسأموا الحياة، ويضجروا من العيش، ويسخطوا على الوجود كله، وخصوصًا إذا تأسَّس المجتمع على المادية، وفقد روح الإيمان بالله وبالدار الآخرة وبالقيم العليا.

---

(١) المرأة بين الإسلام والحضارة الغربية صـ ١١٩ ـ ١٢٠.

(٢) انظر: الإسلام ومشكلات الحضارة لسيد قطب صـ ١١٨ ـ ١٦٠، فصل: عقوبة الفطرة، نشر ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

QaradawiBooks.com

وهذا ما نقرؤه ونسمعه كل يوم عن الناس في أوروبا وأمريكا، وهذا ما ينقله إلينا كل من رأى تلك البلاد، سواء من عاش فيها طويلًا، ومن زارها لِمَامًا، بل هذا ما يقوله القوم عن أنفسهم في كتبهم وصحفهم، وما يشكو منه مصلحوهم وذوو الفكر والرأي فيهم.

هذا مع أن القوم يملكون من وسائل النعيم، وأدوات الترفيه ما لم يكن يحلم به بشرٌ من قبل. ماذا يُقلق القوم إذن؟ وماذا يُسخطهم على أنفسهم وعلى الحياة؟ وعندهم كل ما يريدون، وفوق ما يريدون، من متاع الحياة الدنيا!

خذ أمريكا مثلًا: إن الفرد هناك يعيش في مستوى مادي رفيع، يملك به من وسائل العيش ومظاهر النعمة والرفاهية وأدوات المتعة والتسلية ما يشبه أساطير الملوك الخالية، ولكن ما قيمة هذا والقوم يفتقدون السعادة ـ سعادة النفس ـ فلا يجدونها؟ ما قيمة هذا؟ وقد سمَّاه «كولن ولسون»: «غطاءً جميلًا لحالة من التعاسة والشقاء»!

وسننقل بعدُ عن الأديب الأمريكي «جون شتاينبك» قوله: «إن مشكلة أمريكا هي ثراؤها، وأن لديها أشياء كثيرة، ولكن ليس لديها رسالة روحية كافية».

وقال: «لو أنني أردت أن أدمِّر شعبًا، فإنني أُعطيه أكثر مما يريد، فهذه الوفرة تجعله جشعًا تعيسًا مريضًا! إن شعبنا لا يمكن أن يعيش طويلًا على الأسس الحالية لحياته.

إننا في حاجة إلى ضربة قوية تجعلنا نُفيق من ثرائنا، لقد انتصرنا على الطبيعة ولكننا لم ننتصر على أنفسنا»!

وسننقل عن «رينيه دوبو» في نهاية الفقرة ما يؤكد هذا.

QaradawiBooks.com

الساخطون في هوليود:

ثم ننقل هنا أيضًا ما سجَّله الصحفي المصري «أنيس منصور»[١] مما شـــاهده بعينه في «هوليود» مدينة الفن وكواكب السينما، وتحت عنوان «الساخطون هنا» كتب من هناك ما يلي:

«لأن كل شيء هنا واســعٌ وطويل وعريض ومثير وواضح، فالجيل الجديد يهرب إلى الأماكن الضيقة المظلمة المزدحمة القذرة.

ولأن كل شيء في الدنيا يخضع لنظام أو لهيئة أو لمؤسَّسة أو لثقافة، وأن الفرد لا وجود له باعتباره عضوًا في هيئة، فإن الشُّـبَّان يهربون من النظام ومن القيود والتقاليد إلى أماكن لا نظام فيها ولا ترتيب ولا أرقام ولا درجات ولا طوابير.

ولأن كل عمل يقوم به الشباب في هذا المجتمع يقتضي منه الانتباه والوعي وإلا ضاع وراحت عليه كل فرص الحياة.

ولأن الحياة تحتاج إلى كفاح شديد، وليســت سهلة، ولا هيِّنة كما نتصوَّر؟

ولأن كل شــيء هنا فــي أمريــكا بالفلوس.. كل شــيء.. وفي اســتطاعتك أن تتخيل أي شــيء، أي مبدأ، أي دين، أي فلسفة، أي عمل تجــاري، أي عمل أخلاقي، كل شــيء في أمريــكا تجارة في تجارة، فالجيل الجديد من الشــبان يذهب إلى أماكن ســرية، ويظل جالسًا في استسلام، لا يفكر، ولا يقول شيئًا، وإنما «يركن» عقله كأنه ســيارة قطعت طريقًا طويلًا، وموتورها يكاد يحترق.. يركن السيارة،

(١) من يومياته بالأخبار في ٥ يناير ١٩٦٠م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ويترك أبوابها ونوافذها وأغطيتها كلها مكشوفة، ويجلس في استسلام وسلبية تامة..

ولأن الصحف والإذاعة والتليفزيون والسينما تضغط على عقل الأمريكي الشاب، ولأنها كلها مؤسَّسات تجارية تريد الربح، ولأن هذه المؤسسات تخدم أناسًا لهم مصالح في الحروب، وفي تجارة السلام.

ولأن بعض هؤلاء الأناس يغامرون بسلامة أمريكا من أجل مصالحهم الخاصة.

ولأن هؤلاء الساسة قد ورطوا أمريكا والشعب الأمريكي في مواقف ضد مصالحه، فهؤلاء الشبان يهربون من الكلام في السياسة، والاستماع إلى السياسة، وإلى الإعلانات، وإلى القصص والأفلام التي تقدِّمها شركات البطاطس وشركات البيض وأمواس الحلاقة.. يهرب من هذا، ويجلس في صمت دون تفكير، ودون قراءة، ودون كتابة، يستسلم إلى الجلوس في الظل، إلى الجلوس على الرفِّ.

لقد رأيت عددًا من الشبان كالورد بلا شوك في اللون والشباب والذكاء.. كل هؤلاء جالسون يستمعون إلى موسيقى عادية نادية من أصابع الزنوج، وهؤلاء الشبان يشربون الشاي أو القهوة ويدخنون، ولا يقولون شيئًا.

وحاولت أن أسأل واحدًا منهم، إن كانوا يترددون هنا كل يوم، وهز رأسه يقول: نعم. وسألته: إن كانوا يفضلون الجلوس هكذا في صمت.. وعلمت منه ومن غيره أن هذا هو المكان الوحيد الذي لا يقول فيه إنسان أي شيء، فالكلام في أمريكا كثير، ومكتوب

QaradawiBooks.com

بالنور وبالحبر وبالحديد وبالخشب، ومكتوب بهذه الأجسام الشابة المستسلمة.. وكل يوم أقرأ في الصحف عن ارتفاع نسبة الجرائم بين الشبان.. في المدن الأمريكية الكبرى، جرائم السطو والاعتداء.. وكل يوم نسمع علماء النفس وعلماء التربية يصرخون بأعلى أصواتهم: إن الجيل الجديد في خطر، وإنه لا بد من تغيير أساليب التدريس.. الحياة المنزلية المعدومة، الحياة الاجتماعية المفكَّكة، المجتمع الصناعي التجاري الساحق الذي أصبح يعبد الهيئة، ويعبد المنظمة، ويعبد النقابة، ويعبد الوقوف بين العلامات البيضاء على الأرض، وعلى السقف، وفي البيت، وفي المكتب، وفي المصنع، وفي المعبد..

الناس في أمريكا يعبدون النظام. لا للفائدة التي يحقِّقها النظام، ولكن لمجرد طاعة النظام، طاعة الهيئة والمؤسسة، ولأن حياة الفرد في المجتمع الصناعي لا معنى لها وحدها، وإنما معناها بالجملة مع الآخرين..

وثورة الشبان هي ثورة على قيود هذه الهيئات، وتكون النتيجة دائمًا أن يموت الفرد والفردية، وتبقى الهيئة. والمجرم الشاب الذي يقتل.. إنه في الواقع أخطأ الطريق إلى جريمته، فإنه بدلًا من أن يقتل كل المجتمع قتل الحروف الأولى منه، قتل أحد أفراده!

والإحساس بالضياع هو أوضح شعور عند الشبان في أمريكا.. ضائعون تائهون لا يبالون بأي شيء.. إنهم يريدون أن يعيشوا في سلام مع أنفسهم ومع غيرهم.. ولكن أعصاب الناس في أمريكا لا شك متعبة، ولا شك أن الصحف والإذاعة والتليفزيون والسينما تحكمها نهائيًّا،

لتظهر أدوية وعقاقير وحبوب وسوائل وفيتامينات تُصلِح هذا الجسم المتعَب والعقل المجهَد..

ويظل الشاب الأمريكي حائرًا بين السينما والصحافة و(الأجزاخانة) حتى يموت وهو يعمل، وفي النهاية تقبض زوجته بوليصة التأمين على حياته، وتنفقها على أولادها، أو على زوجها الجديد..

إنني أعذر الشبان، ولا أرى غرابة في الاتجاهات الصارخة من الأدب الأمريكي الشاب بزعامة «جاك كيرواك» وهو الذي أطلق على هذا الجيل الجديد اسم «الجيل الصارخ» وهو جيل عنده شعور بالفشل وخيبة الأمل والضياع، وهو جيل أعجز من أن يقوم بأي إصلاح.

إنه جيل قد أسند ظهره للحائط الذي يملكه التجار والسماسرة في كل أمريكا..

«إنه جيل ساخط اليوم وحاقد غدًا.. وصوته أضعف من أن يسمعه أحد.. ولذلك فكل أفراد هذا الجيل يتجمَّعون في الظلام، ويصوِّتون بعضهم على بعض.. فيحطمون بعضهم البعض، دون أن تتناثر شظاياهم إلى عيون الآخرين من الراضين اليوم والساخطين غدًا»!

حركات التمرُّد على الحضارة المادية:

لقد كان نتيجة هذا القلق والسخط والتفاهة وفقدان الهدف، الذي يعانيه الناس في الغرب: ظهور تلك الأصناف التي نقرأ ونسمع عنها هناك من «الخنافس» و«الهيبيز» وما شابه ذلك، مما تمخضت عنه حضارة المادية والآلة.

QaradawiBooks.com

إنهم يمثلون التمرد على الحضارة الغربية المادية الاستهلاكية، التي لم تُشبِع جوعهم الروحي، ولم تملأ فراغهم العقدي، ولم تُجِب عن أسئلتهم الحائرة، ولم يعرفوا معها للحياة هدفًا ومعنى، ولذلك غاصوا في الأوحال بين المسكرات والمخدرات حتى غابوا عن أنفسهم، وما حولهم، ثم طفقوا يبحثون عن شيء آخر غير مادي، فتعلقوا بما سُمِّي «تحضير الأرواح»، ويبدو أن هلوسة المخدرات جعلتهم يتخيَّلون أنها حضرت فعلًا، وأنهم رأوها عيانًا!

وقد كتبت مجلة «الحوادث» اللبنانية[1] عن هذه الظاهرة منذ سنوات بقلم الأديبة «غادة السمان» التي كتبت من لندن تقول: «بدأت الحركة الهيبية بشكل حركة عصيان شابة انفجرت منذ سبعة أعوام.. حركة تطالب برد الاعتبار للفرد، بعد أن سحقته الآلية، والبيروقراطية، والطبقية، وسيطرة المؤسسات القديمة المتعفِّنة، ووحشية الحياة الصناعية المعاصرة، هذه كلها حوَّلت الإنسان إلى مجرد «رقم»، ورمت به بين أنياب المدينة الكبيرة التي لا ترحم، حيث قانون الغاب يسود في غاب معاصر جديد: غاب من الأبنية والحجارة والآلات والأُطر المهيَّأة سلفًا لكل فرد.

(هذا الرفض عبَّر عنه أيضًا كبار الأدباء المعاصرين أمثال «فولكنر»، و«ت. س. إليوت»، و«شتاينبك»، و«كافكا»، وغيرهم، ولكنهم عبَّروا عنه بصورة مبدعة خالدة).

إذن ثار (الهيبيز) في محاولة لإيقاف هستيريا التقدم العلمي على حساب الإنسان، والتذكير بأن الإنسان ما يزال إنسانًا، وأن أعصابه عاجزة عن احتمال هذه الضغوط الرهيبة التي يدفعها ثمنًا لهستيريا العلم..

(١) في ١٧ يونيو ١٩٧١م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

هستيريا التسلُّح.. هستيريا الذرة.. هستيريا الرحيل إلى القمر.. ثار (الهيبيز) في محاولة لتذكير العالَم المجنون اللامبالي بالفرد، بأن المدنية والعلم وُجِدا لخدمة الإنسان، وليس العكس.. وبأن الحروب «الجشعة» يجب أن تتوقف.. وبأن الحضارة الحقيقية هي في اكتشاف مجاهل أعماق الإنسان ومبعث آلامه ومداواتها، قبل اكتشاف أعماق البحار أو مجاهل القمر..

من هنا انطلقت حركة (الهيبيز) في الغرب: من دوافع إنسانية رائعة.. ولكنهم كانوا ـ للأسف ـ أسوأ محامين لأعدل قضية.

منذ البداية لم يكن هنالك أي تطابق بين سلوكهم الذاتي وبين المبادئ التي يدعون إليها..

نادوا بالرِّدَّة إلى الطبيعة الأُم، لكنهم لوَّثوا الطبيعة، حين جعلوا منها ديكورًا لمسرحياتهم الانقلابية الهستيرية «جنس... حشيش... وحتى جريمة»! ونادوا بالتحرر من قذارة المداهنات الاجتماعية، لكنهم رفعوا راية العداء ضد الماء والصابون! نادوا برفض «الصالونية» التقليدية في المظاهر، لكنهم في رفضهم تبنَّوا بديلًا تقليديًّا آخر: هو الشارعية التقليدية بدلًا من الصالونية.

نادوا بالحب، لكنهم ناصبوا العالَم العداء.. بل ناصبوا أنفسهم العداء، إذ انحدروا بالذات الإنسانية ـ التي ادَّعوا تكريمها ـ إلى أحط درجات البهيمية..

ورغم ذلك كله امتدت إمبراطوريتهم لتغطي وجهَ أكثرَ من قارة.. ولتنتقل عدوى الوباء إلى أكثر من مكان.. ومرَّت الأيام..

QaradawiBooks.com

ولكن حركة الرفض العادلة هذه لم تتبلور ضمن إطار فلسفيٍّ واضح المعالم، وإنما ازدادت انحرافًا عن منطلقاتها.

لم يكن (للهيبيز) خطُّ تحرُّكٍ واضح.. ولا هدف واضح.. وسقطوا في الهوة القائمة بين فكرهم وسلوكهم.. تلك الهوة التي تفصل عادة بين الثوار والمهرِّجين.. وصارت كلمة «هيبي» تُذَكِّر فورًا بسلوكٍ لا مسؤول، لا واعٍ، مائع ومهزوز كزئبق بلا وعاء..

رفضهم لسقوط العالَم في هُوِيِّ الآلية كان عادلًا، لكنه كان رفضًا سقط بدوره في هُوَّة الرِّخَص، وافترسه الحشيش والتخدير والانحلال الخُلُقي، والاستخفاف بالمبادئ الإنسانية الأساسية، وهكذا كانوا «صرعة» بدلًا من «ثورة»... يقتاتون كل عام بصرعة جديدة..

صحيح أنهم قطعوا علاقتهم مع العالَم القائم «التقليدي البشع»، ولكنهم أيضًا فشلوا في خلق بديل جديد له.. ووجدوا أنفسهم يهرولون في طريق مسدودة بدأت تصبح رتيبة، بل وحتى تقليدية.. وهذا العام حمل إلينا تيارين (هيبيين) أساسيين حاولا تجديد السلوك (الهيبي):

١ ـ الجريمة.

٢ ـ تحضير الأرواح.

تيار الجريمة هو المحاولة الأولى لتخطي الطريق المسدود لإمبراطورية (الهيبيِّين) عبر العنف، ويمثل هذا التيار «تشارلز مانسون» ـ بطل مجزرة «شارون تايت» ـ والمجموعة، فقد أحس الهيبيون بأنهم صاروا مثل «روبنسُن كروزو» المعزول في جزيرته. صاروا معزولين في جزيرة رفضهم للعالَم الخارجي، ولكنه رفض سلبي لم يبدل في الأمور شيئًا، بل على

QaradawiBooks.com

العكس، كان على كل هيبي يبلغ الثلاثين «دون أن ينتحر أو توصله المخدرات إلى أحد المصحات» أن يعود للاندماج في المجتمع، عبر البحث عن عمل، والزواج والاستقرار، والاستعداد لكهولته ضمن الإطارات التقليدية القائمة، التي لم يستطيعوا أيام «هيبيتهم» اختراع مؤسسات بديلة لها.. مؤسسة «الجنس الجماعي» فشلت في أن تكون بديلًا عن مؤسسة الزواج مثلًا.. وهكذا فإن «روبنسُن كروزو» خرج من جزيرته، وقرر أن يكون «قرصانًا» ليدمر «بالعنف» ما فشل في تدميره «بالحب»..

أما المَخرج الثاني للهيبيز من طريقهم المسدود، فكان عبر تحضير الأرواح! فهم بعد أن هجروا العالَم الخارجي وهجرهم، قرروا أن يتعاملوا مع نوع واحد آخر من البشر.. بالضبط: مع الأرواح! لقد عجزوا عن التعايش مع «قذارة» المجتمع حولهم، فقرَّروا التعايش مع مجتمع بشري آخر هو مجتمع الأرواح.. وهكذا فإن «روبنسُن كروزو» لن يقبع وحيدًا في جزيرته. ولن يصير قرصانًا يواجه العالَم الخارجي بالعنف، لكنه بكل بساطة «سيخلق» لنفسه مجتمعًا جديدًا يستحضره. هو مجتمع الأرواح الذي لم تعد حقارات المؤسسات والمصالح تدنِّسه! ربما كان في هذا تفسير لانتشار تحضير الأرواح المفاجئ في الأجواء الهيبية، وربما كان هناك تفسير آخر، وهو ببساطة أن الهيبيز الذين سئموا ممارسة حياتهم الرتيبة: جنس، مخدرات، أزياء عجيبة غريبة، رقص مجنون، مهرجانات جماعية مثل «وودستوك» في أمريكا و«سولزبيري» في بريطانيا، وهذه كلها صارت تقليدية بعد انقضاء أعوام طويلة على تكرارها، وجدُّوا في تطعيم هذه الحياة بحكاية الأرواح نكهة جديدة مثيرة للخيال، تستطيع أن تحميهم من السأم والتكرار فترة لا بأس بها، ريثما يجدون صرعة جديدة يطلعون بها..

QaradawiBooks.com

(ويؤكد ذلك أن تحضير الأرواح على الطريقة الهيبية هو خطة تعرية وحشيش وجنس، إنهم يعاملون الأرواح كأنها زبائن في كباريه).

ولكن تُرى هل تكون هذه الصرعة هي آخر صرعات الهيبيين؟ كل الدلائل تشير إلى سقوط إمبراطورية الهيبيِّين نهائيًّا.. لقد قطعوا آخر خيط كان يمكن أن يربطهم بالحياة اليومية ومصير الفرد العادي والإنسانية.. لقد رموا عن أكتافهم نهائيًّا المسؤولية التي تُحتِّمها عليهم مبادئهم (التي ادَّعوها) ورحلوا عن ذلك كله لينتهي بعضهم على الكرسي الكهربائي، وبعضهم الأخر وسيطًا مزيَّفًا لتحضير أرواح مزيَّفة».

الاكتئاب وحياة العزلة:

ومن مظاهر القلق ولوازمه في الحضارة المعاصرة: انتشار مرض «الاكتئاب النفسي» الذي يجعل الإنسان سجينَ نفسه، وهو وسط المجتمع، ويُحيل حياته إلى جحيم، وفي يديه الثروة، وبجواره أدوات اللذة والمتعة، ولكنه يحيا في عزلة نفسية، وكثيرًا ما تكون عزلة مادية بالفعل، وخصوصًا لدى كبار السن، وبالأخص النساء اللائي أعرضن عن الزواج في شبابهن، فلم يجدن في الشيخوخة من يؤنس وحشتهن.

ومن أمثلة هؤلاء: «جريتا جاربو» التي كانت من ألمع نجمات السينما الأمريكية في يوم من الأيام، وبعد تقدمها في السن لم تعد سلعة رائجة في هوليود. لدرجة أنها احتفلت في (١٨ سبتمبر ١٩٨٠م)، بعيد ميلادها الخامس والسبعين وحيدة دون أن يكون بجانبها أحد! وحين سألها مؤلِّف سيرة حياتها عما إذا كانت تشعر بالندم على عدم إقبالها على الزواج، وعدم الفوز برفيقٍ للعمر يُواسيها في عزلتها؟ أجابت بنبرة حزن: «أعتقد أنني أخطأتُ بالعزوف عن الزواج».

QaradawiBooks.com

لو بنت لها عشًّا زوجيًّا في شبابها، وأنجبت فيه أولادًا، لظلَّلها في شيخوختها، ولكنها خالفت فطرة الله الذي خلق الزوجين: الذكر والأنثى، فعاقبتها الفطرة بهذه الحياة البائسة التي تحياها.

على أن الأمر لا يقف عند من بلغ الشيخوخة من هؤلاء الممثِّلات اللائي تربَّعن على قمة الشهرة، وسُلِّطت عليهن الأضواء، فقد رأينا من شبابهن من تحيا ـ رغم الأضواء الباهرة ـ حياة كئيبة في داخل نفسها، ولا تجد سبيلًا للخلاص من هذه الكآبة النفسية الخانقة إلا الانتحار!

ولا يجهل أحد قصة «مارلين مونرو» التي كانت تعتبر من أشهر الممثلات في الولايات المتحدة، بسبب جمالها وجاذبيتها الجنسية، وقد غدت ألمع نجمة سينمائية في سماء هوليود حتى سمَّوها بـ «إلهة الجنس»، ونالت أفلامها شعبية واسعة، كذلك كانت عروضها المسرحية تجذب آلاف المشاهدين، ومع ما اجتمع لها من الثروة والشُّهرة، والمجد الدنيوي، كانت تعيش تعيسة، في عزلة نفسية في خِضَمّ هذا العالَم الصاخب. وبالرغم من أن صورها بابتسامتها الساحرة كانت تحتل صدر صفحات الجرائد وأغلفة المجلات، نجد أنها كانت تعاني من اكتئاب نفسي بصفة دائمة، إلى أن قررت أن تضع حدًّا لآلامها النفسية بالانتحار، بابتلاع كمية كبيرة من الأقراص المنومة! ولم يكن عمرها يتجاوز (٣٦) سنة لدى انتحارها في (٥ أغسطس ١٩٦٢م).

وتعتبر «بريجيت باردو»، التي ولدت عام ١٩٣٤م، من أشهر الممثلات في تاريخ السينما الفرنسية، ويقال: إنها تتفوق بمكانتها البارزة في عالَم السينما العالَمية على «مارلين مونرو» و«مارلين

QaradawiBooks.com

ديتريش»، وهي تُعدُّ أشـــهر سيدة في تاريخ فرنســـا بعد «جان دارك»، ويقال: إن فرنسا حصلت بتصدير أفلام «بريجيت باردو» على كميات من النقد الأجنبي تفوق مبيعات سيارات «رينو» المعروفة في الأسواق الخارجية، وطبقًا لقول الصحفـــي الأمريكي «توني كرولي»، الذي قام بمراجعة الجرائد والمجلات الصادرة فـــي أوروبا وأمريكا، فإن صور «بريجيت باردو» تصدرت صفحات وأغلفة هذه المطبوعات لأكثر من (٢٩,٣٤٥) مرة[١]. وتتابعت أفلام «بريجيت باردو» لتزيد من شـــعبيتها، إلى حد أنه صعب عليها الخروج من بيتها بســـبب جموع المصوِّرين المحتشـــدة على بابها، واســـتحال عليها مراجعة حتى عدد مختار من الرســـائل الشـــخصية من بين الكميات الضخمة التـــي كانت ترد في بريدها الخاص كل يوم، وبالرغم مـــن هذا الوهج والبريق الظاهريين، كانت «بريجيت باردو» تعاني من قســـوة العزلة والقلق الداخلي، ولم تعد تتحمل أعباء الشـــهرة التـــي كانت تحظى بهـــا، فقادتها ضغوطها النفسية إلى أن تضع حدًّا لحياتها بتناول جرعات زائدة من المنوِّمات، إلا أن محاولتهـــا للانتحـــار باءت بالفشـــل، وحتى لـــدى نقلها إلى المستشفى في حالة خطيرة وقف المصوِّرون في وجه سيارة الإسعاف على أمل الفـــوز بلقطاتها الأخيرة، وينقل تقرير صحفي على لســـانها قولها: بأنها لم تشعر بالراحة النفســـية يومًا ما لدى وقوفها أمام آلات التصوير السينمائية.

وتوقَّفت «بريجيت باردو» عن نشـــاطها الســـينمائي فجأة، وهي في التاسع والثلاثين من عمرها، بعد أن قامت ببطولة أكثر من خمسين فيلمًا

(١) ريدرز دايجست، مايو ١٩٨٦م.

QaradawiBooks.com

ناجحًا، فقطعت جميع علاقاتها بعالَم السينما، وعلى حد قولها: «بعتُ سيارة رولز رويس» الفخمة التي كنت أمتلكها، كل ذلك لأجل أن يمتنع الناس عن اعتباري كائنًا فوق العادة للجمال، ولأعيش حياتي بهدوء كأي إنسان آخر، وحيدة داخل بيت على شاطئ الريفيرا»[1].

انتحار المراهقين:

ومن الظواهر المعروفة في الغرب كله: ظاهرة الانتحار، فالإنسان يتخلص من حياته لأوهى الأسباب؛ لأنه لا يجد حصنًا يلوذ به: من الإيمان، ولا من عائلة تُظلُّه، ولا من مجتمع يُحبُّه. لكن أغرب ما مُنِي به المجتمع الغربي: انتحار الشباب في سن المراهقة وهم زهرات يانعة!

وتذكر مجلة «تايم» في تحقيق صحفي بعنوان «انتحار المراهقين» بأن الولايات المتحدة تشهد زيادة مستمرَّة في حوادث انتحار صبيان وفتيان تتراوح أعمارهم ما بين عشر وعشرين سنة! وقد ارتفعت هذه الحوادث إلى ثلاثة أضعافٍ عما كانت حتى عام (١٩٥٠)، ففي عام (١٩٨٥م) أقدم على الانتحار ستون مراهقًا (ومثلهم من الكهول) من بين كل مائة ألف شخص. وفيما يلي انطباعات ثلاث سيدات أمريكيات إزاء حوادث انتحار المراهقين..

تقول السيدة «باربرا هويلر»، وهي خبيرة في منع وقوع حوادث الانتحار بمدينة «أوماها»: «لا أظن أنهم يفكرون حول تحوُّلهم إلى موتى، بل كل ما يفكرون فيه عند الانتحار هو التوصل إلى وسيلة ما لإنهاء الألم، وحل المشكلة، أو المأزق الذي يجدون أنفسهم فيه».

(١) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية صـ ١٠٢ ـ ١٠٤.

QaradawiBooks.com

وتقول «إيلين ليْدَرْ» التي شاركت في إنشاء خط هاتفي مفتوح لمعالجة مشكلات المراهقين بمركز «سيدارز سيناي» الطبي بلوس أنجلوس: «الكل في غاية الانشغال لدرجة أنه ليس لدينا من الوقت لنستمع إلى أولادنا».

وتقول «باربـــرا أوليري»، وهي مضيفة بمطعم: «حين يحدث شـــيء كهذا أفكر كثيرًا في أولادي، وآمل أن أكون قد ربَّيتُهم تربيةً سليمة، فهذه سنوات خطرة، وأنت لا تعرف الأفكار التي تجول في عقولهم»[١].

وقد تلقت «تايم» بعد نشـــرها التحقيق الصحفي المذكور رسائل من عدد من المواطنين الأمريكيين، تقول إحداها: «إن قلبي يَدمى للعائلات المنكوبة التـــي انتحر أولادها، إننـــي أدرك مدى معاناتهـــم. لقد انتحر حفيدي البالغ من العمر (١٦) عامًا بشنق نفســـه. وستظل عائلتي مصابة بالحيرة: لماذا حـــدث ذلك؟ ولن نتمكَّن من معرفة الأســـباب الحقيقية للحادث أبدًا»[٢].

ما السبب وراء ارتفاع حوادث انتحار المراهقين في الدول المتقدمة؟ قد قيل: إن السبب باختصار هو حرمانهم من عطف الآباء وحنان الأمهات، وحب الإخوة والأقارب، إنهم يعيشـــون وحدهم في هذه الحياة الصاخبة؛ لأن هذه الدول تعاني من مشكلة «التفكُّك العائلي» على نطاق واسع، مما غَذَّى الشـــباب المراهق بنزعة الانتحار. إنهم يتربَّون محرومين من عطف ورعاية الأســـرة، ويعانون من مختلف العُقَد النفسية خلال اجتيازهم عتبة المراهقة، فلا غرو أن تقودهم عند مواجهة بعض المشكلات إلى الانتحار.

(١) مجلة تايم، عدد ٢٣ مارس ١٩٨٧م.

(٢) المصدر السابق عدد ١٣ إبريل ١٩٨٧م، نقلًا عن المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية صـ ١٣٥، ١٣٦.

QaradawiBooks.com

ولكن القضية في عمومها ـ قضية الاكتئاب والقلق واليأس ـ تحتاج إلى تحليل أعمق لأسبابها الأكثر عمقًا في النفس وفي الحياة. وهذا ما قام به البروفسور «رينيه دوبو» الحاصل على جائزة نوبل في العلوم، في كتابه القيم الذي تُرجم إلى العربية تحت عنوان «إنسانية الإنسان»، وسنتحدث عنه، وننقل منه في الفصل القادم.

يذكر في فصلٍ عن «التشاؤم الجديد»: أن تعابير «العصر الكلاسيكي»، «عصر الإيمان»، «عصر الرشد» و«عصر الرومانسية» قد لا تتوافق مع الحقائق التاريخية تمامًا، إلا أنها مع ذلك توحي أن البشرية توَّاقة لبعض هذه الخصال في الحياة، وأكثر الناس يقرنونها صوابًا أو خطأ بالماضي.

وبالمقابل نحن نميِّز جيلنا بتسميته «عصر الذرة» و«عصر الفضاء» و«عصر الهياكل الآلية» و«عصر مضادات الحيوية (Antibiotics)»، أي بتعبير آخر: عصر هذه التكنولوجيا.. أو تلك، هذه التعابير نستعملها برضا أهل التكنولوجيا.. أما الإنسانيون.. فيحتقرونها، والتعبير الوحيد الذي لقى قبولًا إجماعيًّا فهو «عصْر القلق»!

نشرت المنجزات الاجتماعية والتكنولوجية الرفاهَ الاقتصادي، وزادت الرخاء، كذلك زادت سرعة وسائط النقل، وكافحت بعض أنواع من الأمراض، ولكن الكفاية المادية التي نتجت لم تزد كثيرًا في السعادة وفي معنى الحياة، حتى إن العلوم الطبية لم تفِ بوعودها، فمع أنه أُنجز الكثير في ميدان الوقاية والعلاج لبعض الأمراض المعيَّنة، إلا أنهم فشلوا في إطالة حقيقية لعمر الإنسان، وفي تطوير الصحة بصورة إيجابية. ومن التناقض أن يكون عصر الرفاه والعجائب التكنولوجية والمعجزات الطبية هو أيضًا عصر الأمراض المزمنة والقلق واليأس! وظهرت أعراض

QaradawiBooks.com

«الغثيان الوجودي» (أي القرف من الحياة) في عُقر دار مجتمعات الرفاه المادي، وفي أكثر أجزاء العالَم تقدمًا تكنولوجيًّا. وتتكاثر في هذه المجتمعات مشاكل فكرية شديدة كالنزاع العنصري، والفقر المادي، والعزلة العاطفية، والقباحة المدنية في الحواضر الكبرى، والمظالم بكل أشكالها وأنواعها، والجنون العام الذي يُسبِّب تهديدًا دائمًا بالحرب النووية. والجذور العقيمة للقلق المعاصر موجودة، في البنْية النفسية للفرد ـ كل فرد ـ من أفراد هذه المجتمعات.

وأكبر مشكلة حادَّة في الحياة المعاصرة هي في الغالب شعور الإنسان أن الحياة قد فقدت معناها، فالمشاعر الدينية والتقاليد الاجتماعية القديمة تنخرها المعلومات العلمية، وسخافة الأحداث العالَمية الباطلة، ونتيجة لذلك انتشر تعبير: «مات الإله»! بصورة واسعة في الأوساط اللاهوتية والعلمانية على السواء.

وبما أن فكرة «الإله» كانت ترمز لوحدة الكون بمجموعة: الخلق والمخلوقات، لذا يبقى الإنسان الآن بدونها كسفينة بلا مرساة، لا قرار له! والذين يؤكدون مقولة «مات الإله» يعنون بها موت الإنسان التقليدي الذي كان يستمدُّ معنى حياته من صِلاته ببقية المخلوقات في الكون. والبحث عن معنى وصياغة مفاهيم جديدة لكلمتَي «الله» و«الإنسان»، ربما يكون أفضل ما يجب أن ينشغل به الآن «عصْر القلق، والغربة النفسية»!

و«الغربة» كلمة مبهمة، إلا أنها تعبير عن حالة منتشرة بصورة هائلة الآن في مجتمعات الرفاه المادي، والإحساس بالغربة هي تجربة قديمة، اتخذت أشكالًا مختلفة عبر التاريخ، فالكثير من الذين عانوها في الماضي، ظهر لهم آنذاك أن أوضاع الإنسان والكون لا ترابط بينها ولا

QaradawiBooks.com

معنى لها، ولقد عزا «جان جاك روســو» ذلك في القرن الثامن عشر إلى التباعد بين الإنسان والطبيعة!

وتتعايش الآن في مجتمعاتنا أشكال متنوعة من الغربة، فالضيق الاجتماعي والثقافي لا يؤثِّر فقط على المفكِّرين الواعين، والعمَّال الصناعيين، والطبقات الفقيرة. بل يؤثر أيضًا على كل الذين يشعرون بانسحاق فرديتهم، فالأوضاع السائدة تفرض عليهم مقاييس جماعية لا تســمح لهم بإبــراز وتوكيد ذاتيتهــم وهُويتهم. ومن الأســباب الأخرى للغربة النفســية الفشــل التام ـ حتى في أكثر المجتمعات تقدمًا ورفاهًا ماديًّا ـ في إقامة علاقات متناســقة متناغمة بين حياة الإنسان ومجموع بيئته.

والاعتقاد بأن العالَم المعاصر ســخيف وباطل ليــس مقتصرًا على الفلاســفة والأدباء المبرزين، فهو منتشــر بين كل الفئــات الاجتماعية والاقتصادية، ويؤثر على كل مظاهر ونشاطات الحياة.

ويميل علماء النفس والاجتماع والأخلاق إلــى عزو القلق واليأس لانقطاع الصلات الاجتماعيــة الحميمة، والانفراد والوحشــة التي تعم المدن المعاصرة. والانقطاع هذا ليس فقط بين البشر وأنفسهم، بل أيضًا بينهم وبين قــوى الطبيعة التي كان لهــا أثر في «هندســة» كيان الفرد العضوي والوظيفي (الفيزيولوجي) والفكري، والتي لا تزال تحدد أكثر تفاعلات الفرد الأساســية. والفوضى في العلاقات الإنسانية، كالفوضى في الصلات بين الإنسان وبيئته، تصدران عن أصل واحد.

الإنســان العصري قلق، حتــى ولو كان فــي زمن الســلم، وفي جو البحبوحة الاقتصادية، لأن عالم التكنولوجيا ـ الذي يشكل محيطه المباشر،

QaradawiBooks.com

والذي فصله عن عالم الطبيعية الذي تطور الإنسان فيه أصلًا، فشل في توفير حاجات الإنسان الأساسية التي لم تتغير ولم تتبدل. ومن نواح كثيرة يشبه إنسان العصر «الحيوان البري» الذي يقضي حياته في حديقة الحيوانات، فالإنسان الآن كهذا الحيوان.. يتوفر له الغذاء الكافي، والحماية الكافية من القسوة، ولكنه يُحرم من المثيرات الطبيعية الأساسية للعديد من وظائفه الجسدية والفكرية، فإنسان اليوم ليس فقط غريبًا عن أخيه الإنسان وعن الطبيعة، بل الأهم بكثير هو أنه غريب معزول عن أعماق ذاته[1].

٤ ـ الاضطراب العقلي

ولم تقف أزمة الحضارة الغربية عند هذه الآثار المروِّعة من التحلل الخُلُقي والتفسخ الأُسري، والقلق المَرضيّ، بل زادت على ذلك بما نقرؤه باستمرار عن الأعداد المتزايدة للمصابين بالأمراض العقلية والعصبية.

فهذا العلم الذي وثب وثبات هائلة في تسخير المادة، وانتهى إلى ثورة «التكنولوجيا» وثورة «البيولوجيا» وثورة «المعلومات» وثورة «الاتصالات»؛ عجز عن إصلاح الإنسان، بل زاده خبالًا وفسادًا، حتى عجَّت المستشفيات المتخصصة بهذا النوع من المرضى.

وحسبنا أن نسجل هذه الفقرة من كتاب البرفسور «ألكسيس كاريل»: «الإنسان ذلك المجهول» عن هذا الموضوع، وهو شاهد من داخل البيت، وإن كانت الإحصاءات التي ذكرها أصبحت الآن قديمة، وقد تضاعفت الأرقام، ولكنها تعطي صورة واضحة وكافية. يقول «كاريل»:

---

(١) إنسانية الإنسان لرينيه دوبو صـ ٤٦ ـ ٤٩، ترجمة د. نبيل صبحي الطويل، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

QaradawiBooks.com

«من العجيب أن الأمـراض العقلية أكثر عددًا مـن جميع الأمراض الأخرى مجتمعة، ولهذا فإن مستشفيات المجاذيب تعجُّ بنزلائها، وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم.

ويقول «س. و. بيرس»: «إن شخصًا من كل (٢٢) شخصًا من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر!

وفي الولايـات المتحدة تبدي المستشـفيات عنايتهـا لعدد من ضعاف العقول يعادل أكثر من ثمانية أمثال المصدورين.. ففي كل عام يدخل مصحَّات الأمراض العقلية وما يماثلها من المؤسسات حوالي ستة وثمانين ألف حالة جديدة، فإذا اسـتمرَّ عدد المجانين في السير على هذا المعـدل، فإن حوالي مليـون من الأطفال والشـبان الذين يذهبون الآن إلى المدارس والكليات سوف يدخلون إلى المصحَّات عاجلًا أو آجلًا!

ففي عـام ١٩٢٢م كان عـدد المجانيـن المُودعين بالمستشـفيات الحكوميـة (٣٤٠,٠٠٠) مجنـون، كمـا كان عـدد ضعـاف العقـول والمصْروعين المحجوزين في المصحَّات الخاصة (٨١,٨٥٠)، وكان عدد مطلقي السراح بشرف كلمة الشرف من ضعاف العقول (١٠,٩٣٠)، ولا تشـمل هذه الإحصاءات الحالات العقلية التي تُعالَج في المستشفيات الخاصة، وعلاوة على المجانين يوجد في البـلاد كلها (٥٠٠,٠٠٠) من ضعاف العقول.

ولقد كشف الفحص الذي تولته اللجنة الوطنية للصحة العقلية بعناية عن أن (٤٠٠,٠٠٠) طفل على الأقل على مستوى منخفض من الذكاء، إلى درجة أنهم لا يسـتطيعون الاسـتمرار في المدارس العامة، والإفادة مما

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

يتلقون من علم.. وحقيقة الأمر أن عدد الأفراد الذين انحطُّوا عقليًّا أكثر من ذلك بكثير.

ويُقــدَّر أن عدة مئات من الآلاف لم تشــملهم الإحصاءات الرســمية مصابون باضطرابات نفســية، وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد الرجل المتحضِّر للعطب، وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تُعتبر من أهم المشاكل التي يواجهها المجتمع العصري، فــإن أمراض العقل خطر داهم: إنها أكثر خطورة من الســلِّ والســرطان وأمراض القلــب والكُلى، بــل والتيفوس والطاعون والكوليرا. فيجب أن يُحسَب للأمراض العقلية حسابها، لا لأنها تزيد عدد المجرمين فحسب، بل لأنها ستُضعف حتمًا التفوق الذي تتمتع به الأجناس البيضاء[1]، على أنه يجب أن يكون مفهومًا أنه لا يوجد ضعاف عقول ومجانين بين المجرمين بالكثرة التي يوجدون بها بين أفراد الشعب!

صحيح أن عددًا كبيرًا ممن يعانون مــن النقائص العقلية موجود في الســجون، بَيْد أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن أكثر المجانين واســعي الثقافة، ما زالوا مطلقي السراح!

ولا شك أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطر الذي تعاني منه المدنية العصرية، وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقًا إلى تحسين صحتنا العقلية»[2].

(١) نعجب لمثل هذا العالَم الكبير أن يظل على هذا الاعتقاد اللاعلمي بتفوق الجنس الأبيض! وهذا دليل على أنه ما زال سجين الفكر الغربي والحضارة الغربية، برغم نقده لها بحق، كما قال الشهيد سيد قطب.

(٢) انظر: الإنسان ذلك المجهول صـ ١٧٨ ـ ١٧٩، ترجمة شقيق أسعد فريد، نشر مكتبة المعارف، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

QaradawiBooks.com

٥ ـ الجريمة والخوف

ماذا يُتوقَّع بعد هذا في مجتمع تسيطر عليه المادية والأنانية، حتى غلب عليه التحلل الخُلُقي، والتفسخ العائلي، والقلق النفسي، والاضطراب العقلي؟

إنه لا بد أن تسوده الجريمة، وسيادة الجريمة معناها الخوف، والخوف شر ما يُبتلى به الإنسان في الحياة، وشرُّ ما يعاقِب القَدَر به الجماعات إذا انحرفت عن الجادة وكفرت بأنعم الله، كالقرية التي حدَّث عنها القرآن وضربها مثلًا للآخرين: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وأبرز مثل لذلك هو أمريكا، أولى دول العالَم في الثراء والقوة المادية والعسكرية والتقدم التكنولوجي، وحسْبي أن أنقل الفقرات التالية التي تتكلَّم فيها الوقائع والأرقام وحدها معبِّرة عمَّا يجرى هناك، وهي أرقام صادرة من داخل أمريكا نفسها، ومن الجهات المسؤولة فيها، وهو أمر بيِّنٌ يلمسه كل من زار هذه البلاد، فكيف بمن يعيش فيها؟

على الخوف تعيش أمريكا:

وهذه الفقرات من مقال توثيقي لمجلة «العربي» الكويتية تحت عنوان: «على الخوف تعيش أمريكا!»:

«الجريمة تجتاح أمريكا، الجريمة بكل أنواعها في كل مكان، في المدن، في الريف، في الضواحي الهادئة، في عدد كبير من الولايات الأمريكية في الشمال والجنوب.. في الشرق والغرب، وجرائم من كل

QaradawiBooks.com

نوع.. قتل ونهب، سطو واعتداء، سرقات بالإكراه، واغتصاب تحت تهديد السلاح.. ومع الخطر المتزايد الذي يهدِّد حياة الناس في أكبر وأغنى دولة في العالَم انطلقت مَوْجة من الإنذار في المدن وضواحيها.. أطلقتها أجهزة الأمن التي تقع عليها مسؤولية حماية أرواح الناس وممتلكاتهم بعد الزيادة المخيفة في معدلات الجريمة طبقًا لإحصائيات مكتب التحقيقات الجنائية.

فقد تعدَّت الجريمة في أكثر من خمسٍ وعشـــرين مدينة أمريكية كل الأرقام التي سُجِّلت على مدى السنوات العشر الأخيرة».

هكذا تقــول الصحــف الأمريكية، وهــي تنقل لنا آخر ما ســجلته الإحصائيات، تقرأ مجلة «تايم» الأسبوعية مثلًا فتجد أن هناك جريمة قتل تُرتكب كل (٢٤) دقيقة في مكان ما بالولايات المتحدة، وفي كل عشــر ثوان يتعرض بيتٌ للسطو، وكل ســبع دقائق تُغتصب امرأة.. إحصائيات أخيرة عن بعض ما وصلت إليه الجريمة في الشهور الأولى من هذا العام.

ثم تنقل لنا مجلة «يو إس نيوز آنــد وورلد ريبورت» أرقامًا أخرى أكثر دقة وتفصيلًا؛ لأنها مســتقاة من مكتب التحقيقات الجنائية خلال عام ١٩٧٩، تقول: إن جريمة خطيرة تُرتكب كل ثانيتين ونصف، وحادث سرقة كل ثلاث ثوانٍ، وسطو كل عشــر ثوانٍ، وجريمة عنف كل (٢٧) ثانية، وسرقة سيارة كل (٢٩) ثانية، واعتداء على أشخاص لأي سبب أو بلا سبب كل (٥١) ثانية، واغتصاب كل ســبع دقائق، وجريمة قتل كل (٢٤) دقيقة.

وفى تحذيــر وزير العدل الأمريكــي «وارن بيرجــر»، نرى الصورة المخيفة التي يعيشها الأمريكيون، فقد قال في شهر فبراير من هذا العام (١٩٨١م) وفي أعقاب قيام رئاسة جديدة وحكومة جديدة في أمريكا: «إن

QaradawiBooks.com

هناك حُكمًا من الإرهاب يسود المدن الأمريكية» ثم يتساءل: «ألسنا رهائن داخل حدود بلادنا المستنيرة المتحضرة؟!».

ويقول مدير شركة مدينة «هيوستن» بولاية «تكساس» الأمريكية: الخوف من الجريمة يهدد تدريجيًّا بشلل الحياة في المجتمع الأمريكي.. لقد سمحنا لأنفسنا بالتحلُّل والتفسخ إلى الحد الذي أصبحنا فيه نعيش مثلما تعيش الحيوانات.. فنحن نعيش وراء قضبان حديدية تحمينا من وصول اللُّصوص إلينا، ومجموعة من الأقفال المثبتة في الأبواب وأجهزة الإنذار، ثم نرقد على الفراش وبجوارنا مسدس محشوٌّ بالرصاص، وبعد هذا نحاول أن نحصل على شيء من الراحة.. يا لَلسخرية!

ورئيس شرطة «هيوستن» يعرف عن أي شيء يتحدَّث؛ لأنه هو نفسه يحتفظ بعدة مسدسات محشوَّة بالرصاص في غرفة نومه!

لقد أصبح الأمريكيون يتصوَّرون أن هذه الجرائم التي أصبحت بلادهم مسرحًا لها لا تقع إلا في أمريكا. إنها جرائم موجَّهة ضد كل واحد منهم.. لقد أصبح المواطنون كلهم وبلا استثناء معرَّضين لها، لهذا وقف الأمريكيون جميعًا صفًّا واحدًا لمقاومتها.. إنهم في حرب ضد هذا العدوِّ المجهول.. ولكن كيف يحاربون؟ ومن هو العدو؟!

ويجيب رجال الأمن على الشق الأول: «إذا كنتَ تسير وحدك في ساعة متأخرة بالليل، وفجأة ظهر لك شبح وسط الظلام، وأحسستَ بآلة حادة تلتصقُ بضلوعك من الخلف، وصوت يأمرك بأن تعطيه حافظة نقودك، فافعل دون تردد.. لا تقاوم، أعطِه كلَّ شيء، مالك وساعتك وأية مجوهرات أخرى تكون في حوزتك. هذه هي نصيحة البوليس لك، إذا كنت لا تريد أن تموت، حتى لو كنت تحمل مسدَّسًا، لا تحاول أن

QaradawiBooks.com

تستخدمه؛ لأنك لو حاولتَ وتحرَّكت أصابعك إلى جيبك، فسوف تكون حياتك قد انتهت، وحتى لو كنت تجيد الجودو أو الكاراتيه، أنت ميت ميت، فلا تقاوم.. فالرصاصة أسرع من أي حركة تُقْدم عليها، لا تحاول مفاوضة مَن يهاجمك للاحتفاظ ببعض ما تحمل، فكلما أحس بأنك تعرقل مهمته، ازداد عنفًا، لا تصرخ.. لا تقم بأي حركة مفاجئة، وأنت تمدُّ يدك إلى جيبك لتُخرج منه ما تريد أن يأخذه، قل له: إنك تنوي أن تفعل ما يريد أن تفعله قبل أن تحرك ساكنًا، ولا تنس دائمًا أن تخرج من بيتك وفي جيبك بعض المال، لأن بعض هؤلاء المهاجمين سوف يتملكهم الغضب نتيجة خيبة الأمل التي أصابتهم، وهم يخرجون بلا شيء من هذه المغامرة، وربما قتلوك على أية حال»!

وفي دراسة جديدة تحت عنوان «تقرير فيجي» عن أثر الجريمة على الحالة النفسية للأمريكيين أُجريت على أكثر من ألف شخص، من جميع أنحاء الولايات المتحدة.. خرج الدارسون بنتيجة هامة، وضعوها في هذه الصورة الجديدة «الأمة خائفة»! وهذه بعض ملامح الصورة:

* أربعة من كل عشرة مواطنين يشعرون أنهم معرَّضون للقتل والاعتداء والسرقة والاغتصاب، وهو شعور دائم يلازمهم في حياتهم اليومية.

* الخوف من الجريمة ينتاب كل طبقات المجتمع في كل مكان، بغض النظر عن أية حدود جغرافية، (٥٢٪) في المدن الكبيرة يعيشون في خوف دائم، وتهبط هذه النسبة إلى (٤١٪) في المدن الصغيرة، وإلى (٣١٪) في الضواحي الصغيرة والمناطق الريفية.

* (٥٢٪) من مجموع عدد الذين استُجوبوا خلال هذه الدراسة يمتلكون أسلحة للدفاع بها عن أنفسهم.

QaradawiBooks.com

* تسعة من بين كل عشرة مواطنين يُغلقون أبواب منازلهم بالضبَّة والمفتاح، ويتعرَّفون على كل زائر قبل أن يفتحوا له الباب ويسمحوا له بالدخول.

* وسبعة من بين كل عشرة يُغلقون أبواب السيارات من الداخل أثناء قيادتهم لها، وستة من بين كل عشرة يتصلون تليفونيًّا بأصدقائهم أو أقاربهم الذين كانوا في زيارتهم، ليُطمئنوهم على وصولهم إلى بيوتهم سالمين.

* أكثر من نصف الذين أُجريت عليهم هذه الدراسة يحرصون دائمًا على الخروج بملابس عادية بسيطة لا تلفت إليهم أنظار المجرمين.

* (٦٣٪) يؤيدون منح البوليس سلطة أكبر تسمح لهم باستجواب المشتبه فيهم، ولكن ثقة السود الأمريكيين في الشرطة أقل بكثيرٍ من ثقة المواطنين البيض.

* أكثر من النصف لا يمانعون في فرض مزيد من الضرائب، بشرط أن تذهب هذه الأموال لدعم حماية الشرطة لهم.

* الغالبية العظمى تُنادي بفرض عقوبات رادعة، والسجن مددًا طويلة للذين يرتكبون جريمة من جرائم العنف، بينما طالب اثنان من كل ثلاثة بالحكم بالإعدام.

ويقول التقرير في النهاية: إن أمريكا تعيش اليوم في قبضة خوف جديد.. تزداد ضغطًا مع الوقت.. الخوف من أن تقع ضحية لجريمة.. الخوف من الإصابات الجسمانية.. الخوف من ضياع ما يملكون.. إن الأمريكيين اليوم يعيشون في خوف بعضهم من بعض!».

QaradawiBooks.com

الجريمة لماذا؟

يقول بعض الأخصَّائيين في علم الجريمة: إن هذا الشعور الذي أصبح يُسيطر على الأمريكيين ليس ظاهرة، وإنما هو نتيجة حتمية لأسلوب الحياة في هذا البلد الحضاري الكبير، فالأسرة مفكَّكة.. والأبناء ينسلخون عنها في سن مبكِّرة قبل أن يبلغوا العشرين في أغلب الحالات.. وهي فترة خطرة حرجة في سن الشباب الذي يجد نفسه فجأة قد أصبح حُرًّا بعيدًا عن نفوذ الوالدين.. وفي هذه الحرية المبكرة يضل الشباب الطريق، أو تنحرف نسبة كبيرة منهم.

والانسلاخ عن الأُسرة يعني بالتالي الخروج على المجتمع الذي يعيش فيه. والنتيجة شعور بالضياع والوحدة.. والإنسان في وحدته يتحوَّل إلى حيوان أو يتحوَّل إلى عبقري.. فهو في الحالتين يريد أن يُثبت وجوده، محاربة الانحراف ـ إذن ـ لا بد أن تبدأ في المجتمع الصغير الذي ينشأ فيه، ثم المجتمع الكبير الذي سيخرج إليه ويواجه العالَم.. إذا استطاع الأمريكيون الإبقاء على الصلة القوية التي تربط أفراد الأسرة الواحدة، نجحوا في القضاء على الجريمة التي زلزلت ضمير أمة تعيش في قمة الحضارة والتقدم.

على أن الجريمة لم تعُد مقصورة على أمريكا الشمالية، بل تعدتها إلى أوروبا الغربية، بنسب مختلفة، حتى روسيا نفسها، بعد زوال الحكم الشيوعي، ودخول عصر الانفتاح، انتشرت فيها الجرائم، وشاع الخوف، وأصبح يقال للسائحين من التحذيرات ما يقال في أمريكا تمامًا، بالإضافة إلى التحذير من الفتيات الجميلات اللاتي يبتسمن للسياح في المحلَّات أو الطرقات، فكثيرًا ما تستخدمهن عصابات الإجرام في أغراضها.

QaradawiBooks.com

تلك هي آفـات الحضـارة الغربية المعاصـرة، وآثارهـا في حياة أصحابها، كما تحدثت عنها الوقائـع، وكما تكلَّمت الأرقام، وكما دلَّت الشواهد القاطعة.

إنها الحضارة التي يريد بعض كُتَّابنا أن يجعلوها «حضارة عالمية» مع أنها غربية المولد والمنشأ والمسيرة، غربية الوجهة والفلسفة والسلوك، بل تكاد تكون الآن حضارة أمريكية، بغلبة الطابع الأمريكي بخصائصه عليها في جوانـب عدة، حتى إن بعض بلاد أوروبـا الغربية لتقاوم هذا الغزو الثقافي الأمريكي لها، كما رأينا ذلك أخيرًا في فرنسا.

إنها ليست متقدِّمة إلا في الجانب المادي، فلا يجوز وصفها بالتقدم بإطلاق، كما لا يجوز وصفنا بالتخلُّف بإطلاق.

فنحن متخلِّفون عن القوم ماديًّا، هذا صحيح، ولكنَّنا متقدِّمون عنهم كثيرًا في جوانب أخرى من الحياة أكثر أهمية وضرورة لسعادة الإنسان، إن كان هم الإنسان هو السعادة وحدها، إنها الجوانب الروحية والأخلاقية والإنسـانية، وهي الجوانب التي بها غدا الإنسان إنسانًا مُكرَّمًا مُستخلَفًا في الأرض، مُسخَّرًا له كل ما في هذا الكون.

كلمة حق من كاتب حر:

ويسـرُّني أن أنوِّه هنا بالمقال القيم الذي كتبه الدكتور جلال أحمد أمين في جريدة «الأهالي» في ١٩٩٤/٩/٢١م حول «مؤتمر السكان والشعور بالعار» وفيه يقول:

«كنت كلما زرت أوروبا أو أمريكا خلال الثلاثين عامًا التي انقضت على دراستي للدكتوراه «في بريطانيا» تأكد لدي هذا اليقين: أن المسألة

QaradawiBooks.com

ليست مسألة تقدُّم وتخلُّف، بل شـــيء آخر، كان هذا يمثل ـ في جانب منه ـ خيبة أمل في ذلك المثل الأعلى الـــذي كنا نحاول احتذاءه (يعني تقليد النموذج الغربي في التنمية)، ولكنـــه كان يمثل أيضًا تحررًا عقليًّا ونفسيًّا حقيقيًّا. فقد تخلصتُ من خرافة كبيرة كانت تعشعش في عقلي، والأهم من ذلـــك أني تخلصتُ ـ أو كـــدتُ أتخلـــص ـ تمامًا من ذلك الشعور بالعار.

نعم نحن فقراء، ولكن هذا لا يعني أننا متخلِّفون! هم متقدِّمون عنا في التكنولوجيا، أي في إنتاج الســـلع والخدمات، أو بالأحرى: في فن إنتاج سلع وخدمات معينة دون غيرها، ولكن في الحياة أشياء أخرى غير إنتاج السلع والخدمات، بل إن هناك سلعًا وخدمات أخرى لا ينتجونها، أو لا يفضلونها، وقد تكون أفضل لنا.

لا بد إذن أن نميِّز ـ هكذا اتضح لي ـ بين الفقر والتخلف. نعم نريد التخلص من الفقـــر، وعلاجه زيادة أنواع معينة من الســـلع والخدمات، وليس أي سلعة أو خدمة.

أما التخلف.. فأنا أعرف الآن ما هو؟ إنه ليس إلا هذا الشعور بالعار، فأنت لست متخلفًا إلا بمقدار شـــعورك بالعار إزاء هؤلاء الذين يسمون أنفسهم متقدمين، وسوف تظل متخلفًا مهما زاد متوسط دخلك، ومهما ارتفع معدل نموك، ومهما زاد ما تملك من ســـلع وخدمات، طالما أنك تشعر بالعار، لأنك لا تملك ما يملكونه!

بل لعل أول شـــروط النهضة، هو التخلص من هذا الشعور بالعار، وإلا كانت النتيجة إذا استمررنا نرفع شـــعار التنمية، ونفهمه على النحو الذي نفهمه الآن، إذا استمررنا نسمِّي أنفسنا متخلِّفين، ونحدد هدفنا بأنه

QaradawiBooks.com

اللحاق بمستوى المعيشة في الغرب! ستكون النتيجة: أننا ـ بعد خمسين عامًا أخرى من التنمية ـ سيكون لدينا محلات «ماكدونالد» أكثر، و«كوكا كولا» أكثر، و«بلو جينز» أكثر، وأيضًا سلاح أكثر، وإعلانات أكثر، وأفلام جريمة أكثر، وشذوذ جنسي أكثر، ومخدرات أكثر! وستكون المرأة المصرية أو العربية ـ خلال هذه الفترة ـ قد حققت بالطبع نجاحًا باهرًا في الحصول على مساواتها بالرجل، كلاهما يتمتع بنفس مستوى المعيشة، وبحرية الحصول على نفس الكمية من الماكدونالد، والبلو جينز، والمخدرات، والإعلانات، وكلاهما له نفس النصيب في المساهمة في الجريمة والشذوذ الجنسي!».

إنها كلمة حق من رجل درس الدكتوراه في الاقتصاد من بريطانيا، وتزوَّج من إنجليزية، ويعمل أستاذًا للاقتصاد في الجامعة الأمريكية في القاهرة، ولكنه تحرَّر عقليًّا ونفسيًّا من خرافات عبيد الحضارة الغربية والفكر الغربي، فقال ما قال، ونِعْم ما قال.

* * *

نسخة مجانية
غير مرخص للطباعة

الفصل الثالث

عقلاء رجال الغرب يدقُّون أجراس الإنذار

- تمهيد.
- تحذيرات رجال العلوم.
- تحذيرات رجال الفلسفة والفكر.
- تحذيرات رجال الأدب.
- تحذيرات رجال السياسة.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تمهيد

خفوت صوت الإيمان في عصرنا:

لم يعد خافيًا أن جمرة الإيمان في ظل حضارة العصر قد فقدت كثيرًا من توهُّجها واشتعالها في القلوب، إن لم تكن قد انطفأت تمامًا في قلوب كثيرة، أماتتها المادية، أو أمرضتها الغفلة والشهوة، وأن صوت الإيمان قد خفت في حنايا الضمائر، ولم يعد له من السلطان والتأثير ما كان من قبل.

دقُّ أجراس الإنذار من خطر الحضارة المادية:

لقد أفاقت البشرية على أخطار تهدِّد مسيرتها الحضارية، بل تهدِّد وجودها ذاته. وشعرت البشرية كلها أنها في أمسِّ الحاجة إلى الإيمان بجوار العلم، بل قبله، وإلى الروح إلى جنب المادة ـ بل أسبق منها ـ وقد بدأ العالَم كله يعي ويحس بخطر الاستغراق في العلم المادي واستخداماته «التكنولوجية» بعيدًا عن الله تعالى، وعن الإيمان به، وبحسابه ولقائه، والاهتداء بهداه.

لقد صنع الإنسان الآلة ليُسخِّرها لمنفعته، ثم أصبح بعد مدة من الزمن عبدًا لها!

تمامًا كما صنع الإنسان الجاهلي الصنم، نحته بيده، ثم غدا بعد ذلك أمامه عابدًا خاشعًا، يسأله الرزق في السِّلْم، والنصر في الحرب!

إن علماء الغرب أنفسهم هم أول من شعر بخطر هذه «الآلية» التي جعلت الحياة الإنسانية لفظًا بلا معنى، وجسدًا بلا روح.

ومنذ عقود من السنين ونحن نسمع أجراس الإنذار، يدقُّها علماء ومفكرون كبار من داخل العالَم الغربي، أحسُّوا بالخطر، فلم يسعهم إلا أن يُنبِّهوا ويُنذروا قومهم لعلهم يحذرون.

الجميع يشعرون بخطر المادية المُحْدِق:

لقد تفاقم الخطر، وتطاير الشرر: خطر المادية، وشرر الحياة الآلية، ولم يبق ذو عقل إلا أعلن شكواه من هذا البلاء الواقع والمتوقع، الظاهر والكامن، كمون النار في البركان، يوشك أن ينفجر في لحظة من اللحظات، فيأتي على الأخضر واليابس.

يستوي في ذلك العلماء والأدباء، والفلاسفة والمفكِّرون، والسياسيُّون والإداريُّون. وسنقتصر في هذا الباب على الغربيِّين وحدهم، لن ننقل هنا شهادات مثل محمد إقبال، أو أبي الأعلى المودودي، أو حسن البنا، أو أبي الحسن الندوي، أو سيد قطب، أو وحيد الدين خان، أو محمد الغزالي، أو محمد قطب، أو غيرهم من أقطاب المسلمين. مكتفين بشهادات أهل الغرب، حتى يكون الشاهد على الحضارة من أهلها.

* * *

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

تحذيرات رجال العلوم

من هؤلاء العلامة «ألكسيس كاريل» أحد أقطاب العلم، والحاصل على جائزة «نوبل» في العلوم، وصاحب الكتاب القيم الشهير «الإنسان ذلك المجهول» الذي نقد فيه الحضارة الغربية نقدًا علميًّا رصينًا، قائمًا على منطق العلم ومسلماته.

نقد ألكسيس كاريل:

يقول «ألكسيس كاريل» في كتابه ذاك: «إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب؛ لأنها لا تلائمنا، فقد أُنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ إنها تولَّدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم، ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أُنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا»[1].

«لقد أُهمل تأثير المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعمال، إهمالًا تامًّا عند تنظيم الحياة الصناعية، إذ إن الصناعة العصرية تنهض على مبدأ «الحد الأقصى من الإنتاج بأقل التكاليف»، حتى يستطيع فرد

(١) الإنسان ذلك المجهول صـ ٣٧.

أو مجموعة من الأفراد أن يحصلوا على أكبر مبلغ مستطاع من المال، وقد اتَّسع نطاقها دون أي تفكير في طبيعة البشَر الذين يديرون الآلات، ودون أي اعتبار للتأثيرات التي تُحدثها طريقة الحياة الصناعية التي يفرضها المصنع على الأفراد وأحفادهم»[١].

«يجب أن يكون الإنسان مقياسًا لكل شيء، ولكن الواقع هو عكس ذلك، فهو غريب في العالَم الذي ابتدعه، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه؛ لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته.. ومن ثَمَّ فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية.. فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة، لا بالنسبة لقوامنا، ولا بالنسبة لهيئتنا.. إننا قوم تعساء، ننحط أخلاقيًّا وعقليًّا.. إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها، ولكنها لا تدرك ذلك، إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التي شيَّدها العلم حولها.. وحقيقة الأمر أن مدنيتنا مثل المدنيات التي سبقتها، أوجدت أحوالًا معيَّنة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة، وذلك لأسباب لا تزال غامضة.. إن القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية.. إننا ضحايا تأخُّر علوم الحياة عن علوم الجماد. العلاج الوحيد الجائز لهذا الشر المستطير هو معرفة أكثر عمقًا بأنفسنا»[٢].

(١) الإنسان ذلك المجهول صـ ٣٨.

(٢) المصدر السابق صـ ٤١ ـ ٤٢.

QaradawiBooks.com

وفي موضع آخر: «إننا لن نصيب أية فائدة من زيادة عدد الاختراعات الميكانيكية، وقد يكون من الأجدى أن لا نضفي مثل هذا القدر الكبير من الأهمية على اكتشافات الطبيعة والفلك والكيمياء، فحقيقة الأمر أن العلم الخالص لا يجلب لنا مُطلقًا ضررًا مباشرًا، ولكن حينما يسيطر جماله الطاغي على عقولنا، ويستعبد أفكارنا في مملكة الجماد، فإنه يصبح خطرًا، ومن ثَمَّ يجب أن يحوِّل الإنسان اهتمامه إلى نفسه، وإلى السبب في عجزه الخُلُقي والعقلي، إذ ما جدوى زيادة الراحة والفخامة والجمال والمنظر وأسباب تعقيد حضارتنا، إذا كان ضعفنا يمنعنا من الاستعانة بها فيما يعود علينا بالنفع؟ حقًّا إنه لممَّا لا يستحق أي عناء أن نمضي في تجميل طريق حياة تعود علينا بالانحطاط الخُلُقي، وتؤدي إلى اختفاء أنبل عناصر الأجناس الطيبة، ومن ثَمَّ فإنه من الأفضل كثيرًا أن نوجِّه اهتمامًا أكثر إلى أنفسنا، من أن نبني بواخر أكثر سرعة، وسيارة تتوافر فيها أسباب الراحة، وأجهزة راديو أقل ثمنًا»[1].

وفي خواتيم كتابه ينادي قومه بما يُشبه الإنذار بضرورة إعادة بناء الإنسان على أُسس جديدة، فيقول: «يجب علينا الآن أن نُعيد إنشاء الإنسان ـ في تمام شخصيته ـ الذي أضعفته الحياة العصرية ومقاييسها الموضوعة. كذلك يجب أن يحدد الجنسان مرة أخرى. فيجب أن يكون كل فرد إما ذكرًا أو أنثى، فلا يُظهر مطلقًا صفات الجنس الآخر العقلية وميوله الجنسية وطموحه. وبدلًا من أن يُشبه الآلة التي تُنتج في مجموعات، يجب على الإنسان ـ بعكس ذلك ـ أن يؤكد وحدانيته،

(١) الإنسان ذلك المجهول صـ ٥٦، ٥٧.

QaradawiBooks.com

ولكي نعيد تكوين الشخصية، يجب أن نحطم هيكل المدرسة والمصنع والكتب، وأن ننبذ مبادئ الحضارة التكنولوجية نفسها.

إن مثل هذا التغيير ليس غير عملي على الإطلاق.. وتجديد التعليم يحتاج بصفة خاصة إلى قلب الأهمية النسبية المنسوبة إلى الأبوين والمدرِّسين في تكوين الطفل.. إننا نعلم أنه من المستحيل أن ننشئ أفرادًا بالجملة، وأنه لا يمكن اعتبار المدرسة بديلًا عن التعليم الفردي، إن المدرسين غالبًا ما يؤدون عملهم التهذيبي كما يجب، ولكن النشاط العاطفي والجمالي والديني يحتاج أيضًا إلى أن يُنمَّى، فيجب أن يدرك الوالدان بوضوح أن دورهما حيوي، ويجب أن يُعَدّا لتأديته.. أليس من العجيب أن برامج تعليم البنات لا تشتمل بصفة عامة على أية دراسة مستفيضة للصغار والأطفال وصفاتهم الفسيولوجية والعقلية؟ يجب أن تُعاد للمرأة وظيفتُها الطبيعية التي لا تشتمل على الحمل فقط، بل أيضًا على رعاية صغارها»[١].

وفى موضع آخر يقول: «يجب أن نحرِّر الإنسان من الكونيات التي خلقها علماء الطبيعة والفلك.. تلك الكونيات التي حُبِس فيها الإنسان منذ عصر النهضة، إذ على الرغم من ضخامته الهائلة، فإن عالَم المادة أضيق من أن يتسع للإنسان، فهو كبيئته الاقتصادية والاجتماعية، لا يلائمه»[٢].

ويختم الكتاب كله بقوله: «لقد حان اليوم الذي نبدأ فيه العمل لتجديد أنفسنا.. ولكننا لن نضع برنامجًا؛ لأن البرنامج قد يخنق الحقيقة

(١) الإنسان ذلك المجهول صـ ٣٥٣.

(٢) المصدر نفسه صـ ٣٥٩.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحية خلف درع صُلب، إنه سيمنع انبثاق غير المتنبَّأ به، ويحبس المستقبل داخل حدود عقلنا.

يجب أن ننهض ونمضي.. يجب أن نحرِّر أنفسنا من التكنولوجيا العمياء، ونفهم تعقد طبيعتنا وخصبها.. لقد حدَّدت علوم الحياة أهدافها للإنسانية، ووضعت تحت تصرُّفها الوسائل المؤدِّية إلى بلوغها، ولكننا ما زلنا غارقين في عالَم خلقته علوم الجماد، دون أي احترام لقوانين نموِّنا، في عالَم لم يُصنع لنا، لأنه ولد بسبب غلطة ارتكبها عقلنا، وبسبب جهلنا بذاتنا الحقيقة.

وليس في استطاعتنا أن نكيف أنفسنا بالنسبة لهذا العالَم.. ومن ثَمَّ فنثور عليه.. سنقلب قيمه، وسنعيد إنشاءها تبعًا لاحتياجاتنا الحقيقية.. إن علم الإنسان يمدنا اليوم بقوة لتنمية إمكانيات جسمنا.. فنحن نعرف الآليات السِّرِّية لنشاطنا الفسيولوجي والعقلي، كذا أسباب ضعفنا.. ونعرف كيف عدَوْنا على القوانين الطبيعية، ونعرف لماذا عوقبنا، ولماذا فقدنا طريقنا في الظلام.. ولكن مهما يكن من أمر، فإننا نرى خلال ضباب الفجر وعلى الضوء الباهت طريقًا قد يقودنا إلى الخلاص.

لأول مرة في تاريخ الإنسانية، تستطيع حضارة متداعية أن تميِّز أسباب انحلالها، ولأول مرة تجد مثل هذه الحضارة قوة العلم الهائلة تحت تصَرُّفها، تُرى هل تُستخدم هذه المعرفة وهذه القوة؟ إنها أملنا الوحيد في الفرار من المصير المشترك لجميع حضارات الماضي العظمى.. إن مصيرنا بين أيدينا.. فيجب أن نسير قُدُمًا في الطريق الجديد»[1].

(١) الإنسان ذلك المجهول صـ ٣٥٧.

نقد رينيه دوبو:

وهذا إنذار آخر أسجِّله هنا بنقل فقرات من كتاب مهم آخر ظهر في السبعينيات لعالِم من كبار علماء البيولوجيا، ومن حملة جائزة نوبل ـ أيضًا ـ ويُعتبر كتابه امتدادًا لكتاب «ألكيس كاريل»، بعد نحو ثلث قرن من الزمان.

هذا الكتاب هو كتاب (So Human An Animal) للبروفسور «رينيه دوبو» (الأمريكي الجنسية، الفرنسي الأصل) الذي ترجمه إلى العربية الدكتور نبيل صبحي الطويل تحت عنوان «إنسانية الإنسان»[1]. والكتاب ـ برغم ما فيه من نقاط ضعف ومآخذ ـ خليقٌ أن يُقرأ، وما أنقل هنا دليل على الباقي، يقول «دوبو»: «نحن ندَّعي أننا نعيش في عصر العلم، إلا أن الحقيقة هي أن الميدان العلمي كما يُدار الآن، ليس فيه توازن يسمح للعلم بأن يكون ذا فائدة تُذكر في إدارة أمور الإنسان؟ لقد جمعْنا جسمًا هائلًا من المعلومات حول المادة، وتقنية قوية لضبط واستغلال العالَم الخارجي.. ومع ذلك لا يزال جهلنا فاضحًا بالآثار التي قد تنتج عن اللعب بمهاراتنا هذه، ونتصرف في غالب الأحيان وكأننا آخر جيل يعيش على هذه الأرض.

لقد اكتسبنا معلومات كثيرة عن آلية الجسم، وبعض المهارة في ضبط تفاعلاته وتصليح عيوبه، ولكن، بالمقابل، نحن نكاد لا نعلم شيئًا مطلقًا عن الطرق التي يحوِّل بها الإنسان قابلياته الموروثة ليهندس بها شخصيته الفردية، فبدون هذه المعلومات لن تفيد الاختراعات الحديثة التقنية والاجتماعية الأهداف الإنسانية.

(١) نشرته مؤسسة الرسالة، بيروت.

QaradawiBooks.com

إن الحياة الشاذة التي يعيشها عامة الناس الآن تخنق وتعطل التفاعلات الحيوية الضرورية لسلامة الإنسان العقلية، ونمو الإمكانات الإنسانية.

إن كل المفكِّرين قلقون على مستقبل الأبناء الذين سيقضون حياتهم في بيئات اجتماعية ومحيطية سخيفة عابثة باطلة، نخلقها نحن له بدون أي تفكير، وأكثر ما يُزعج هو علمنا بـأن الخصائص العضوية والفكرية للإنسـان تخططها اليوم البيئات الملوثة، والشـوارع المتراصة، والأبنية الشـاهقة، والخليط الحضَري المتمرِّد، والعادات الاجتماعية التي تهتم بالأشياء، وتهمل البشر»[١].

«الإنسـان العصري قلق حتى ولـو كان في زمن السـلم، وفي جو البحبوحـة الاقتصاديـة؛ لأن عالـم التكنولوجيا الذي يشـكل محيطه المباشـر، والذي فصله عن عالَم الطبيعة الذي تطوّر الإنسان فيه أصلًا، فشل في توفير حاجات الإنسان الأساسية التي لم تتغير ولم تتبدَّل، ومن نواحٍ كثيرة يشبه إنسـان العصر «الحيوان البري» الذي يقضي حياته في حديقة الحيوانات، فالإنسان الآن كهذا الحيوان.. يتوفر له الغذاء الكافي والحمايـة الكافية من القسـوة، ولكنه يُحـرم من المثيـرات الطبيعية الأساسية للعديد من وظائفه الجسدية والفكرية، فالإنسان اليوم ليس فقط غريبًا عن أخيه الإنسـان وعن الطبيعة، بل الأهم بكثيـر هو أنه غريب معزول عن أعماق ذاته»[٢].

«منذ قرنين تقريبًا والإنسـان الغربي يعتقد أن خلاصه سـيأتي عن طريـق الاكتشـافات التكنولوجيـة، ولا جدال فـي أن المكتشـفات

(١) إنسانية الإنسان صـ ٣١.

(٢) المصدر السابق صـ ٤٩.

التكنولوجية زادت من غناه المادي وحسنت صحته العضوية.. إلا أنها لم تجلب له بالضَّرورة الغنى والصحة اللذين يولدان السعادة»[١].

«وتواجهنا العلوم المادية بتناقضات لا حلول لها عندما نحاول فهم حدود الفضاء، أو بدايات الزمن، أضف إلى ذلك أن الإنجازات العملية تثير بصورة عامة مسائل أخلاقية يعتبرها كثير من العلماء خارج نطاق كفاءاتهم، ويشيرون إلى أن العلم والتكنولوجيا أدوات ووسائل ليس لها أخلاق، ويمكن استعمالها لخير البشرية أو لدمارها، والاعتقاد بأن العلم قادر على حل أكثر المشاكل العملية أمر يكذبه الوعي المتزايد بأن تكنولوجيا العلم تثير مشاكل جديدة في محاولاتها لحل المشكلات القديمة»[٢].

وإذا سُمح للتكنولوجيا بالنمو دون مراقبة مناسبة، فقد تصبح قوة مُخرِّبة تؤثر على العلاقات الدقيقة التي بُنيت عليها المدنيَّات في الماضي، كما تنبَّأ الكاتب الإنكليزي «أ. م. فورستر» في كتابه «توقف الآلة»: «ستسير التكنولوجيا قُدُمًا.. ولكن ليس على خطوطنا التي رسمناها لها وستتقدم ولكن ليس نحو أهدافنا»!

وأكثر المسائل التي تثيرها التكنولوجيا ـ أساسًا ـ اجتماعية سياسية اقتصادية أكثر مما هي علمية في طبيعتها، أضف إلى ذلك أن التكنولوجيا غير قادرة ـ نظريًّا ـ على التهرب من الرقابة البشرية، إلا أنها في الواقع تسير في طريق مستقل لسبب بسيط، هو أن مجتمعاتنا لم تضع بعدُ توجيهات وضوابط للتحكم فيها بالأسلوب الفعَّال المناسب.

(١) إنسانية الإنسان صـ ١٨٦.

(٢) المصدر نفسه صـ ٢٢٠.

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

وكل المجتمعات المتأثِّرة بمدنيَّة الغــرب تتبع «توراة التنمية» كعقيدة، وتدور في دائرة تشبه «حلقات ذكر الدراويش»، وتقول هذه «التوراة»: أنتجوا أكثر، لكي تســتهلكوا أكثر، ثم لكي تنتجوا أكثر! ولا يحتاج الإنسان لأن يكون عالِم اجتماع حتى يدرك أن هذه فلسفة مريضة، مجنونة، فلن يستطيع تسارع النمو الاستمرار طويلًا، فضلًا عن الاستمرار الدائم إلى ما لا نهاية.

والواقع أن هــذا النمو قد يتوقف في فترة أقصــر مما يتوقعه الوعي النامي بين جمهور المثقفين، والذي يعتقد أن التكنولوجي بدون ضوابط يضُرُّ بصفات «الكيف» لحياة الإنسان.

وفى حديث بعنوان: «هل تستطيع أمريكا التغلب على خرافة النمو؟» كان سكرتير وزارة الداخلية «إســتيوارت. ل. أودال» شجاعًا عندما قال: إنه من السهل اعتبار أمريكا التي صنعها الإنســان.. كارثة على مستوى القارة، لقد ذكَّر «أودال» مســتمعيه: «إننا نملك أكبر عدد من الســيارات وأسوأ ساحات «الخُردة» بالمقارنة لأية دولة أخرى في العالَم! نحن أكثر سكان العالَم تنقُّلًا، ونتحمل أكبر قدر من الازدحام! ونولِّد أكبر قدر من الطاقة، وفي أجوائنا أكثر الهواء تلوثًا فــي العالَم»، ولقد نقل عن رئيس بلدية «كليفلند» قوله مازحًا: «إذا لم نكن واعين فســيذكرنا التاريخ على أســاس أننا الجيل الذي رفع إنســانًا إلى القمر.. بينمــا هو غائص إلى ركبتيه في الأوحال والقاذورات»[1]!

كلمات هنري لنك:

ويقول الدكتور «هنري لنك» طبيب النفس الأمريكي الشــهير، معارضًا للذين ينكــرون الإيمان بالغيب، باســم العلــم واحتــرام

(١) انظر: إنسانية الإنسان صـ ٢١٩ ـ ٢٣١، فصل: التخلص من أسطورة النمو والتنمية.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الفكـر، مبيِّنًا أن العلم وحـده لا يستطيـع أن يحقِّق للإنسان أسـباب السعـادة الحقة:

«والواقع أنه يوجد الآن في كل ميدان من ميادين العلم من الظواهر ما يؤجِّج شُــعلة ذلك الضلال، وأعني به تعظيم شأن الفكر، ومع ذلك كان علماء النفس هم الذين توصَّلوا إلى أن الاعتماد المطلق على التفكير فحسْب، كفيلٌ بهدم سعادة الإنسان، وإن لم يقوِّض دعائم نجاحه، ثم إن إماطة اللثام عن هذا الاكتشــاف لــم تتم إلا عن طريــق تجارب هؤلاء العلماء مع الناس، واختباراتهم العلمية التي أجرَوْها على الآلاف، وبقي أن أقول: إن الوصول إلى هذه المكتشفات قد تمَّ بالنسبة لعلاقتها بطرق التعليم والدين والشخصية وفلسفة الحياة عمومًا.

فلن نهتدي إلى حلٍّ شافٍ لمشكلات الحياة العويصة، ولن ننهل من مورد الســعادة عن طريق تقــدُّم المعلومات والمعرفــة العلمية وحدها، فارتقاء العلم معناه ازدياد الارتباك واضطراد التخبُّط، وما لم يتم توحيد هذه العلوم كلها تحت راية حقائق الحيــاة اليومية الواضحة وإخضاعها، فلن تؤدي هذه العلوم إلى تحرير العقول التــي ابتدعتها وابتكرتها، بل ســتقود حتمًا إلى انهيار هذه العقول وتعفُّنها، كما أن هذا التوحيد لا بد أن يأتي عن طريق آخر غير طريق العلم، وأعني به طريق الإيمان»[1].

* * *

(١) العودة إلى الإيمان صـ ٨١ ـ ٨٢، لهنري لينك، بقلم ثروت عكاشة، نشر دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٦٤م. وقد تُرجم الكتاب إلى العربية في أوائل الخمسينيات، وقد ذكر مترجمه أنه طبع في أمريكا (٤٨) مرة.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

تحذيرات رجال الفلسفة والفكر

أما الفلاسفة والمفكرون الذين حذَّروا من مادية الحضارة الغربية، وإغراقها في الآلية الصناعية فهم كثيرون.

تحذير جون ديوي:

من ذلك تحذير الفيلسوف الأمريكي الشهير «جون ديوي» الذي قال: «إن الحضارة التي تسمح للعلم بتحطيم القيم المتعارف عليها، ولا تثق بقوة هذا العلم في خلق قيم جديدة؛ لهي حضارة تدمِّر نفسها بنفسها»[(١)].

تحذير توينبي:

ومنهم المفكر الكبير المؤرخ البريطاني المعاصر «توينبي»، إذ ينقل عنه الكاتب الأمريكي «كولن ولسون» مقولته: «لقد أغرت فنون الصناعة ضحاياها، وجعلتهم يسلِّمونها قياد أنفسهم ببيعها «المصابيح الجديدة» لهم مقابل «المصابيح القديمة»، لقد أغرتهم فباعوها أرواحهم، وأخذوا بدلًا منها «السينما» و«الراديو» وكانت نتيجة هذا الدمار الحضاري الذي سببته تلك «الصفقة الجديدة» إقفارًا روحيًّا وصفه «أفلاطون» بأنه «مجتمع الخنازير»، ووصفه «ألدوس هكسلي» بأنه «عالم زاه جديد»!

(١) نقلًا عن إنسانية الإنسان لرينيه دوبو صـ ٤٣.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ويأمل توينبـــي في نهاية البحـــث بأن خلاص الغـــرب لا يكون إلا بالانتقال من الاقتصاد إلى الدين، ولكنه ـ كما يذكر «ولسون» ـ لا يخبرنا كيف ســـيتم هذا الانتقال، وإنما يؤكد قائلًا: «إن الغربي يستطيع بواسطة الدين أن يتصرَّف تصرفًا روحيًّا يضمن سلامته بالقوة المادية التي ألقتها بين يديه ميكانيكية الصناعة الغربية»[١].

تحذير جارودي:

ولعل أحدث رجال الفكر من نقَّاد الحضـــارة الغربية المادية ومن أهلها هو المفكر الفرنسي الشهير «روجيه جارودي»، الذي انتهى به نقده للحضارة الغربية إلى هداية الإسلام، ولنســـتمع إليه يقول في محاضرة له في جامعة قطر منذ عدة ســـنوات: «بفضل تخصيص (٦٠٠) مليون دولار سنة (١٩٨٢م) للإنفاق على التســـلُّح أصبح كلُّ ســـاكن من ســـكان الأرض تحت تهديد ما يعادل أربعة أطنان مـــن المتفجرات، وصارت الموارد والثروات في نفس الســـنة موزَّعة بشـــكل أدى إلى هلاك (٥٠) مليون نســـمة في العالَم الثالث بسبب المجاعة وسوء التغذية! ومن الصعب أن نسمِّي ذلك المسار التاريخي الذي سلكته الحضارة الغربية تقدُّمًا، والذي أصبحت على أثره ـ ولأول مرة في تاريخ الملحمة الإنســـانية الذي يمتد على مدى مليوني أو ثلاثة ملايين سنة ـ قادرة تقنيًّا على محو كل أثر للحياة الاجتماعية على وجه البسيطة.

على الصعيد الاقتصادي يسود مفهوم النمو، أي تلك الرغبة العمياء في زيادة الإنتاج أكثر وأكثر، بسرعة متزايدة، وإنتاج أي شيء صالحًا كان أو غير صالح، مضرًّا أو مسبِّبًا للهلاك.

---

(١) سقوط الحضارة لكولن ولســـون صـ ١٦٤، ١٦٥، ترجمة أنيس زكي حسن، نشر دار الآداب، بيروت، ط٣، ١٩٨٢م.

QaradawiBooks.com

على الصعيد السياسي، قامت علاقات اجتماعية داخلية وخارجية يطغى عليها العنف، أي الصراع بين مصالح الأفراد والطبقات والأمم، ونزعتهم إلى القُوى والهيمنة.

على الصعيد الثقافي الذي يتميَّز بفُقدان المعنى والغاية، قامت تقنية غايتها التقنية لذاتها، وعلم يهدف إلى العلم ذاته، وفنٌّ لا يهدف إلا للفن، وحياة لا تهدف إلى شيء.

وفي مستوى العقيدة ضاع مفهوم التَّسامي والعلو، أي ذلك البُعْد الإنساني الحقيقي للبشر.

إن الثقافة «الفرعونية» التي تعتمد عليها هذه الحضارة تدَّعي حصر الحياة في الضَّرورة والصُّدفة، كما يدَّعيه أحد علماء الأحياء، أو إلى عاطفة لا طائل من ورائها مثلما كتب أحد الفلاسفة، أو إلى اللامعقول كما أعلنه أحد الروائيِّين، أي انعدام المعنى، وموت الإله، وموت الإنسان، وموت كل شيء، مثلما يردِّده علينا دعاة العدم، والمتنبِّئون به، وليس هناك من حضارة أغفلت بصفة كلية التساؤل عن معنى الحياة والموت، مثلما هو الشأن بالنسبة للحضارة الغربية الحالية، فهذه الثقافة «الفرعونية» تعتمد على مبادئَ أربعٍ زجَّت بنا في ظرف خمسة قرون في طريق مسدود، لو استمررنا فيه فسوف يؤدي إلى انتحار الكون بأكمله:

* الفصل بين العلم والحكمة.. أي الفصل بين الوسائل والغايات.

* إخضاع كل حقيقة واقعية إلى المفاهيم الكمية، مستبعدين بذلك الحب والإيمان والمعنى.

* الفردانية التي تجعل من الأفراد أو المجموعات محور ومقياس كل شيء، وتعتبر كل «نظام» توازنًا مؤقتًا بين أطماعهم المتنافسة.

QaradawiBooks.com

* إنكار التَّسامي... أي إمكانية «الاكتفاء» بالنسبة لحتميات نمو يقتصر على الكم، ويستبعد الخلق والحرية والأمل».

وقد تجلَّى نقد جارودي للحضارة المعاصرة ونظامها العالَمي الجديد الذي يجسد نهمها، ورغبتها في السيطرة: سيطرة أثرياء الشمال تقودهم أمريكا على فقراء الجنوب في العالَم، سيطرة فرعون وقارون وهامان على المستضعفين في الأرض. تجلَّى ذلك في تعليق «جارودي» على «مؤتمر السكان» الذي عُقد بالقاهرة (٥ ـ ١٣ سبتمبر ١٩٩٤م) تحت مظلَّة الأمم المتحدة، ونشرت الصحف العربية نُبَذًا من قوله، ونشرته كاملًا صحيفة الشعب ـ القاهرة في (١٩٩٤/٩/١٦م) وهذا نصُّه: «يشكل مؤتمر القاهرة الذي يجعل من الديمغرافيا في إفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا السبب الأساسي للأزمات التي تهدد العالَم (الافتقار إلى المواد الغذائية والماء والنفط، وقحط الأراضي وتلوث الكتلة الهوائية)، الحلف المقدس العُنصُري والتقنوقراطي بين الدول الأكثر غنى في العالَم (الولايات المتحدة وأوروبا واليابان) وبين حلفائهم (الأقليات الغنية التي تمسك بزمام السلطة في البلدان الفقيرة تحت رعاية البلدان الغنية) ضد الشعوب الأكثر فقرًا والأكثر حرمانًا والذاهبة ضحية ما يُزعم أنه «النظام الدولي الجديد» الذي يُبقي على الفوضى الاستعمارية القديمة ويزيد من خطورتها.

هؤلاء يعملون من أجل الوصول إلى مآربهم في ترسيخ فكرة «القنبلة الديمغرافية» في العقول، هؤلاء يقولون: إن الأرض لا تستطيع أن تُطعم سبعة بلايين ساكن حسب التوقعات لسنة ٢٠١٠م.

أما نحن فنقول: يفيد «برنامج الأمم المتحدة للتنمية» أنه في العام ١٩٩١م فيما يسيطر خُمس سكان الكرة الأرضية الأكثر غنًى على (٨٤,٧٪)

QaradawiBooks.com

من موارد العالَم الطبيعية ويستهلكها، فإن خُمس سكان القارة الأكثر فقرًا لا يملك سوى (١,٤٪) من هذه الموارد.

وهكذا يأتي الأغنياء إلى القاهرة، تحت غطاء الأمم المتحدة التي يتسلَّط عليها القادة الأمريكيون، ليقولوا للفقراء: لا تُنجبوا بعد الآن أطفالًا كي نستطيع الاستمرار في نهبنا وإفراطنا!

تجاه هذه الإبادة الجَماعية للأكثر حرمانًا نقول: إذا كنتم تزعمون أن الأرض لا تستطيع إطعام جميع الناس، فلماذا تجبر الولايات المتحدة أوروبا على تبوير (١٥٪) من أراضيها الصالحة للزراعة، لولا أنها تريد الإبقاء على صادرات وأسعار القمح الأمريكي على مستواها، وذلك على حساب الجياع من الناس؟

لماذا تصرفون مئات البلايين لتكديس جبال من اللحم والزُّبد والحليب المجفَّف في أوروبا إن لم تكونوا تريدون الإبقاء على أسعار هذه المواد الغذائية على مستواها، ومنعنا من الحصول عليها؟!

إنكم تستنفدون أفضل أراضينا في قارات ثلاث، وتحرمون أريافنا من سكانها؛ لأن زراعاتكم الخفيفة بما تستهلك من أسمدة كيماوية وتربيتكم الصناعية للمواشي تجعل فلاحينا يتكوَّمون في ضواحي عواصمنا في إطار من التنظيم المدني الجنوبي؛ لأنهم فقدوا إمكان العيش على أراضي أجدادهم.

هؤلاء يقولون: سنفقد محرِّك «نمونا» أي البترول.

ونحن نقول: تستهلك الولايات المتحدة ـ التي تمثل (٥٪) من سكان العالَم ـ ربع الإنتاج العالَمي لسياراتها ولسد حاجة (٩٠٠) لتر لكل

QaradawiBooks.com

هكتـــار أرض ومتطلباته من ماكينـــات زراعية وأدوية مبيدة للحشَـــرات وسماد مستعمل في الزراعة الصناعية.

وتنوي الولايات المتحدة من أجل الاستمرار في عربدتها الاستيلاء بالقوة على مناجم العالَم، في فنزويلا والمكســـيك، وكذلك في آســـيا، وفي الخليج والعراق والاتحاد الســـوفييتي الســـابق، وكذلك في القارة الإفريقية على مناجم نيجيريا والصومال، كما تحضِّر ذرائع الحرب ضد الأهداف المتبقية، أي إيران وليبيا والسودان.

هؤلاء يقولون: سينضب الماء في العالَم.

ونحن نقول: إن المال الذي فرضه تجار الأســـلحة لبيع (٢٣) طائرة حربية إلى باكستان من قِبل فرنسا، بوســـعه أن يُزوِّد بماء الشرب سكان باكستان ـ البالغ عددهم (٥٥) مليون نسمة ـ الذي يفتقرون إليه.

ونحن نقول: إن تخصيب الصحراء من داكار إلى مقديشـــيو بواسطة شبكة مضخَّات مائية تحركها حابسات مياه تعمل بواسطة الطاقة الشمسية يكلف (١,٥) بليون دولار، أي ما يعادل تكلفة بناء حاملة طائرات مجهَّزة بستٍّ وثمانين طائرة عاطلة عن الطيران، أي ما يعادل أيضًا عُشر المبالغ التي تجنيها الولايـــات المتحدة لبيع أســـلحتها إلى جـــلَّادي الجنوب أصحاب الامتيازات.

وهكذا تستمر شعوبنا في شرب ماء المستنقعات الملوث، كي تتمكن أحواض السباحة ذات التكلفة الباهظة أن تتكاثر لدى المترفين.

هؤلاء يقولون: إن الســـكان كثيري العدد في الجنوب يتســـببون في تلوث الهواء وازدياد حرارة المناخ.

QaradawiBooks.com

ونحن نقول: من الذي يتسبَّب في الفجوات الحاصلة في طبقة الأوزون إن لم تكن مداخن مصانعكم وأسطوانات انفلات الغاز من محرِّكات سياراتكم وعُبوَّات عطركم المضغوطة؟

إن واحدًا من سكان الولايات المتحدة يساهم في ازدياد حرارة الأرض ست مرات أكثر من مواطن واحد في المكسيك، و(١٩٠) مرة أكثر من مواطن واحد في إندونيسيا.

من الذي يقضي على رئة الأرض من خلال القضاء على الغابات في الأمازون، إن لم تكن شركات الولايات المتحدة وأوروبا واليابان المتعددة الجنسية، والتي تقطع الأشجار لبناء سدودها، متسببة بفيضانات تقضي على آلاف الهكتارات، بالإضافة إلى المستعمرين الجشعين الذين يقضون على الغابة، أو على واحاتها التي ينبت فيها الخضار من أجل تأمين تربيتهم الصناعية للمواشي؟!

هؤلاء يقولون: إن قارتنا مستغلَّة إلى أقصى حد، وما يهدد الكرة الأرضية بالموت ليس ولادة أبنائنا، ما يهدد بالموت هو نموذج نموِّكم الجنوني الذي ما فتئتم منذ خمسة قرون تحاولون فرضه على الكرة الأرضية بأسرها بواسطة الاستعمار في البداية، ومن ثَمَّ بواسطة صندوق النقد الدولي.

هذا النمو الذي يتمثَّل بإنتاجٍ متزايدٍ أكثر فأكثر لأي شيء، وبسرعة أكبر فأكبر، سواء أكان مفيدًا أو غير مفيد، مضرًّا أو مميتًا، مثل تجارة الأسلحة والمخدرات، وهذا تسمُّونه «تنمية»، خالطين بين «النمو» الكمِّي للأشياء وبين «التنمية النوعية» للإنسان.

QaradawiBooks.com

إن جميع سفسطاتكم ترتكز على هذه المسَلَّمة: أن الأرض لا تستطيع إطعام جميع الكائنات الحية. إذا استطعنا فرض نماذجنا المستوردة في الاستهلاك والتبذير من دون هدف إنساني، مسيَّرين ـ كما لو بقدرة قادر ـ بنواميس «التبادل الحر» العمياء، و«بوحدانية السوق» التي تطفئ لدى شبيبتكم الإيمان بالمستقبل، وبمعنى الحياة، وبالخلق المستمرّ للناس وثقافاتهم، ضاربين بعُرض الحائط التطور الداخلي الناشئ من أرض هؤلاء الذين تستغلونهم وتاريخهم وثقافتهم.

هؤلاء يقولون: «مؤتمر القاهرة» كما لو أن الأمم المتحدة ـ وهي عميلة لتنفيذ أوامر الدولة العظمى الباقية ـ تشكل حكومة للعالَم.

هكذا يزعمون أنهم يستطيعون الإبقاء إلى ما لا نهاية على الانحرافات التي تؤدي بنا إلى حرب إبادة، على مستوى الكرة الأرضية بمنع الناس من الولادة مثلما فعلوا ذلك في البرازيل، عندما عقَّموا خمسة وعشرين مليون امرأة، وملايين أخرى في آسيا وإفريقيا.

ونحن نقول: إن ما يهدم الأرض ويُفقد الحياة معناها ومستقبلها هو النظام الذي يريد فرض سيطرته على العالَم أجمع بواسطة «حرية التبادل» تجعل التبادل غير متكافئ أكثر فأكثر، وتجعل من وحدانية السوق التي تتيح المجال باستمرار ـ أو بديمُومة ـ ارتباط المستَعمَرين القدامى بمستعمِريهم السابقين.

لقد أعلن أحد رؤساء الولايات المتحدة خلال السنة الماضية: يجب خلق سوق واحدة من الألسكا إلى أرض النار. وأضاف وزير خارجيته: سوق واحدة من فانكوفر إلى فلاديفوستوك.

QaradawiBooks.com

ونحن نقول: إن مؤتمر القاهرة يجب ألا يسمح بصلْب الإنسانية على صليب من ذهب، لمحاولته الإبقاء على مثل علاقات القوة هذه بين أقلية مالكة وأكثرية مستغَلَّة بمنع هذه الأخيرة من نشر حياتها».

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

تحذيرات رجال الأدب

وأما الأدباء الذين نقدوا مادية الحضارة، وحذَّروا من سيطرتها على الإنسان بمقالاتهم أو أشعارهم أو رواياتهم وأقاصيصهم، فهم كثيرون من شتَّى المدارس ومختلف الاتجاهات.

وحسبي أن أذكر هنا ما كتبه أديب أمريكي كبير، هو «جون شتاينيك» وهو كاتب قصصي يُعَد في نظر كثيريــن أعظم كُتَّاب القصة في أمريكا، وذاك في خطاب أرســله إلى صديقه «أدلاي ستيفنسون» مرشح الحزب الديمقراطي لرئاسة الجمهورية لسنة (١٩٥١م) و(١٩٥٦م).

وخلاصة الخطاب كما نشره الأســتاذ أحمد بهاء الدين في صحيفة «الأخبار» القاهرية[١]:

«إن مشــكلة أمريكا هي ثراؤها، وأن لديها أشياء كثيرة، ولكن ليس لديها رســالة روحية كافية. وقال: لو أنني أردتُ أن أُدمِّر شــعبًا، فإنني أعطيه أكثر مما يريد، فهذه الوفرة تجعله جشــعًا تعيسًا مريضًا! إن شعبنا لا يمكن أن يعيش طويلًا على الأُسس الحالية لحياته.

(١) صحيفة الأخبار المصرية بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٦٠م.

QaradawiBooks.com

إننا في حاجــة إلى ضربة قوية تجعلنا نُفيق مــن ثرائنا، لقد انتصرنا على الطبيعة، ولكننا لم ننتصر على أنفسنا»!

ويكتب الأستاذ أنيس منصور عن الجيل الغربي المعاصر تحت عنوان «هذا الجيل بلا حــدود ولا قيود ولا أمــل»[١]، يقول: «هذه عبارة الكاتب الفرنسي «شارل موليه» في الجزء الثالث من كتابه عن «أدب القرن العشرين والمســيحية» في (٥٠٠) صفحة، وهو في هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة لا يدافع عن المسيحية ولا يُهاجمها، ولكن يجعلها حائطًا كبيرًا ترجع إليه الحضارة الغربية في محنتها الروحية، وهذا الكتاب هو أحســن الكتب وأشملها عن أدب القرن العشرين، فلم يظهر كتاب شامل عن أدب القرن العشــرين إطلاقًا، وإنما كل الكتب التي صدرت هي دراسات خاصة مطوَّلة عن كثير من هؤلاء الأدباء.. ولكــن هذه الدراســات الموضوعية قد انفــرد بها صابرًا مجتهدًا «شارل موليه».

والمؤلِّف يعتمد على النصــوص الأدبية ولا يُطلــق حُكْمًا دون أن يكون في يديه وفي جيوبه حيثيَّــات هذا الحكم، وهو لا يخلو للمداولة ويصدر أحكامه، وإنما يُصدرها علنًا في محكمة النقد الأدبي.

والجزء الثالث هــذا قد تناول فيه الآثار العميقــة لكل من «مالرو»، و«كافكا»، و«فركور» و«شولوخوف»، و«مولنيه»، و«بومبار»، و«فرانسواز ســاجان»، و«لاديســلاس ريمون»، ومــن رأي المؤلف أن الفيلســوف السياسي الموســيقار الطيار «أندريه مالرو» هو الذي وضع أصابعه على الخطر الذي ينتظر الإنسانية، فهو وحده الذي أدرك منذ أكثر من ربع قرن

(١) صحيفة الأخبار المصرية بتاريخ ١٢ فبراير ١٩٦٠م.

QaradawiBooks.com

مِحنة الرُّوح الأوروبية، و«مالرو» هو الذي نفث روح القلق والأسى في الأدب الفرنسي والأوروبي بعد ذلك.

والغريب في هذا الجـزء الثالث ما قاله المؤلف عن الأديبة الفرنسـية «فرانسـواز سـاجان» التي صدرت لها قصتـان هما «مرحبًا أيهـا الحزن» و«ابتسـامة ما» فهو يرى أن «سـاجان» قد سـجَّلت رُوح اليأس والمرارة واللامبالاة والتواكل، تلك الروح التي عبَّر عنها «سارتر» في أعقاب الحرب الأخيرة، والذي يتذكَّر ما قال «سارتر» في الأعداد الأولى من مجلة «العصور الحديثة» يجده يصرخ ويقول: «لقد انتهت الحرب في فرنسا الجائعة، ولكن السلام لم يبدأ، إننا نعيش في محنةِ ما بين الحربين، لقد كذب هؤلاء الذين قالوا: إن السـلام من طبيعة الأشياء، وإن الحرب مسـألة عارضة.. فما هذا الذي نحن فيه؟ إنه الحرب والسلام معًا. إنها المحنة دائمًا»!

وهذا الذي قاله سـارتر في قصصه وكتبه إنما هو تعميق للإحساس بالمأسـاة واليأس والمرارة، وقد عبَّر عنه الشـاعر الألماني «بورشرت» الذي توفى سـنة ١٩٤٧م، فقال في قصته «أمام البـاب»: «نحن جيلٌ بلا رابط، ولا عُمـق، عمقُنا هو الهاويـة، نحن جيلٌ بلا ديـن، ولا راحة، شمسُنا ضيقة، حبُّنا وحشية، وشـبابُنا بلا شباب! إننا جيل بلا قيود ولا حدود ولا حماية من أحد».

وكان لا بد أن تظهر هذه الصورة الشابَّة المعذَّبة في طلبة الجامعات والمدارس وأعمـاق الأديرة. ومن هذه الأديرة، ومـن الرهبانية القائمة، خرجت «فرانسواز ساجان» لتعلن في قصتها: إنني لا أفكر، ولا أستطيع، ولا أُطيق أن أبقـى وحدي، ولا أريد لأحد أن يكـون كذلك، وأريد أن أعيش مثل شيء جديد، ولو كان فيه عذاب، المهم أن يكون جديدًا.

QaradawiBooks.com

وكذلك فعلت «سسيل» بطلة قصة «مرحبًا أيها الحزن»، ولم تتردد «دومنيك» طالبة الحقوق وبطلة قصة «ابتسامة ما».

سسيل ودومنيك صورتان لأبناء هذا الجيل الذي يتحرَّك ويتألَّم ويروح ويجيء، ويحارب ويصرخ في الظلام بلا حدود ولا قيود يؤمن بها، ولا أمل له، ولا أمل في أن يكون لديه أمل». وكفى بهذه الوثائق مستندًا.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

تحذيرات رجال السياسة

وأما السياسيون، فنكتفي منهم بالسياسي الأمريكي الشهير «جون فوستر دالاس» وزير خارجية أمريكا في عهد الرئيس «أيزنهاور» وصاحب كتاب «حرب أم سلام؟».

يقول «دالاس» في فصلٍ من كتابه، تحت عنوان «حاجتنا الروحية»: «إن هناك شيئًا ما يسير بشكل خاطئ في أمتنا، وإلا لما أصبحنا في هذا الحَرَج، وفي هذه الحالة النفسية لا يجدر بنا أن نأخذ موقفًا دفاعيًّا، وأن يتملكَنا الذعر.. إن ذلك أمر جديد في تاريخنا!

إن الأمر لا يتعلق بالماديات، فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية، إن ما ينقصنا هو إيمان صحيح قوي، فبدونه يكون كل ما لدينا قليلًا، وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم، أو القنابل مهما بلغت قوتها!

فمتى شعر الناس بالحاجة إلى الاعتماد على الأشياء المادية، فإن النتائج السيئة تصبح أمرًا حتميًّا.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وفي بلادنا لا تجتذب نظمنا الإخلاص الروحي اللازم للدفاع عنها، وهنـــاك حيرة في عقول النـــاس، وتآكل لأرواحهم، وذلـــك يجعل أمتنا معرَّضة للتغلغل المعادي ـ كما كشف عنه نشـــاط الجواسيس الذين تم كشفهم حتى الآن ـ ولن تســـتطيع أي إدارة لمكافحة التجسُّس أن تقوم بحمايتنا في هذه الظروف...

لقد تقابلنا مع أقصـــى الاختبـــارات التي يمكـــن أن يلتقي بها أي شعب.. وهو اختبار الحياة في رفاهية...

لقد قال يســـوع: إن هذه الأشياء المادية ســـيحظى بها أولئك الذين يعملون من أجل ما أمر به الله، ومن أجـــل تحقيق عدالته.. ولكن عندما يحدث ذلك فعندئذ يبدأ الامتحان الأكبر؛ لأن هذه الأشياء المادية ـ كما أنذر يسوع ـ يمكنها أن تصبح الصدأ الذي ينخر في الأرواح.

كذلك فإن لدينا نموذجًـــا معروفًا، فالرجال الذين لديهم إحســـاس بالواجب إزاء كائن أعلى، يجاهدون لتحقيق إرادته؛ لأن إيمانهم يمنحهم القوة والفضيلة والحكمة المبسطة.. إنهم لا يبنون ليومهم فقط، بل للغد، وليس لأنفســـهم وحدهم، وإنما للجنس البشـــري، ومجتمع هذا أساسه ســـتكون من نتائجه الثروة والرفاهيـــة للكثيرين إذا ســـاعدته الأحوال.. وعندما تأتي هـــذه المنتجات الفرعية فإنها تكون طيبـــة، إلى درجة أنها تشجع على الاعتقاد بأنها النهاية المرتقبة، وبهذا سيبتعد الناس عن بذل الجهود الإنشـــائية للأجل الطويل، ويبدؤون الصِّراع من أجل الحصول على الأشياء المادية.

لقد أخفقنا بشـــكل يدعو إلى الرِّثـــاء في أن نـــرى أن من الممكن الحصول على عدالة اجتماعية، دون أن نمـــارس الإلحاد والمادية.. إن

QaradawiBooks.com

ذلك يعتمد على الرغبة الاختيارية للفرد في قبول أو التخلي عن الالتزامات الاجتماعية تجاه الفرد الآخر.

ونتيجة لذلك فإن كثيرًا من قومنا قد فقدوا إيمانهم في مجتمعٍ حرٍّ، وكأمة فقدنا كذلك إيماننا الديني وممارسة شعائرنا الدينية. رغم أننا ما زلنا متدينين، إننا نفرق بين الدين وممارسة الدين، ولم نعد نؤمن بأن الإيمان يتمشَّى مع الظروف الحديثة.. ومتى تحطمت الصلة بين الإيمان والعمل، فلن نستطيع بعد ذلك أن ننمِّي قوة رُوحية نستطيع نشرها في جميع أنحاء العالَم.

ويجب أن نفهم ذلك بوضوح: أن مجتمعًا حرًّا ليس معناه مجتمعًا يسعى كل فرد فيه لنفسه، بل إنه مجتمع متناسق، والقيود المفروضة هي قبل كل شيء روابط الأخوَّة المنبعثة من الإيمان، فإن الناس خلقوا لكي يعيشوا إخوانًا في رعاية الله».

ثم يختم هذا الفصل بقوله:

«لن تكون هناك فائدة من إنشاء «أصوات أمريكا» أخرى عالية الصوت إلا إذا كان لدينا شيء نقوله، يكون أكثر إغراء مما قيل حتى الآن!

لقد كتب الرئيس «ولسون» قبل وفاته بأسابيع قليلة مقالًا استعرض فيه تهديد المبادئ الثورية وأعمال الشيوعية، وختمه بقوله: «إن اختصار المسألة بأسرها هو ما يلي: إن حضارتنا لا تستطيع الاستمرار في البقاء من الناحية المادية، إلا إذا استردت روحانيتها..

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

هذا هو التحدي النهائي لكنائسـنا ومنظماتنا السياسية وللرأسماليين عندنا، ولكل فرد يخاف الله، أو يحب بلده..».

فهل تستطيع المسـيحية أن تقدم «طوق النجاة» لعالم يُهدِّده الغرق ويحيط به الموج من كل مكان؟

هذا ما سيجيب عنه الفصل التالي.

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الفصل الرابع

الحضارة التي ينشدها العالم

- حكم القرآن على الحضارات المادية.
- الحضارة التي ينشدها العالَم تتجلى في الإسلام.
- المجتمع الذي يكوِّنه الإسلام.
- إسلام يتمثَّل في أُمّة.
- عقبات في سبيل اهتداء الغرب بالإسلام.

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

حكم القرآن على الحضارات المادية

لقد دمغ القرآن الكريم بالطغيان والفساد حضارات، أقامت من البناء المادي آيات، وخلَّدت مصانع وعمارات، ومع هذا استحقَّت عذاب الله ونقمته، برغم ما كان لها من جنـــات وعيون، وكنوز ومقام كريم، ونَعمة كانوا فيها فاكهين.

ذلك لأنهم عمـــروا الأرض، وخرَّبوا الإنســـان.. أقامـــوا المباني، وهدموا المعاني.. عملوا للدنيا، ونســـوا الآخرة.. أكلوا نعمة الله، ولم يؤدُّوا شكرها.. حابَوا الأقوياء، وطغوا على الضعفاء.. أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات.

من هنا كانت عقوبة الله لهم، وتدمير الله عليهم، وأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر، وإنذاره للظالمين بعدهـــم أن يصيبهم ما أصابهم إن لم يتداركوا أنفسهم بتوبةٍ وإصلاح.

اقرؤوا قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۞ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۞ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۞ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۞ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۞ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۞ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۞ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

غير مرخصة للطباعة
نسخة

لم يُغْنِ هذه الأمم من عذاب الله ما شيَّدته من حضارات مادية، وما تركته عادُ إرمَ، من آثارٍ عمرانية شاهقة، ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾، وما نحتته ثمود في الجبال من بيوت لم تزل بقاياها مشهودة إلى اليوم، وما أقامه فرعون من أوتاد، لعلها تلك «الأهرام» الفارعة التي تشهد بطول باعهم في فن الهندسة والعمران إلى اليوم.

لم يُغنِ ذلك عنهم شيئًا بعد أن ﴿طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾.

وقال تعالى في شأن فرعون وقومه: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ۝ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٩].

وانظر إلى قصة عاد وما بَنَوا وشيَّدوا، وكيف حذَّرهم نبيهم هود من الاستغراق في المتاع المادي على حساب الجانب الروحي، وخوَّفهم عقاب الله إذا هم ظلُّوا على شركهم وفسادهم، ونسيانهم أمرَ آخرتهم، يقول القرآن الكريم: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ۝ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٤٠].

وفي سورة أخرى ـ سورة فصلت ـ يعرض القرآن لموقف عاد وعُتُوّها في الأرض، وطغيانها بغير الحق، فيقول: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

QaradawiBooks.com

بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۞ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦].

وفي سورة هود يقول تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [هود: ٥٩].

ويحدثنا القرآن عن ثمود الذين ﴿قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۞ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۞فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۞وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء: ١٤٢ ـ ١٥٢].

وفي سورة النمل يقول عنهم: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [النمل: ٥٢، ٥٣].

ويحدثنا القرآن عن قوم لوط، وما ابتكروه من فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالَمين، وكيف دمَّر الله عليهم قُراهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۞ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

ويُحدِّثنا القرآن عن سبأ في اليمن، وقد كان لهم في مسكنهم آية، جنتان عن يمين وشمال، ولكنهم أعرضوا وكفروا بنعمة الله، فأرسل عليهم سيلَ العَرِم، ومزَّقهم كل ممزَّق: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧].

QaradawiBooks.com

ويؤكِّد القرآن الكريم في مواقف كثيرة سنن الله تعالى في إهلاك الأمم، برغم ثرواتها، وآثارها المادية والعمرانية، محذِّرًا بذلك اللاحقين أن يحذوا حذو السابقين في فساد اعتقادهم وفساد أعمالهم.

يقول تعالى مخاطبًا مشركي العرب: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦].

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩].

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۞ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۞ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٢ ـ ٨٥].

لم يُنْجِ هؤلاء من عقوبة القدر الأعلى ما كان لهم من كثرة العدد، ولا من شدة القوة، ولا من الآثار البارزة في الأرض، ولا ما عندهم من العلم المادي، الذي ردُّوا به علم النبوة، ولم يؤمنوا إلا بعد أن وقعت الواقعة، وفات الأوان، فالتمسوا الخلاص، ولات حين مناص.

وبهذه الآيات المحكمات من كتاب الله الكريم، يمكننا أن نُحدِّد موقف الإسلام من الحضارة المادية المعاصرة، التي أخذت الأرض فيها

QaradawiBooks.com

زخرفها وازَّيَّنت، وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها، أو كادوا، فهم مهدَّدون ببأس الله تعالى وعقوباته القدرية، إن لم يتداركْهم الله برحمة منه، فيصلحوا ما أفسدوا، ويرتُقوا ما فَتَقوا. وإلا فعذاب الله شديد، وما هو من الظالمين ببعيد.

أسباب هلاك الأمم:

لقد قال القرآن الكريم في الكثير من آياته على أن الأمم لا تقوم أو تسقط اعتباطًا، بل بناءً على سنن ثابتة لا تتبدَّل، وفي الآيات التي ذكرناها هنا في هلاك الأمم الغابرة، نبَّه أولي الألباب على أسباب دمار هذه الأمم وهلاكها ـ برغم ازدهارها المادي والعمراني ـ فكان من هذه الأسباب:

١ ـ الجحود بآيات الله تعالى وعصيان رسله.

٢ ـ اتباع أمر كل جبار عنيد، وإطاعة أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، كفعل عاد وثمود.

٣ ـ الفرح بالعلم المادي، والإعراض عما جاء به الوحي، كالذين حكى الله عنهم في آخر سورة غافر.

٤ ـ الغرور بالقوة المادية والثروة المالية، والغفلة عن بأس الله ﷻ، كفعل فرعون وقارون.

٥ ـ الظُّلم والبخس والبغي بغير الحق، وخصوصًا على الفقراء والمستضعفين، كفعل مدين قوم شعيب.

٦ ـ اقتراف الفواحش، واتباع الشهوات، كفعل قوم لوط.

٧ ـ شيوع الفساد في الأرض، واستعلان المنكر، وعدم التناهي عنه كما فعل بنو إسرائيل ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩].

QaradawiBooks.com

٨ ـ الكفر بأنعم الله، وعدم القيام بشكرها، بل استخدامها في معاصي الله، ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

٩ ـ الترف والبطر: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨]. وكل واحدة من هذه الجرائم حَرِية أن تُعجِّل بعقاب الله وبأسه الذي لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين.

فكيف إذا اجتمع عددٌ منها في أمَّة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات؟

والناظر في الحضارة التي تسود عالمنا اليوم، يجدها قد أخذت بنصيب يكثر أو يقل من حضارات الهالكين، وانحرافاتهم العقدية والفكرية والسلوكية، فلا غرو أن يُخشى عليها أن ينزل بأهلها ما نزل بهم: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ۝ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٥، ٤٦].

قانون المداولة بين الأمم ووراثة الحضارات:

ومما نبَّه عليه القرآن كذلك سنة من سنن الله في هذا العالَم هي: سنة «التداول بين الأمم» أو تبادل الأدوار في الحضارات، وهو القانون المذكور في قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وكما أن الفرد الفقير لا يبقى فقيرًا أبدًا، والغني لا يظل غنيًّا أبدًا، فكم فقير يغتني، وكم من غني يفتقر، وكذلك القوي والضعيف، والمِلك والسُّوقة، فهكذا يقال في الأمم.

QaradawiBooks.com

وقد قال تعالى في فرعون وقومه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ﴿فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩].

وقد بيَّن القرآن في وراثة الأمم الهالكة قاعدتين أساسيتين:

الأولى: أن المستضعفين المظلومين يرثون الجبابرة الظالمين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ۝ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٣ ـ ١٥].

والثانية: أن الصالحين هم الذين يرثون الفاسدين والمفسدين، فإن الله لا يديل من فاسد لفاسد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

والصالحون هنا ليسوا هم الدراويش أو البُلْه، بل هم الصالحون للقيام بعمارة الأرض وخلافة الله فيها بالعلم النافع، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

هذا ما يخشاه المؤمنون بالله تعالى على حضارة الغرب وجبابرتها المستكبرين في الأرض بغير الحق، الذين أضاعوا الصلوات، واتبعوا

QaradawiBooks.com

الشهوات، وكفروا بأنعم الله. ولم يغرَّهم ما ينعمون به من متاع الدنيا وزُخرفها، فهذا هو «الاستدراج» الذي حدَّثنا القرآن به، وحذَّرنا من عواقبه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤].

وهو «الإملاء» للظالم الذي ذكره لنا رسول الله ﷺ حين قال: «**إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلتْه**» ثم تلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][(١)].

وكثيرًا ما يكون هذا الأخْذ بغتةً حين لم تُغْن النُذُر، ولم يعظهم ما أنزل الله بهم من فساد البر والبحر، ليُذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون، فما استكانوا لربهم وما يتضرعون: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

ما الدواء؟ وأين الطبيب؟

هذا ما يخشاه المؤمنون بمنطق الإيمان.

وهو ما خشيه «ألكسيس كاريل» و«رينيه دوبو» بمنطق عالِم الحياة.

وما خشيه «توينبي» بمنطق عالِم التاريخ.

وما خشيه «جارودي» بمنطق المفكِّر الفيلسوف.

وما خشيه «دالاس» بمنطق السياسي.

ولكن السؤال المهم: كيف الخلاص؟ وما الدواء؟ وأين الطبيب؟

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٦٨٦) ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٣)، عن أبي موسى.

QaradawiBooks.com

الدواء كما يراه «ألكسيس كاريل» وتعليق سيد قطب:

نقل الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ فقرات مطوَّلة من كتاب الدكتور ألكسيس كاريل «الإنسان ذلك المجهول» ونقدِه العلمي للحضارة الغربية، وتشخيصه للداء تشخيصًا سليمًا إلى حدٍّ كبير، إلا أنه لم يجد عنده دواءً ناجعًا يُقدّمه للبشَرية، يشفيها من أدواء المادية المعاصرة.

كيف الخلاص إذن؟

الدكتور «كاريل» يرى أن طريق الخلاص هو «مزيد من علوم الإنسان يمكِّننا من إعادة إنشاء الإنسان»، هو «معرفة أكثر عمقًا بأنفسنا» عن طريق علوم الحياة لتحل محل علوم الجماد.

ويعلق على ذلك الشهيد سيد قطب فيقول: «ونحن نهتف مع الدكتور كاريل: «مزيدًا من علوم الإنسان» ولكننا لا نرى معه أن هذا وحده يكفي، ولا نثق مثله هذه الثقة المطلقة فيما قد نصل إليه من المزيد في علوم الإنسان، ولا نقف مثله يائسين من «وسيلة أخرى لمعرفة القواعد التي لا تلين لوجوه نشاطنا العضوي والرُّوحي، وتميِّز ما هو محرَّم مما هو شرعي، وإدراك أننا لسنا أحرار لنعدِّل في بيئتنا وفي أنفسنا تبعًا لأهوائنا».

إن المزيد من علوم الإنسان ضروري لنا.. لنعرف منه على الأقل أقصَى الإمكانيات التي في طَوْقنا وطوق العلم أن نبلغها من المعرفة «بالإنسان»، ونقف على حدود المجهول الذي لا حيلة لنا وراءه، فهذه المعرفة ضرورية لنحدد ـ على ضوئها ما الذي نملك وما الذي لا نملك من التصرف في شأن «الإنسان»، لعلنا نلتزم حدودنا ولا نتعداها، ولا نخبِط وراءها في التيه بلا دليل، كما فعلنا حتى اليوم بلا مبالاة.

QaradawiBooks.com

والدكتور «كاريل» كان قد سبق فقرَّر لنا أن هناك أسبابًا لتخلُّف علوم الحياة عن علوم الجماد، ليست طارئة ولا وقتية، إنما هي ثابتة وطبيعية، أسبابًا ترجع إلى تعقُّد الحياة من جهة، وإلى طبيعة عقلنا من جهة أخرى، ومن ثَمَّ قرَّر لنا أن علوم الحياة لن تبلغ في يوم من الأيام ما بلغته علوم الجماد من الدقة والجمال... وبالضبط قال لنا بألفاظه: «إن معرفة أنفسنا لن تصل أبدًا إلى تلك المرتبة من البساطة المعبِّرة والتجرد والجمال التي بلغها علم المادة، إذ ليس من المحتمَل أن تختفي العناصر التي أخَّرت تقدم علم الإنسان» (صـ ٢٣).

فمن العجيب بعد ذلك أن يجعل اعتماده كله في حل مشكلة الحضارة وإعادة إنشاء الإنسان على «مزيد من علوم الإنسان».

ولكننا لكي نزيل هذا العجب، يجب أن نواجه مشكلة دكتور «كاريل» نفسه، فإن مواجهتها تفيدنا في تعيين الجهة التي يمكن أن يأتي منها الخلاص الحقيقي، والاتجاه الواحد الميسور للخلاص...

إن هذا الرجل الواسع المعرفة، العميق الحساسية، الشديد الإخلاص، المتحرِّر الفكر، الثائر على الحضارة الصناعية، حتى ليرى أن ليس هناك ما هو أقل من «قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أخرى للتقدُّم البشري».

إن هذا الرجل ـ على كل هذه الفضائل والخصائص فيه ـ رجل «غربي» نشأ في البيئة الغربية بكل ملابسات تاريخها القديم وحاضرها الراهن، كما أنه نشأ في ظل هذه الحضارة، وفي بيئة «العلم» الذي هو طابعها الظاهر..

وبسبب كل هذه الملابسات فهو سجين هذه الحضارة.. سجين بيئتها وتاريخها وملابسات حياتها.. سجين الانطباعات والرواسب العميقة العنيفة في هذه البيئة..

QaradawiBooks.com

ومن ثَمَّ لا يملك حين يثب الوثبة الكبرى أن يخرج من إطارها..

ونزيد هذه الحقيقة العجيبة إيضاحًا:

إن الدكتور «كاريـــل» يتنفَّس في بيئة آمنت بالعلـــم التجريبي إيمانًا مطلقًا فترة قرنين من الزمان.. وعلى الرغم من أنها بدأت في هذا القرن الأخير تُفيق من نشـــوة انتصـــار العلم، وهـــي تراه يقف علـــى عتبات المجهول عند آفات كثيرة. فإن رواسب القرنين الماضيين لا تزال عميقة وعنيفة.. حتى عند الذين عرفوا «حدود العلم»..

وهو فـــي الوقت ذاته يتنفـــس في بيئة عرفت الدين في أحســـن صوره تصوُّفًا رُوحيًّا مرفرفًا شفيفًا، واتصالًا بالغيب من غير وساطة مادية ظاهرة، وصلاة ودعاء يغيب فيها الفـــرد عن ذاته، ويندمج في الملأ الأعلى.

وهذه هي الصورة الوضيئة المشرقة الحبيبة إلى نفس الدكتور العالِم الشـــاعر المتصوف المرفرف، كما يصفها في كتابه هذا، وكتابه الآخر الذي عنوانـــه «الصلاة» وكمـــا يكرِّر ضـــرورة توفير الجو المناســـب لانطلاقها في حياة البشر.. وكما يثور على الحضارة المادية الصناعية؛ لأنها تخنقها، وتخنق معها كل شـــعور بالجمال، وكل نشـــاط فني أو روحي أو ديني..

ومن هاتين النقطتين: نقطة الإيمان بالعلم، ونقطة تصوُّر الدين على هذا النحو وفي هذه الحدود.. تنشـــأ مشـــكلة الدكتور «كاريل»، وأمثاله ممن تهولهم فظاعة التدمير الذي تُنشـــئه هذه الحضارة في حياة الإنسان «ورُوحه» وتهتف بهم أشواقهم الروحية إلى استشراف حياة فيها للعقيدة الروحية مكان..

QaradawiBooks.com

تنشأ المشكلة من ثورته على هذه الحضارة، ومن «سجنه» في إطار هذه الحضارة في الوقت ذاته.

ومن هنا لا يرى أن هناك وسيلة أخرى لوقف هذا التدمير الذي تُنشئه هذه الحضارة في الكيان الإنساني..

إنه لا يملك منهجًا للحياة إلا الذي يقرِّره العلم؛ لأن الدين ـ كما هو في بيئته في أحسن صوره لا في الصورة الكريهة المنفرة الأخرى ـ هو مجرد نشاط روحي، وتهذيب خُلُقي، واتصال بالعوالم الغيبية...

وهو في صورته هذه يمثِّل جانبًا واحدًا من جوانب التكوين الإنساني. فالاقتصار عليه شديد الخطورة؛ لأنه مُعوِّق للنشاط الواقعي العملي الإيجابي المادي، وهو يحذِّر أشد التحذير من أن يكون الهروب من الحضارة إلى مثل هذا العالَم الذي لا يحوي إلا النشاط الروحي.. وهو محقٌّ تمامًا في تحذيره هذا. إذ كان لا ينشئ إلا نكسة إلى «الرهبنة» التي ذاقت منها أوروبا ما ذاقت في تاريخها، والتي انتهت كما أسلفنا إلى الجموح المادي الكافر الغليظ الجافي.

فأما لو فكَّر في أن يكون للحياة منهج ديني واقعي، فإن صورة كريهة مُفزعة تَخايَل له؛ لأنها الصورة التي عرفتها كذلك أوروبا صورة الكنيسة الطاغية التي تفرض تصوراتها الخرافية على العلم والعلماء وعلى الحياة والأحياء، وهي صورة كذلك أمرُّ وأدهى.

لا مفر ـ إذن ـ لأمثال هؤلاء المخلصين المساكين، إلا أن يلجؤوا إلى «العلم» وإلى العلم وحده، حتى فيما يحسون هم أنفسهم أن العلم لن يصل بهم فيه إلى نتائج حاسمة قاطعة كالتي وصل إليها في عالَم المادة...

QaradawiBooks.com

ولكن ماذا بيدهم؟ ماذا يملكون للبشرية غير هذا؟»[١].

اللورد «لوثين» وتعليق المودودي:

وقبل الشهيد سيد قطب بنحو ثلاثين سنة كتب الأستاذ أبو الأعلى المودودي معلِّقًا ـ بمثل ما علَّق به الشهيد ـ على خطبة «اللورد لوثين» أحد رجالات بريطانيا المهتمِّين بالثقافة والحضارة، وكان يرأس تحرير إحدى المجلات العلمية، وقد ألقى خطبة في الهند قبل استقلال باكستان عنها، في الثلاثينيات بمناسبة تخريج فوج من جامعة «عليكره» الشهيرة، نقد فيه الحضارة التي أدى العلم فيها إلى أمرين عظيمين:

الأول: أنه وسَّع من سيطرة الإنسان على الطبيعة وقواها.

والثاني: أنه من جانب آخر قد أضعف من سلطان الدين الموروث على الأجيال المتخرِّجة في الجامعات، وعلى سائر الناس على العموم.

وكل ما يوجد اليوم من المفاسد في هذه الدنيا المعاصرة، فإن نصفه على الأقل آتٍ من هذين السببين، فالإنسان المتعلِّم قد كاد يسكر بنشوة القوة والمقدرة الهائلة التي تردَّد بها العلم، ولكنه لم يتقدَّم في سبيل الأخلاق مثل تقدُّمه في المدنية والعلوم، مما يكون ضمانًا بألا تستخدم هذه القوى لهلاك الإنسان، بل لفلاحه[٢].

عرض المودودي للخطبة في فصل من كتابه «نحن والحضارة الغربية» وعلَّق عليها، والمودودي أحد الأعلام الذين درسوا هذه

(١) انظر: الإسلام ومشكلات الحضارة للشهيد سيد قطب صـ ١٦٤ ـ ١٦٧.

(٢) انظر: نحن والحضارة الغربية صـ ٧٥، ٧٦، نشر دار الفكر، دمشق.

QaradawiBooks.com

الحضارة وخبروها وحللوهـــا ونقدوها عن علم وبصيـــرة، في أكثر من كتاب من كتبه.

ولا عجب أن اهتم بهذه الخطبة في وقتها وبيان ما اشتملت عليه من تشخيص لأمراض الحضارة، ووصف العلاج في نظره، وهو الدين.

يقول اللورد في خواتيم خطبته أو محاضرته:

«إن كنتُ لا أخطئ في تقدير الأوضـــاع الراهنة، فإن من الحقيقة أن الاختبار الذي قد تعرَّض له الدين في هذا الوقت لن يخرج منه فائزًا، إلا إذا اطمأنَّ الجيل الناشئ، بعدما يمتحن نظامه الداخلي: أنه يضمن الحل الأقوم لكل ما يواجهه في الحياة من المســـائل العملية، والمشـــكلات المزعجة المتعقدة، وذلك أن النِّحْلة الشـــخصية قـــد مضى زمانها، وأن الديانة العاطفية المحضة أيضًا لم تعد طُلبة أحد الآن. وقد انتهى كذلك عهد ذلك الدين الـــذي لا يُهدِّئ من بال الفرد، ولا يشـــد أزره، إلا بأن يعطيه تعليمات قليلة بشـــأن ســـلوكه الخُلُقي، ويبعث في نفسه أملًا في نجاة لن يتكشف أمرها إلا بعد الممات، وإنما الإنسان العلمي العصْري يريد أن يمتحن كل شيء، حتى الحق والصدق على محكِّ النتائج البيِّنة. وإن كان عليه أن يتبع الدين، فهـــو يطلب أن يبيِّن له الدين ماذا بيده من حل مســـائل حياته العملية. أما الأمـــل في حصول النجاة بعد سلســـلة متكررة من المواليد في هذه الدنيا، أو الرجاء في التوصُّل إلى الملكوت الســـماوي بعد اجتياز باب المـــوت، فليس من الأمر الـــذي يدفعه إلى اعتناق الدين على أساســـه وحده، إنه يطلب من الدين أن يزوِّده قبل كل شيء بذلك المفتاح الذي يفتح به الحقيقة المغلقة لهذا الوجود، ويهتدي إلى حل للُغزه تطمئن إليه النفـــس، وأن يبيِّن له ثانيًا بإقامة البرهان على

غير مرخصة للطباعة

الصلة الواضحة بين العلة والمعلول والسبب والنتيجة على النحو العلمي (scientific): أنه بأي وجه يمكن الإنسان أن يسخِّر تلك القوى التي قد انفلتت من يده الآن، وقد جاءت تهدِّد نوعه بالهلاك والبوار بدل أن تنفعه، وبأي طريق يتغلب على المفاسد الاجتماعية المنتشرة في بني جنسه كالبطالة، وعدم المساواة، والظلم والاعتداء، والحرب والقتال، وكيف يمنع التنازع بين الأفراد، وتبدُّد النظام العائلي، الذي قد ذهب بمباهج الحياة الإنسانية كلها.

إن الإنسان لا يتطلَّع اليوم إلى الدين إلا بسبب أن العلم (Science) قد زاد في مشكلاته بدلًا أن يحلها! فهو مضطر لأن يطلب من الدين حلًّا لشُبهاته ومشكلاته اضطرارًا لم يُعهد فيه من قبل، فإذا كان الدين يريد الآن أن يحتفظ بمكانته، ويستعيد ما زال من سلطانه، فعليه أن يجيب عن كل هذه الأسئلة جوابًا روحيًّا، يكون في الوقت نفسه علميًّا (Scientifically)، ويمكن أن يختبر صدقه على محكِّ النتائج في هذه الدنيا، بدون أن يُحال ذلك على الحياة الأخرى بعد الموت، إننا ـ أهل الغرب ـ نعلم أن هذا هو السؤال الأخطر الأهم الذي قد واجهنا في هذا العصر، فهل باستطاعتكم ـ معشر أهل الهند ـ أن تجيبوه وتجدوا له حلًّا؟».

ويعلق العلامة المودودي رَحِمَهُ اللَّهُ على ذلك، فيقول: «وإذا مر القارئ على هذا الجزء من خطبة اللورد «لوثين»، فإنه ليُخيَّل إليه أن هناك ظمآنَ لا يعرف وجود الماء، ولكنه يُحسُّ بكيفية ظمئه أصدقَ ما يكون من الإحساس، فهو يمضي يُبيِّن لنا أن أُوام كبده يتطلَّب شيئًا ما، يكون فيه هذا وهذا من الصفات، فلو أننا نضع أمامه في هذه الحالة كأسًا من الماء، لصاحت فطرته من الفور: إن هذا هو الشيء الذي يُتعطَّش إليه،

QaradawiBooks.com

ووثب نحوه ليشربه، وليس هذا يخص اللورد «لوثين» وحده، بل الأمر أن الذين قد لفحهم سعير الحضارة والمدنية الغربية في أوروبا وأمريكا وسائر العالَم، وقد جاوزوا الحافة الشجراء من صحراء الفلسفة والعلوم إلى قلبها الرملي القفر، الذي لا ماء فيه ولا ظل، قد أصابهم جميعًا مثل هذه الأُوَام، وهم كلهم يتطلَّبون شيئًا بتلك الصفات التي ذكرها اللورد «لوثين»، وهم لا يعرفون اسم الماء، ولا أين يوجد، ولكنهم يصيحون الفينة بعد الفينة «ظَمِئُ الفؤادِ فهاتها يا ساقي»!

إن الماء لا ريب قد سمع القوم باسمه، ولكنه يرتاعون لهذا الاسم لمجرد أنهم لم يجدوا مسمَّاه الحقيقي، وأما الذي قد بلغهم عنه من أسلافهم الجاهلين المتعصبين، فهو أن الماء شيء مسموم جدًّا يجب ألا يقاربه أحد، ولكنهم قد بلغ منهم التعطُّش أن لو يوضع أمامهم الشيء بذاته بدون أن يُعلن اسمه، فلا جَرَم أن يصيحوا: إن هذا هو الذي هم يظمؤون إليه، ولو يقال لهم: إنه هو «الماء» الذي كانوا يهابون ذكره، لقضوا العجب من هذا الخداع الذي قد انخدعوا به إلى الآن.

إن الإنسان العلمي العصري، قد امتحن النصرانية وخبِر ما عندها جيدًا، وقد تجلَّى له كالشمس أنها ليست العلاج الشافي لمرضه، وبعد النصرانية قد تروقه وتسحر لُبَّه الديانتان: الهندوكية والبوذية، لفلسفاتها الخيالية الأسطورية، ولتعبُّدهما للقديم على الوجه التقليدي التاريخي، ولكن فشل هاتين الديانتين أيضًا يفتضح لأول امتحان النقد والتحليل العلمي.

فأما البوذية، فتكاد تكون طبعة هندية للنصرانية[1]، وأما الديانة الهندوكية فهي تخلق بنفسها تلك المشاكل والعُقد، التي لأجل التخلُّص

(١) قد يقال: بل إن النصرانية في صورتها الأخيرة هي طبعة «رومية» للبوذية الهندية!

QaradawiBooks.com

منها يشـــعر الإنســـان العلمي العصري بضرورة الدين، فهي التي تُشجِّع على عدم المساواة بين الإنسان والإنسان أكثر من غيرها، وتجعل المراباة واستثمار الأموال ـ الذي هو أقبح صور الســـلب، والنهب الاقتصادي ـ جزءًا لنظامها لا ينفكُّ. وتبقي على السبب الحقيقي لقيام الحروب ـ وهو التفريق بين المجتمع الإنساني بمفارقات الجنس والنسل، وبعث المنافرة النسلية بين أفراده ـ شيئًا متأصِّلًا في أساسها لا يبرحه، فالنظام الذي قد قرَّرته هذه الديانة للحياة الاجتماعية ليس من شأنه أن يصل بين الأفراد الإنسانيين، بل هو يقســـمهم على شتى الأجناس والطبقات، وإن قوانين اجتماعها تبلغ مـــن الخُلوقة والبِلَـــى بحيث قد اضطر أبنـــاء البيوتات الهندوكية النازلة من آلاف السنين أنفســـهم أن يلغوها في عصر الوعي العلمـــي والعملي هذا. ذلك بأن تلك القوانين لا تقوم على أســـاس من العلم والعقل، بل تستند إلى العصبيَّات والأوهام.

ثم إن هذه الديانـــة توجد أضعف وأفقر فيما وراء هذه المســـائل الدنيوية من مســـائل اللاهوت والأخلاق، فليـــس عندها مفتاح لفتح المغلق من حقيقة هذا الكـــون بطريقة مقنعـــة، وعقائدها من جنس العقائد التي لا يُطلب في بابها إلا القبـــول والإذعان، ولا يمكن أن يثبت شيء من ذلك ببرهان علمي أو عقلي. وأما في نظام الأخلاق، فلا شك أن الديانة الهندوكية تقدم طلســـمًا من المفروضات الرائعة المُعجِبة، كما قدَّم واحدًا منها في أيامنا هذه المهاتما غاندي، ولكنه يخلو من البرهان العقلي والحكمة العملية (Practical Wisdom) وفي عصر الوعي العلمـــي هذا لا بد أن يُفتَضح فشـــله عما قريب، إن لم يكن قد افتُضح بعد.

QaradawiBooks.com

ولا يبقى في المضمار بعد ذلك إلا الإســلام، وهو الذي يثبت على المحكِّ، ويوافق كلَّ معيارٍ من تلك المعايير التي يطلبها فعلًا الإنســان العلمي العصري، أو يمكن أن يطلبها لدينه المنشود.

أما القول بأن الدين مسألة شــخصية فقط، ولا صلة له إلا بالضمير الفردي وحده، فقد أصبح من خبر كان، إنه من جملة السخافات الفكرية التي راجت في القرن التاسع عشــر، فلا ينفكّ يردِّدها في الهند في هذا العقد الرابع من القرن العشرين أولئك المحافظون الذين قد تعوَّدوا السير خلف العالَم على مسافة خمســين عامًا أبدًا، على رغم ادعائهم للتجدد والتقدم، وذلك أنه قد أصبح أو كاد من المســلَّم بــه الآن أنه لا يمكن تصور الفرد منفصلًا عن الجماعة، إذ كل فرد إنساني قد ارتبط بفردٍ آخرَ بما لا يُحصى من الأواصر الكبيرة والصغيرة، وليس المجتمع في جملته إلا كالجسم الحي يكون فيه الأفراد بمثابة الجوارح والأعضاء، وإن كانت هناك ضرورة للدين، فهي ليســت للفرد وحده لطمأنينة قلبه ونجاته بعد الممات، بل هي للجماعة كلها، لكي تنظم أمرها، وتدبِّر جميع شــؤون حياتها الدنيوية على ضــوء هدايته. وإن انعدمت ضــرورة الدين، فهي تنعدم للفرد ـ أيضًا ـ كما تنعدم للجماعة.

ومن التصوُّر الصبياني السفيه أن يكون نظام الحياة الاجتماعية على وضعٍ، وتكون عقائد الأفراد وأعمالهم الدينية على وضع آخر مختلف، لا صلة بينها وبين ذلك النظام؛ لأن العقائد والأعمال الدينية إن لم تكن مرتبطة بالحياة الاجتماعية برباط، فإنها شيء عبث يخلو من كل فائدة، وليس ذلك فقط، بل هي حرية أن تضعف وتضمحل في نظام اجتماعي لا تتعامل مع أجزائــه الأخرى. ومن ذلك لا يمكــن أن يكون الأمر إلا

QaradawiBooks.com

على أحد اثنين: إما أن يكون نظام الجماعة بأكملها لا دينيًّا صرفًا، ويُطرد الدين من حياة الإنسان طردًا تامًّا، كما هو مذهب الشيوعيين، وإما أن يكون النظام الاجتماعي بأكمله دينيًّا، ويعترف بكون الدين هاديًا ومرشدًا لكل من العلم والمدنية، كما يقتضيه الإسلام. ولطالما جرَّبت الدنيا الصورة الأولى منهما، فنتجت عن هذه الشجرة الخبيثة تلك الثمرات الكريهة المُرَّة التي قد ذكرها اللورد «لوثين»، وهذه هي التي كان يمكن أن تنتج عن تلك الشجرة، فنتجت بالفعل، وستنتج أبدًا فيما يُستقبل. فليست نجاةُ الدنيا الآن إلا في الصورة الأخرى، ويبدو أن فرصة ظهورها إلى حيِّز العمل لا تزال تتقارب يومًا بعد يوم، ولكن الانتفاع بهذه الفرصة أو تضييعها للأبد ـ كما مر ـ متوقف على المسلمين».

ويؤكد الأستاذ المودودي هنا: «أن سبيل النجاة والخلاص واضحة، ولكن عيون الغربيين لا تستطيع أن تراها، لما يغشاها من ظلام التعصُّب، وإنما يؤكِّد حاجة أهل الحضارة اليوم إلى رجال من أهل الإسلام ينهضون بالعزم والجد، ليُزيحوا الغشاوة من أبصارها، ويُبرهنوا لها أن صراط الإسلام المستقيم هو وحده سبيل النجاة مما هي فيه. إن مثل هذه الجماعة المجتهدة والمجاهدة لو تنبعث من بين المسلمين اليوم فإنه يمكنهم أن يصبحوا قادة العالَم بأجمعه، ويستعيدوا مكانة العز والشرف التي كانوا عليها في الغابر، والتي يرون عليها اليوم الأمم الغربية، فيتحلَّب ريقهم حرصًا على اتباعها.

ولكنه إن بقي جمهور هذه الأمة متقاعدين هكذا بضعف الهمة وخَوَر العزيمة، وبقي شبابها هكذا يظنُّون غاية كمالهم في اقتيات فضالات الغير، وبقي علماؤها متشبِّثين كما هم الآن بالمناقشات العقيمة حول

QaradawiBooks.com

مسائل الفقه والكلام، التي قد ولَّى زمانها.. وبقي من هوان قادتها، وزعمائها السياسيين ومن حالتهم الذهنية المتخلِّفة أن يظنُّوا السير في مؤخر ركب الأمم الأخرى أعلى مراتب العزيمة النضالية، ويعتبروا دفع أمَّتهم إلى الخداع الأكبر من خدع هذا القرن العشرين غاية الكياسة والحكمة.. وبالجملة إن بقي كل أجزاء هذه الأمة من الأيدي العاملة إلى الأذهان المفكرة والنفوس الواعية على تعطُّلها، أو على تعسُّفها وخُرْقها، ولم يتقدَّم من هذا الحشد العظيم المشتمل على مئات الملايين من الأفراد رجال قليلون قد تشمَّروا لمزاولة الجهاد والاجتهاد في سبيل الله.. فإن هذه الأمة المسلمة أيضًا ستتبع الدنيا إلى ما هي منحدرة إليه من الدرك الأسفل، وتهوى في هاوية الهلاك مشدودة بذيلها، وسينادي الغضب الإلهي مرة أخرى: ألا بُعْدًا للقوم الظالمين!»[1].

عجز العلم والفلسفة عن إيجاد المخرج:

لقد تبيَّن لنا أن إنسان العلم الحديث هو «ذلك المجهول» الذي لم يستطع العلم أن يسبُر غَوْره، وأن يتعرَّف على حقيقته، وأن ينفذ إلى أعماقه، كما بيَّن ذلك «ألكسيس كاريل» و«رينيه دوبو»، وغيرهما. لقد عرف العلم الجمادات أو المادة، وحلَّلها، واكتشف قوانينها، ولكنه عجز عن معرفة الإنسان؛ لأن الإنسان من التركيب والتعقيد بحيث لا يعرفه إلا من خلقه فسوَّاه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وما دام العلم يجهل الإنسان، فلا يؤمل منه أن يُحْسن توجيهه وتربيته والتَّشْريع له، بل بدا اليوم أن العلم ـ وبعبارة أدق: تطبيقاته التكنولوجية ـ أصبح خطرًا على فطرة الإنسان وبيئة الإنسان.

(١) نحن والحضارة الغربية للأستاذ أبي الأعلى المودودي صـ ٨٤ ـ ٩١.

QaradawiBooks.com

و«إنسان الفلسفة» ليس أحسن حظًّا من إنسان العلم، والفلسفة رغم اهتمامها بالإنسان منذ أنزلها «سقراط» من السماء إلى الأرض، ووجَّه العقل الإنساني إلى محاولة اكتشاف ذاته: اعرف نفسك؛ لم تتفق على رأي في نظرتها إلى الإنسان: أهو رُوح أم مادة؟ جسم يفني أم رُوح يبقى؟ عقل أم شهوة؟ ملاك أم شيطان؟ الأصل فيه الخير أم الشر؟ أهو إنسان كما نراه، أم ذئب مقنَّع؟ أهو أناني أم غَيْريّ؟ أهو فردي أم جَماعي؟ أهو ثابت أم متطوِّر؟ أتُجدي فيه التربية أم لا تُجدي؟ أهو مختار أم مجبور؟

اختلفت الفلسفات في الإجابة عن هذه التساؤلات وتناقضت، فلا تستطيع أن تخرج منها بطائل، حتى قال شيخُنا الدكتور عبد الحليم محمود، وهو أستاذ الفلسفة في كلية أصول الدين قبل أن يكون شيخًا للأزهر: «الفلسفة لا رأي لها؛ لأنها تقول الرأي وضده، والفكرة ونقيضها»[1].

هنا نجد الفلسفة الإلهية مناقضة للفلسفة المادية، والفلسفة المثالية مناقضة للفلسفة الواقعية، وفلسفة الواجب معارضة لفلسفة المنفعة أو اللذة، إلى آخر ما نعرفه من تناقضات في الساحة الفلسفية، فهذا يثبت، وذاك ينفي، وهذا يبني، وذاك يهدم.

ومن هنا لا تستطيع الفلسفة وحدها أن تهدي الإنسان سبيلًا أو تشفي له غليلًا، أو تمنحه منهجًا يركن له ويطمئن إليه، ويقيم حياته على أساسه.

فهل تستطيع المذهبية الماركسية وفلسفة المادية الجدلية ـ التي كان لها بريقها ودعاتها، في عصرنا ـ أن تقوم بهذه المهمة؟

---

(١) مقال: (الفلسفة) للشيخ عبد الحليم محمود، مجلة البحوث (١٤١/٥)، العدد الخامس، من المحرم إلى جمادى الثانية سنة ١٤٠٠هـ.

QaradawiBooks.com

الماركسية داءٌ لا دواء:

ونقول: إذا عجز العلم، وعجزت الفلسفة عن إنقاذ الإنسان المعاصر من الدمار المعنــوي الذي يُهدِّده صباح مســاء، فلا يُتصــور أن تكون «الماركســية» هي البديل الذي يقــدِّم قارورةَ الــدواء للمريض ومِضَخَّة الإطفاء للحريق، كما توهَّم ذلك بعض الناس أيام نَفاق سوق الماركسية؛ وذلك لأمرين:

الأول: أن الماركســية جزء من الحضارة المادية المعاصرة، بل هي الجزء الأشــد غرقًا وإغراقًا في المادية؛ لأن فلســفتها الكلية قائمة على المادية الخالصة، فلا تــرى للكون إلهًا، ولا للإنســان رُوحًا، ولا وراء الدنيا آخرة، فكيف تكون البديل لنفســها؟ وكيف يصلح الداء دواء إلا على طريقة أبي نُوَاس: وداوني بالتي كانت هي الداءُ؟!

وقد قال الشاعر:

إذا استشــفيتَ مــن داء بــداءٍ   فأَقْتَــلُ ما أعلَّــك ما شــفاكَ[1]!

والثاني: أن الماركسية عاجزة كل العجز عن تكوين الإنسان المطمئنِّ القلب، المشــرق الرُّوح، الســعيد النفس؛ لأن هذا ينبع من الإيمان بالله وبالخلود في الآخرة، والماركسِيُّ لا يؤمن إلا بالمادة المحسَّة وبالحياة الحاضرة، لهذا يقول فلاسفة الأخلاق:

«الإنسان الماركسي ليس إنسانًا حُرًّا.. ذلك أن على المناضل العادي أن يطيع رؤساءه إطاعة عمياء، فيكون عبد «أسياده»، كما هو عبد الكون المادي. إنه لولب بســيط يعمل في آلة التطور، وما حريَّتُه إلا أن يخضع

(١) من شعر المتنبي، كما في ديوانه صـ٥٦٧، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.

QaradawiBooks.com

ـ بحسب النظرية الألمانية الزائفة ـ طائعًا مختارًا واعيًا! إن مثل الماركسي في العالَم وقد تحرر ـ أو قل: تحلل ـ من الدين ومن الأخلاق ومن الله! مثل العامل في المصنع، إنه يشعر بأنه عبد حتمية قاهرة كحركة الآلة الطاغية، وأن آلة العالَم تأمر وتسيطر، ويبدو أن ليس في وُسعه الخروج على مشيئتها، ولا الإفلات من أسرها إلا خلال لحظات ثورة أو لهو، كما يأبق العبد ويُفلت لحظةً من رقابة سيِّدِه.

ثم إن الإنسان الماركسي في الواقع عاجز أشلُّ، إنه يعلم أن ليس في وسعه الحيلولة دون حدوث ما هو حادث حتمًا، ويعجز عن استخدام مبادهته الخاصة على نحو أصيل، وغاية ما يقدر عليه الإسهام في تسارع إيقاع التطور.

إنه يشعر بعجزه عن تأمين مصيره الخاص، فيقضي معظم حياته خائفًا مذعورًا.

والإنسان الماركسي ـ أخيرًا ـ لا يتمتع برُوح اجتماعية حقيقية؛ لأنه لا يعرف الحب الحقيقي، ولا يحترم إنسانية الإنسان، نعم إن الماركسية تزعم الإسهام في إسعاد البشر، ولكن هل تستطيع أن تحب الناس؟

إن الإنسان لا يُحِب حُبًّا حقيقيًّا، إلا أشخاصًا يعترف بأن لكل واحد منهم قيمة فردية خاصة ومصيرًا خاصًّا.

يقول (برديف): تتكشف الأخلاق الشيوعية الثورية عن أنها أخلاق لا تعرف الرحمة نحو الإنسان المشخَّص الحي، نحو الغريب، فالفرد ليس سوى لبنة لا بد منها في بناء المجتمع الشيوعي، إنه أداة وحسْب، وإن الشيوعية لتنطوي في ذاتها على عنصر سليم صحيح يتصل بنظرتها

QaradawiBooks.com

إلى الحيـــاة، وهذا العنصُر يطابق النظرة المســـيحية، ويمثل في أن على الإنسان ألا يستهدف مصلحته الخاصة، بل أن ينفق حياته في خدمة مثلٍ أعلى، ولكن هذه الفكرة ـ وهي بذاتها رائعة ـ تفسَّر برفض منح الشخص البشري جدارة مستقلة، قيمة مستقلة، أي منحه نفحة رُوحية»[١].

عجز الأيديولوجيات الوضيعة:

إن الماركســـية شـــأنها شـــأن الأيديولوجيات الوضعية كلها، إنها لا يمكن أن تكون بديلًا عن الدين، كما قال بحق عالمان من أســـاتذة جامعة «هارفارد» الشـــهيرة في كتاب أصدراه فـــي الثمانينيات بعنوان «مستقبل العقيدة».

وهذا ما يؤكده ما قاله مـــن قبل المفكر والمـــؤرخ العالَمي «أرنولد توينبي» فـــي كتابه «العـــادة والتغيير» يقول: «حيـــث إن التدين جزء من الطبيعة البشَرية.. وحيث إن الإنســـان لا يستطيع أن يعيش دون دين من نوع ما.. فلقد ترتب على تراجع الدين عـــن موقعه في أوروبا أن قامت ديانات بديلة تســـمى: المذاهب الفكريـــة، أو الأيديولوجيات الفردية أو الرأسمالية، والجماعية أو الشيوعية، والوطنية أو القومية.

إن الحرب الباردة التي يستعر أُوارها بين الأيديولوجيات المعاصرة من جانب، والأديان العليا «السماوية» من جانب آخر، هي أخطر بالنسبة لمستقبل البشَرية من المشادَّة بين الشيوعية والرأسمالية، بالرغم مما يلقاه الحوار بينهما من اهتمام عالَمي، فهل هذه الأيديولوجيات أديان جديدة أم انتكاسات؟

(١) من كتاب فلسفة الأخلاق د. عادل العوا.

QaradawiBooks.com

في الحق إنها ليست أمرًا جديدًا.. إنها انتكاسة للحرية التي اكتسبها الإنسان عبر العصور.. إنها تأخُّر ورجعية إلى فجر الحضارة، حينما كان الإنسان يعبد ما لا يستطيع أن يسيطر عليه من قُوًى غامضة، وهو حينما تقدَّم واستطاع أن يكون له دورٌ مهم في البيئة الطبيعية.. ترك عبادة قُوى الطبيعة، وعبد قوته الجماعية كما تتمثَّل في الحاكم.

إن الشيوعية قد أخطأت السبيل ـ لا في إصرارها على العدالة الاجتماعية ـ ولكن في تضحيتها بالحرية من أجل العدالة.

والرأسمالية أيضًا قد أخطأت السبيل ـ لا في إصرارها على احترام فردية الإنسان وحريته ـ ولكن في تضحيتها بالعدالة في سبيل الفردية.

إن كلًّا منهما يؤيِّد جانبًا على حساب الآخر.. وكلتا النظريتين مادية، وكما كان الإنسان لا يستطيع أن يحيا بالخبز وحده.. فإن هذين التفسيرين الماديَّين للعدالة والحرية تفسيران خاطئان.

على أنه يبدو أن كلتا العقيدتين ستستمر في الحياة، ولن تستطيع إحداهما التغلب نهائيًّا على الأخرى.. والاثنان في صراع مع الوطنية أو القومية...

ولو أن هذا الصراع لا يحظى باهتمام كبير.. ولكنه ما إن تصطدم إحداهما مع الوطنية حتى تنتصر الوطنية.. وحينئذ يصبح الشيوعي والرأسمالي وطنيًّا أولًا، وتتبعها صفته الثانية: الشيوعية أو الرأسمالية.

إن جميع الأيديولوجيات تشترك في نقطة ضعف واحدة قد تودي بهم جميعًا، وذلك في منافستها للأديان العليا على اكتساب ولاء الجماهير.

وهذا معناه العودة إلى عبادة الإنسان.. فبعد أن حرَّرته الأديان من عبودية المجتمع، وعبودية الفرد، ليتجه إلى الله وحده.. عاد الإنسان إلى

QaradawiBooks.com

سجن المجتمع، وبعد أن كان على علاقة مباشرة مع الحقيقة الخالدة.. عاد إلى ديكتاتورية العصور البائدة.

فتضاءل ليصبح مجرد «نملة اجتماعية» في مجتمع النمل!

لقد استطاعت الأديان أن تُعلِّم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية.. ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واختيار.. ولن تستطيع الأيديولوجيات أن تنسيه هذه الحقيقة.. لأنها لا تستطيع أن تحقق له الانعتاق الروحي الذي منحته له الأديان...

إن كل إنسان يخطئ ويفشل ويزل ويشقى، وفي النهاية ينتهي إلى الموت، ومن هنا جاءت حاجته العميقة إلى العون الرُّوحي الذي لا تستطيع أن تقدمه له الأيديولوجيات.

ومع هذا فإن الأيديولوجيات ستستمر في اجتذاب الناس إلى حظيرتها، ما لم تعمل الأديان على أن تستعيد سلطانها على قلوب البشر، وهي لن تستطيع ذلك إلا إذا صدقت مع نفسها واستطاعت:

١ ـ أن تتعاون بدلًا من الصراع والعداوة.

٢ ـ أن تهتم اهتمامًا جِدِّيًّا بحقائق العصر الحديث.

٣ ـ وأن تنفض عنها الطقوس التي طغت على جوهرها، مما تراكم من الخزعبلات عبر العصور.

فالدين هو قلب الحياة للإنسان، وهو جوهر الحياة للإنسانية، هو النور الذي يغمر القلوب، فلا غنى للإنسان عن الدين.. ولن تستطيع الأيديولوجيات أن تحل محل الدين؛ لأنها تمنحنا التعصُّب والتباغض،

QaradawiBooks.com

بدلًا من أن تمنحنا المحبة والتعاون، إنها قد تمنحنا لُقمة الخبز، ولكنها تسلبنا الطمأنينة النفسية والتحرُّر الرُّوحي»[١].

إن الدين الذي ينشـــده «توينبي» يتجسَّد في «الإســـلام» الحق، فهو الدين الذي تحـــرَّر من الخرافات، وقام على أســـاس من العقل والنظر، وعُني بالجوهر قبل الشـــكل، وبالـــروح قبل الطقـــوس، واهتم بحقائق العصـــر، اهتمامه بحقائق الماضي واستشـــفاف حقائق الغـــد، ودعا إلى الإخاء البشري، وإلى الحوار بالتي هي أحسن بين المختلفين.

الدين هو معقد الرجاء:

وإذا سقط إنسان العلم وإنسان الفلسفة وإنسان الأيديولوجية الوضعية، بقي إنسان الدين، ولكن أي دين هو القادر على بناء الإنسان المنشود؟

لا يمكن أن يكون المنقذ هو الديانات الوثنية في أســـيا أو إفريقيا، تلك التي جعلت الإنسان يعبد الأشياء التي سخَّرها الله له، والتي تعجز أن تجيب الإنســـان عن أســـئلته الخالدة عن الوجـــود والمعرفة والقيم العليا، كما أشـــار الأســـتاذ المودودي.. فلم يبقَ إلا الأديان الســـماوية الكبرى: اليهودية والنصْرانية والإســـلام، فأيها هو صاحب رسالة الغد، وحضارة الغد؟

عجز المسيحية عن القيام بدور المنقذ:

وجوابًا عن ذلك الســـؤال نقول منصفين: إن المســـيحية القائمة في العالَم اليوم، وفـــي الغرب خاصة، لا تســـتطيع أن تقوم بـــدور المنقذ

(١) مقال الأيديولوجيات والدين مجلة الوعي الإســـلامي، العدد (٢٧)، ترجمة أ. محمد همام الهاشمي الخبير الاجتماعي بمجلس التخطيط بالكويت.

QaradawiBooks.com

للبشرية المعاصرة مما تعانيه من القلق والتخبُّط تحت سلطان الحضارة الغربية السائدة، وأن تبني الإنسان المنشود.

وذلك لعدة أسباب نُجْملها في يلي:

١ ـ أن المسيحية في صورتها المثالية لا تحمل رسالة حضارية، بل هي في صُلب تعاليمها لا تهتم بالحياة، ولا تحتكم للعقل، ولا تدعو إلى العلم، ولا تحنو على فطرة الإنسان، هذا إن لم نقل بصراحة: إنها كما صوَّرها كَهَنَتُها معادية للحياة، مناوئة للعقل، ومجافية للعلم، قاسية على فطرة الإنسان.

والمسيحي المثالي يتجسد في «الراهب» المعتزل للحياة، المنقطع عن الدنيا، المُعرض عن الطيِّبات، حتى عن الزواج.

والأخلاق المسيحية أخلاق غير واقعية؛ لأنها فوق الطاقة المعتادة للبشر، كما في قول الإنجيل: «أحبُّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، من ضربك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر، ومن سرق قميصك فأعطِه إزارك»[(١)].

إن المسيحية الأصلية كانت رسالة مؤقتة، لفترة محدودة، ولقوم معينين، ولم تكن مهيأة قط لتكون رسالة عامة ولا خالدة، وقد عبَّر المسيح عن ذلك بأنه إنما بُعث لخراف بني إسرائيل الضالة، وأنه لم يقل كل الحق، كما بشَّر بمن يأتي بعده ليُبيِّن للناس كل شيء، ويكسر عمود الكفر.

فكيف والمسيحية الأصلية نفسها قد غُيِّرت وبُدِّلت، وذهب كتابها الأصلي، ودخل عليها من التحريف اللفظي والمعنوي في

(١) إنجيل لوقا (٦/٢٨ ـ ٢٩).

QaradawiBooks.com

عقائدها وشعائرها وأصولها وفروعها ما مسخها وأضاع حقيقتها، وأخرجها من التوحيد إلى التثليث، ومن عبادة الله الواحد إلى عبادة المسيح أو العذراء!

والمسيح يقول: «لا يدخل الغني ملكوت السماوات حتى يدخل الجمل في سَمِّ الخياط»[1]، ويقول لمن أراد أن يتبعه: «بعْ مالك ثم اتبعني»[2].

وشعار المسيحية المتوارث المشهور: اعتقد وأنت أعمى! أي اعزل إيمانك عن عقلك.

والإيمان المسيحي بطبيعته وتاريخه شيء خارج دائرة العقل، حتى قال القديس «أوجستين» يومًا في تعليل إيمانه بغير المعقول: أومن بهذا؛ لأنه محال!

معنى هذا أن المسيحي الحق لا بد أن يختار بين الحضارة والدين، فإما دين بلا حضارة، وإما حضارة بلا دين!

٢ ـ إن المسيحية ينوء كاهلها بتاريخ شديد الظُّلمة، حالك السواد، ملطَّخٌ بدماء العلماء والمفكِّرين الأحرار، تاريخ تقشعرُّ لمجرد ذكره الأبدان، وتشيب لهوله الولدان، تاريخ وقفت فيه الكنيسة مع الجمود ضد الفكر، ومع الخرافة ضد العلم، ومع الاستبداد ضد الحرية، ومع الظلام ضد النور، وصنعت من المجازر البشَريَّة ـ وخاصة مع النخبة والصفوة ـ ما لا ينساه التاريخ.

(١) إنجيل متّى (١٩/٢٣ ـ ٢٤).
(٢) إنجيل مرقص (١٠/٢١).

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

وبهذا لم يعد وجه المسيحية مقبولًا بحال للقيام بالدور المنتظر، حتى لو افترضنا قدرتها على ذلك، وما هي بقادرة.

٣ ـ إن المسيحية لا تنفصل عن «الإكليروس»؛ عن رجال الكهنوت، وسيادة المسيحية تعني سيادة هؤلاء الذين يتحكَّمون في ضمائر الناس، ويزعمون أنهم وحدهم الممسكون بمفاتيح أبواب الملكوت، وأنهم حلقة الوصل بين السماء والأرض، محتكرو الوساطة بين الله وعباده، والبشرية التي دفعت ما دفعت للتحرر من استبداد الملوك ورجال الدنيا، ليست مستعدَّة أن تقع أسيرة لاستبداد رجال الدين.

٤ ـ إن الحضارة الغربية يزعم لها الكثيرون أنها حضارة مسيحية! ويحاولون إلصاقها بالمسيح، وإن كان المسيح منها براء، فهي كما قلتُ مرةً حضارة المسيح الدجَّال، لا حضارة المسيح ابن مريم؛ لأن الدجَّال أعور، وهي حضارة عوراء، تنظر إلى الحياة بعين واحدة، هي العين المادية.

ولهذا كله يستبعد المفكرون الغربيون أنفسهم أن تكون المسيحية هي مصدر الخلاص وسبيل النجاة.

فدور المسيحية قد انتهى إلى غير رجعة، المسيح عندهم «قد مات»، وهو ما عبَّر عنه «نيتشه» وغيره بأن الإله قد مات!

وعبارة «موت الإله» شديدة الوقع على الحس الإسلامي والعقل الإسلامي؛ لأن الإله عندنا هو رب الناس، ملك الناس، إله الناس، الذي خلقهم وسواهم وأحياهم، ثم يميتهم ثم يحييهم، ومثل هذا الإله المُحيي المميت لا يُتصوَّر أن يموت، بل هو الحي القيوم الذي لا تأخذه سِنَة ولا ونوم، بلْهَ أن يعتريه الموت.

QaradawiBooks.com

أما إلـــه الغرب! أو إله المســـيحيين، فهو في اعتقادهم مجرد بشـــر تجسَّد فيه، أو حل فيه رُوح الإله، وهم يعتقدون أنه صُلِب من قبل، فلا غرابة أن يموت مِن بعد!

يقول البروفيســـور «رينيه دوبو» في نقده للحضـــارة الغربية، وبعد فصل كامل ســـماه «البحث عن معنـــى» وتحت عنـــوان فصل جديد: «التخلص من أســـطورة النمو والتنمية»: «إذا راجعنا التاريخ ربما يظهر موضوع «البحث عن معنى» عملًا لا فائـــدة منه، ففي كل مرة تتعرض البشَرية لمثاليَّة تعطيها معنى لحياتها تتجزأ هذه المثالية وتختفي، ولقد ظهر في الماضي كثير من العقائد الدينية والفلسفية والاجتماعية أنارت للبشر طريقهم لمدةٍ ما، وضاعت من بعد ذلك في مستنقع من شكوك فلسفية وجدلٍ ضيِّق عقيم.

بدت المســـيحية في القرون الوُســـطى كقوَّة موحَّـــدة عندما أعطت شعوب أوروبا بعض الآمال، والمطامح المشتركة، والسلوك الاجتماعي المستوحى من محبة الله وخوفه. ولقد حرَّكت أفكار المسيحية القدرات البشرية في أعمال جماعية مدهشة، كبناء الأديرة والكاتدرائيات ذات الفن القوطي والروماني.

ولكن بعـــد ذلك انشـــغل المســـيحيون باطراد فـــي مجـالات لاهوتيـة مكرَّرة، وتحوَّلت المسيحية من عقيدة رُوحانية من المحبَّة إلى اعتقاد جامـــد محافظ خالٍ من أي إلهـــام، والآن كثيرًا ما نراها ـ أي المســـيحية ـ تتفتَّـــت لتصبح فئـــات متعددة، تتبنـــى أخلاقًا اجتماعية مبهمة.

فاللاهوتيون مشغولون بمناقشات فلسفيَّة زائفة لمحاولة التوفيق بين المسيحية والرأي الذي لا معنى له، عن «موت الإله»[١]!

ليت «دوبو» عرف الإسلام بحق، إذن لوجد فيه ما افتقده في المسيحية!

اليهودية أشد عجزًا:

وإذا كانت المسيحية عاجزة عن القيام بدور المنقذ، فإن اليهودية أشد عجزًا!

واليهودية نفسها لا تزعم أن لديها هداية تقدِّمها للبشر، فهي ديانة يغلب عليها الطابع العنصري، وبنو إسرائيل وحدهم دون الناس هم شعب الله المختار!

و«الله» في دين اليهود ليس رب العالَمين، ولكنه رب إسرائيل، والآخرة عند اليهود ليست ملكوت السماء عند النصارى، ولا جنة الخلد عند المسلمين، إنما هي مُلك إسرائيل.

و«العهد القديم» كتاب اليهود المقدَّس الذي يضم أسفار التوراة وملحقاتها يدور جلُّه حول تاريخ إسرائيل وأحلام إسرائيل.

التوحيد الذي دعا إليه موسى عليه السلام ضاع في هذا الكتاب الذي شوَّه صورة الأُلوهية، وأضفى على الإله من نقائص البشَر، من الجهل والخوف، والحسد والضعف، ما يلحظه كل قارئ للتوراة.

والأنبياء الذي جعلهم الله هداة للبشر ومعلِّمين لُوِّثت سيرتهم، وأُلْصقت بهم التهم، في هذا الكتاب، فلم يعودوا لِيَصلحوا أسوة للناس.

(١) إنسانية الإنسان صـ٢١٩، ٢٢٠.

QaradawiBooks.com

والشريعة فيه تُحل لبني إسرائيل ما تُحرِّمه على غيرهم، فالربا حرام إذا تعامل اليهودي مع مثله، أما مع غيره من الناس فهو حلال زلال.

أما تعاليم «التلمود» فتجعل من اليهود «عصابة» تستحل دماء البشر، وأموالهم وحرماتهم، باسم الدين، فكل مَن عداهم من الأمم يجب أن يكونوا عبيدًا لهم، وأن يكون لهم السيادة على العالَم، وكل مَن دونهم أحطُّ من البهائم.

على أن اليهود لو كانوا يملكون رسالة لهداية البشَر، لكانوا أبعد الناس عن الصلاحية لحملها، فهم بأنانيتهم وعزلتهم، وحقدهم وطمعهم وشرههم؛ لا يصلحون لحمل رسالة عالمية.

وهم بما نشر عنهم في بروتوكولات حكماء صهيون، وما ظهر على أيديهم في فلسطين ولبنان؛ أعداء البشرية لا منقذوها!

وهم بتاريخهم الدموي مع أنبياء الله ورسله: زكريا ويحيى والمسيح ومحمد عليهم الصلاة والسلام؛ لا يصلحون لحمل رسالة.

وهم بتاريخهم في إيقاد الفتن، وتمزيق الجماعات، وبث الأفكار الهدامة، ونشْر الفلسفات، والمذاهب الانحلالية؛ لا يصلحون للإنقاذ، وإخراج البشَرية من الظلمات إلى النور، فإن فاقد الشيء لا يعطيه!

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الحضارة التي ينشُدها العالَم تتجلى في الإسلام

إن البشـــرية اليوم في حاجة إلى حضارة جديدة، لها فلسفة ورسالة غير فلســـفة الحضـــارة الغربية ورســـالتها، الحضـــارة الغربية بشـــقّيها: الرأســـمالي والشـــيوعي، فكلاهما ثمرة لشـــجرة واحدة، هي الشـــجرة الملعونة في القرآن والتوراة والإنجيل، هي شجرة المادية النفعية.

البشـــرية في حاجة إلى حضارة تُعيد إليها إيمانها بالله وبرســـالاته، وبلقائه وبحســـابه وعدالة جزائه، وبالقيم العليا التي لا يكون الإنســـان إنسانًا بغيرها، ولا يكون للحياة مذاق ولا معنى بسواها.

البشرية في حاجة ماسة إلى حضارة جديدة:

- تعطيها الدين، ولا تفقدها العلم.
- تعطيها الإيمان، ولا تسلبها العقل.
- تعطيها الروح، ولا تحرمها المادة.
- تعطيها الآخرة، ولا تُحرِّم عليها الدنيا.
- تعطيها الحق، ولا تمنعها القوة.
- تعطيها الأخلاق، ولا تسلبها الحرية.

QaradawiBooks.com

إنه في حاجة إلى حضارة تتصل بها الأرض بالسماء، وتتعانق فيها المعاني الربانية والمصالح الإنسانية، ويتآخى فيها العقل المفكِّر والقلب المؤمن، ويمضِي فيها الإنسان قُدُمًا إلى الأمام مستضيئًا بنور الوحي الإلهي، ونور الفكر البشري، فكلاهما من فضل الله ورحمته بالإنسان، ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥].

وليست هذه الحضارة إلا حضارة الإسلام، التي يتجلى فيها التوازن والتكامل بصورة لا يقدر عليها إلا العليم الحكيم، الذي لا يَعْزُب عن علمه مثقال ذرة في الأرض أو السماوات.

حضارة التوازن والتكامل:

إن الإسلام هو الرسالة الوحيدة التي تُقدِّم للبشَرية منهجًا يتميَّز بالتوازن والتكامل، ونعني بالتوازن: التوسط بين طرفي الغلو والتفريط، اللذين لم يسلم منهما منهج بشري صِرْف، أو منهج ديني دخله تحريف البشر، وهو ما يُعبِّر عنه القرآن باسم «الصراط المستقيم»، وهو المذكور في فاتحة الكتاب، الذي يسأل المسلم ربه كل يوم أن يهديه إليه ما لا يقل عن سبع عشْرة مرة في صلواته: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، فهو منهج متميِّز عن طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين.

وقد يُعبِّر عنه بـ «الميزان» الذي يجب ألا يشوبه طغيانٌ ولا إخسارٌ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمٰن: ٧ ـ ٩].

فالطغيان هو الميل إلى جانب الغلو والإفراط، والإخسار: هو الميل إلى جانب التقصير والتفريط، وكلاهما ذميم.

QaradawiBooks.com

في هذا المنهج تلتقي المتقابلات التي يحسب كثير من الناس التقاءها ضربًا من المُحال؛ لأنها في نظرهم متضادة، والضدان لا يجتمعان، ولكنها في الإسلام تلتقي في صورة من الاتســاق المُبْدِع، بحيث يأخذ كل منها المساحة المناسبة له، دون أن يطغى على مقابله: لا طغيان ولا إخسار.

فهو يضع الموازين القسط:

- بين الربانية والإنسانية.
- بين الوحي والعقل.
- بين الروحية والمادية.
- بين الأُخروية والدنيوية.
- بين الفردية والجَماعية.
- بين المثالية والواقعية.
- بين الماضوية والمستقبلية.
- بين المسؤولية والحرية.
- بين الاتباع والابتداع.
- بين الواجبات والحقوق.
- بين الثبات والتغير.
- بين الاعتزاز والتسامح.

وبهذا التوازن تتميَّز الأمة المسلمة عن غيرها من الأمم، ويضعها في مرتبة الأســتاذية، وهو ما خاطبها الله تعالى به بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

QaradawiBooks.com

وأما التكامل، فلا نعني به التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين، كالذي ذكرناه في التوازن.

إنما نعني به اجتماعُ معانٍ وأمورٍ يكمل بعضها بعضًا، ولا يُستغنى بأحدها عن الآخر، لكي يؤدِّي الإنسان رسالته كاملة في عمارة الأرض، وخلافة الله وعبادته، كما أمر الله تعالى.

مثال ذلك:

- العلم والإيمان.
- الحق والقوة.
- العقيدة والعمل.
- الدين والدولة.
- التربية والتشريع.
- وازع الإيمان ووازع السلطان.
- الإبداع المادي والسمو الخلقي.
- القوة العسكرية والرُّوح المعنوية.

فليس العلم مقابلًا أو مضادًا للإيمان، في نظر الإسلام، ولا في واقع الأمر. وليس الحق مقابلًا للقوة، وليست العقيدة مقابلة للعمل، ولا التربية مقابلة للتشريع... وهكذا، إنما هي معان يُكمِّل بعضها بعضًا.

فإن الحياة التي ينشُدها الإسلام لا تستقيم ولا تتكامل إلا بهذه الأمور كلها، وعيب المناهج والأنظمة البشرية: أنها تهتم ببعض الجوانب دون بعض، وتركز على بعض القيم دون بعض، فنراها تُعنى ـ مثلًا ـ بالاقتصاد

QaradawiBooks.com

والإنتاج، أعني بإشباع البطون، ولكن لا تُعنى كثيرًا بإشباع العقول، وقد تُعنى بإشباع العقول بالعلم المادي، ولكنها لا تعنى بإشباع القلوب والأرواح برحيق الإيمان. وقد تهتمُّ بتيسير المواصلات بين البلدان، على حين تُغفل الاهتمام بالصلات الاجتماعية والنفسية بين الناس.

ولكن الإسلام منهج الله يُعنى بإشباع حاجات الإنسان كله: جسمه وعقله وروحه، ويهتم بالإنسان في كل أحواله: فردًا، وعضوًا في أسرة، وعضوًا في مجتمع، ويوجِّه عنايته التوجيهية والتشريعية إلى الإنسان في كل مراحله وأوضاعه:

ـ الإنسان طفلًا، والإنسان شابًّا، والإنسان شيخًا.

ـ الإنسان رجلًا، والإنسان امرأة.

ـ الإنسان حاكمًا، والإنسان محكومًا.

الإنسان من حيث هو إنسان: أبيض أو أسود، شرقي أو غربي، غني أو فقير، يعيش في ناطحات السحاب أو في الغابات والأدغال.

تكامل العلم والإيمان في الإسلام:

ومن أظهر ما يتجلَّى فيه التكامل الإسلامي، هو تكامل العلم والإيمان.

فمن مظاهر التكامل في نظام الإسلام أن التقى به العلم والإيمان جنبًا إلى جنب، ولم يقُم في مجتمعه ما قام في المجتمعات الأخرى من نزاع بين العلم والدين، راح ضحيته الألوف من أهل العلم والفكر، ومن رأى رأيهم أو سار على دربهم، وتاريخ أوروبا في العصور الوسطى حافل بالمجازر البشرية الرهيبة التي سيق إليها العلماء والدارسون في ظل محاكم التفتيش وغيرها.

QaradawiBooks.com

وقد حكى الشيخ محمد عبده في كتابه «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية»[١] جُملًا من هذه الوقائع تقشعر لمجرد ذكرها الجلود، وتستنكرها في عصْرنا أدنى العقول.

ومن حُسن حظنا نحن المسلمين أن ديننا لا يضيق بالدعوة إلى العلم والتقدم، كما قد يتوهَّم الذين لا يعرفون الإسلام، ويريدون أن يُجروا عليه ما جرى على الأديان الأخرى.

ونحن نعتبر التقدم العلمي وما يُثمره في الحياة من استخدامات تكنولوجية نافعة تيسِّر على الإنسان حياته، وتوفِّر عليه جهده البدني والعقلي؛ عبادةً بالنسبة للفرد المسلم، يتقرَّب بمعرفتها وإتقانها إلى ربه، كما يتقرَّب بالصلاة والصيام. وهي بالنسبة للمجتمع فريضةٌ كفائية، يأثم المجتمع كله إذا لم يقم من أبنائه عدد كاف يسد كل الثُّغْرات، ويلبي كل الحاجات، التي يتطلبها المجتمع في كل مجالاته المدنية والعسكرية.

إن مما تميَّز به الإسلام عن غيره من الأديان الأخرى، هو احترامه للعقل، ودعوته إلى النظر والتفكير، وحثه على العلم والتعلُّم، وإشادته بالعلماء وأصحاب العقول، وحملته على الجمود والجهل، وتمجيده للقراءة والكتابة والقلم، منذ أول آيات أُنزلت من القرآن.

لم يُقل في الإسلام ما قيل في أديان سابقة من مثل: آمِن ثم اعلم، أو أغمض عينيك ثم اتبعني! أو الجهالة أم التقوى! بل قرَّر مَن يُعتدُّ بهم من علماء المسلمين: أن إيمان المقلِّد لا يُقبل، وأن العقل أساس النقل.

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للأستاذ الإمام محمد عبده صـ ٤٢ ـ ٤٨، نشر دار الحداثة، ط٣، ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

فبالعقل ثبت وجود الله في وجه الملاحدة والمشكِّكين، وبالعقل ثبت إمكان الوحي ووقوعه، وثبتت النبوة الخاتمة، وثبت إعجاز القرآن.

ولا عجب أن طالب القرآن المشركين وأمثالهم من أصحاب العقائد الباطلة بقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

وقال في شأنهم: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦].

لقد شاع في تاريخ الكنيسة الغربية طوال العصور الوسطى عندهم: أن العقل ضد الوحي، وأن العلم عدو الدين، وأن الفكر خصم الإيمان، وأن الشريعة نقيض الحكمة، أما الإسلام فلم يعرف هذه المشكلة، فالعقل والوحي عنده أثران من آثار الأُلوهية، لا يتعارضان، ولا يتناقضان، ولهذا نرى الوحي يمجِّد العقل، ويحثُّ على الانتفاع به، ونرى العقل هو الدليل على صدق الوحي، وهو الأداة لفهمه وشرحه.

ومن هنا قرَّر المحقِّقون من أئمة الإسلام: أنه لا تعارض أبدًا بين صحيح المنقول وصريح المعقول، وما ظنه بعض الناس من تعارض، فلا بد أنه نتيجة خطأ في فهم ما هو من العقل أو ما هو من الدين.

أ ـ ولقد مضت أربعةَ عشر قرنًا على نزول القرآن الكريم، نشأ فيها كثير من المعارف والأفكار، ورغم هذا لم تخالف آية من آياته حقيقة علمية ثابتة، وهذا من دلائل الإعجاز في هذا الكتاب العظيم.

ب ـ ومع أن القرآن ليس كتاب «علم» بالمعنى الاصطلاحي للعلم الآن، فقد تضمَّن إشارات كثيرة إلى حقائق علمية، لم تكن تخطر على بال أحد في عصْر نزوله ولا بعد عصره بقرون، وأُلِّفت في ذلك كتب

كثيرة كشفت عن لون جديد من إعجاز القرآن، اشتهرت تسميته «الإعجاز العلمي»، عُقِـدت لبيانه ندوات ومؤتمرات في أقطار عدة، وأُنشـئت له هيئة مستقلة في رابطة العالَم الإسلامي بمكة المكرمة.

غير مرخصة للطباعة

ج ـ وأكثر من ذلك أن القرآن ينشئ بتعاليمه «العقلية العملية» التي تنكر الخرافة، وترفض اتباع الظنون والأهواء، وتستعصي على التبعية والتقليد، وتؤمن بالبرهان في العقليات، وبالتوثيق في النقليات، وتعتمد على الملاحظة والتجربة في الماديات، وتعتقد أن العقل نعمة مُنِحها الإنسان، لينظر بها، ويفكر في الانتفاع بالكون وما فيه، والاستفادة من سير التاريخ، وما يجري فيه من سنن الله لا تتبدَّل. ففيه آيات: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤].

د ـ ويشيد القرآن بالعلماء في آيات كثيرة من سوره: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ويجعلهم وحدهم أهلًا لخشية الله تعالى ومخافته: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. وقد ذكر القرآن العلماء هنا بعد ذكر السماء والماء والنبات والجبال والحيوان والإنسان، مما يشير إلى أن العلماء هنا هم الراسخون في العلوم الكونية والحيوية وما يتعلَّق بها، وأن علمهم هذا يُعرِّفهم بقدرة الله ﷻ، وعظيم نعمته، وواسع رحمته، وبالغ حكمته.

هـ ـ وذكر القرآن من قصص النبيين والصالحين ما يلفت الأنظار بقوة إلى قيمة العلم ومنزلته، في إعانة الإنسان على وظيفته في خلافة الله في الأرض، واستخدامه في كثير من الأمور النافعة، كما في قصة آدم

نسخة مبدئية

QaradawiBooks.com

وتفوُّقه على الملائكة بالعلم، وقصة يوسف وتدبيره أمر مصْر في أعوام المجاعة بالعلم والتخطيط، وقصة سليمان وإحضاره عرش بلقيس بالعلم، وغيرها من قصص النبيين والمؤمنين.

وفي ضوء هذه القيم والمفاهيم تأسست النهضة العلمية الكبرى في رحاب الحضارة الإسلامية المتكاملة.. ترجم المسلمون كتب «الأوائل» كما كانوا يسمونهم من المشرق والمغرب، وخصوصًا: اليونان، الذين كان لهم باع طويل في الفلسفة، التي كانت تشمل شُعَبها: الجوانب العلمية والرياضية والطبيعية، فاستفاد المسلمون منها، وهذَّبوها، وشرحوها، وأضافوا إليها إضافات هامة، بل ابتكروا علومًا جديدة مثل علم «الجبر»، واكتشفوا المنهج الاستقرائي والتجريبي الذي طبَّقوه عمليًّا في مختلف جوانب الحياة، والذي اقتبسه الغربيون منهم، وقامت على أساسه النهضة الغربية الحديثة، فهي حسنة من حسنات الحضارة الإسلامية، كما شهد بذلك المنصفون من الغربيون أنفسهم.

لقد كانت الحضارة الإسلامية هي الحضارة الأولى ـ وربما الحضارة الفذَّة ـ في العالَم لعدة قرون، يوم كانت أوروبا غارقة في بحار الظلمات، ولا ترى الضوء إلا من سمِّ الخياط.

وكانت جامعات المسلمين هي جامعات العلم الكبرى في العالَم في بغداد أو في القاهرة، أو في دمشق، أو في قرطبة، والأندلس، أو في غيرها من مواطن العلم في عالَم الإسلام، وكان الطلاب من أنحاء العالَم يفِدون إلى هذه الجامعات ليتعلَّموا ويتقدَّموا.

وكانت المراجع العلمية في العالَم هي المراجع الإسلامية: في الطب أو الصيدلة أو الفلك أو الفيزياء والبصريات، أو الكيمياء أو الرياضيات،

QaradawiBooks.com

أو تقويم البلدان والجغرافيا.. وغيرهـا، وإذا أخذنا الطب مثلًا نجد هذه الكتب العربية الإسـلامية كانت مراجع للعالَم عدة قـرون: «الحاوي» للرازي، «القانون» لابن سـينا، «الكليات» لابن رشـد، «التصريف لمن عجز عن التأليف» للزهراوي.. إلخ.

وكانت أسماء علماء المسلمين هي ألمع الأسـماء العلمية في تلك العصور، بل هي الأسـماء الوحيدة المعروفة في تخصصاتها المتنوعة، مثل الخوارزمي والبيرونـي وابن الهيثم وابن النفيـس وابن البيطار... وغيرهم وغيرهم.

إلى جوار علماء الإنسانيات مثل الفارابي والغزالي وابن طفيل وابن تيمية وابن خلدون... وغيرهم.

وكانت اللغة العربية هي لغة العلم الأولى في العالَم، فقد وسعت كل العلوم المترجمة والمبتكرة، وكتبت بها في سلاسة ووضوح، ولم يشك عالِم يومًا ما أن اللغة ضـاق صدرها بعلم من العلـوم، أو عجزت عن التعبير عنه.

وكانت مدن المسـلمين في عالَم الإسـلام هـي التي احتضنت هـذه النهضة الشـامخة، وتجلَّـت فيهـا آثارهـا الماديـة: فـي مسـاجدها، وفي مدارسـها، وفي قصورها، وفي مستشفياتها، وفي شتى جوانب حياتها.

كما تجلَّت آثارها المعنوية في سلوك المسلمين: في صلتهم بربهم، في صلاتهم وصيامهـم، في زكاتهم وصدقاتهم، فـي أوقافهم الخيرية التي شملت الإنسان والحيوان، في مواقفهم الإنسانية والأخلاقية التي تميَّزوا بها عمن سواهم، حتى في أثناء الحروب، حتى قال «جوستاف

QaradawiBooks.com

لوبون»: «ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب»[1]. يعني: من المسلمين.

كانت حضارتهم حضارة ربانية، كل شيء فيها موصول بذكر الله، وكل أمر ذي بال فيها لا يُبدأ باسم الله فهو أبتر، وكانت حضارة أخلاقية، لا ينفصل فيها العلم عن الأخلاق، ولا الاقتصاد عن الأخلاق، ولا السياسة عن الأخلاق، ولا الحرب عن الأخلاق.

العلم لا يُغني بغير الإيمان:

لهذا نقول: رغم إيماننا بالعلم وأهميته، وبالعقل وضرورته، فليس العقل كل شيء في الإنسان، ولا العلم كل شيء في الحياة.

إن العقل له ميدانه الذي لا يتجاوزه، والعلم له مجاله الذي لا يتعدَّاه، وبعد ذلك يقف العقل والعلم حائرين. فسرُّ الوجود، وغاية الحياة، ومبدأ الكون ومصيره، وقضية الموت والحياة، وما يتصلُّ بذلك من قضايا الوجود الكبرى، لا يستطيع العقل أن يدركها وحده، ولا يستطيع العلم أن يمدَّ إليها سلطانه، لأن سلطانه فيما يخضع للملاحظة والتجربة، أي في الماديات والمحسوسات.

فكان لا بد من معرفة أخرى تنبع من مصدر آخر، لتحديد مركز الإنسان وغايته، ومهمته في هذه الأرض، وعلاقته بالكون والحياة، وخالق الكون والحياة، وليس هذا المصدر إلا الوحي الإلهي، ولا سبيل إلى التلقي عنه إلا بالإيمان، وقد حاول بعض مفكري البشَر في مختلف

(١) انظر: حضارة العرب صـ ٦٠٥، ترجمة عادل زعيتر، نشر دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط٣، ١٩٥٦م.

QaradawiBooks.com

العصور أن يصلوا إلى الحقائق الكبرى بعقولهم، وأن يحلُّوا مشكلات الوجود بأفكارهم، فلم يستطيعوا، وخرجوا بنتائج متناقضة، لا يطمئن بها قلب، ولا تستقيم بها حياة. إن الإيمان وحده هو الطريق المأمون، إذا استند إلى الوحي المعصوم، ولا يوجد وحي معصوم اليوم إلا في كتاب الإسلام.

إن الإيمان كما جاءت به الرسالة الخاتمة هو الذي يفسِّر قضايا الوجود الكبرى، ويصل الإنسان بالوجود الكبير، وبالأزل والأبد، ويجعل لحياته طعمًا وهدفًا ورسالة.

وهو مع ذلك الذي يعصم العلم من الانحراف، ويحول دون استخدامه في الشَّرِّ والعدوان، ولهذا رأينا سليمان حين أُحضر إليه عرش بلقيس بواسطة ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النمل: ٤٠]، يُرجِع الفضل إلى الله، فلا يطغى أو يغترّ، بل قال ما قصَّه القرآن: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وفي قصة ذي القرنين بعد أن أتمَّ بناء السد، يقول في تواضع المؤمنين: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

ورأينا العلم الذي قام بتوجيه الإيمان في ظل الحضارة الإسلامية يبني ويعمِّر، ويعمل لخدمة الإنسان، وتزكية الإنسان، وإسعاد الإنسان.

كما رأينا حين قام العلم في الغرب لظروفه التاريخية مع الكنيسة بعيدًا عن هُدى الله، مقطوعًا عن الإيمان بالله، كانت نتيجته الأسلحة الكيماوية والجرثومية وآلات الفتك والدمار، التي جعلت البشرية تبيت على أحلام مزعجة. وتصحو على مخاوف مفزعة، لقد أعطاها العلم الوسائل، ولكنه لم يعطها الغايات، وحقَّق لها المتعة المادية، ولكن لم

QaradawiBooks.com

يحقِّق لها السكينة النفسية، انتصرت به على الطبيعة، ولكن لم تنتصر به على نفسها وشهواتها.

ومن هنا: كان لا بد لنا من إيمان العلماء، وعلم المؤمنين، وهذا ما تقوم عليه الحياة الإسلامية المتكاملة.

ولهذا جمعت أول آية نزلت من القرآن بين العلم والإيمان، وهي قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، فالقراءة ـ وهي مفتاح العلم ـ إنما يريدها الإسلام قراءة باسم الله الخالق.

وإذا كان مفتاح الإسلام هو العلم والفهم، فإن جوهر الإسلام هو الإيمان، وجوهر الإيمان هو التوحيد، بل هو جوهر الرسالات السماوية كلها، ولهذا كان النداء الأول في رسالة الرسل: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

مكانة الإيمان من حياة الإنسان:

إن حقيقة الدين ومهمة الإيمان تتجلى:

أولًا: في وصل ما بين الإنسان وربه، وإشعاره بقربه وحبِّه، وملءِ ما بين جنبيه ثقة به، واعتمادًا عليه، واطمئنانًا إليه، وأُنسًا به، ويقينًا بكل ما جاء من عنده.

وتتمثل ثانيًا: في الارتفاع بقيمة الإنسان من مجرد «حيوان متطوِّر» كما تَصَوَّره أو صوَّره بعض الناس، إلى كائن مكرَّم مكلَّف مسؤول، مخلوق في صورة الخالق، مخلوق في أحسن تقويم، مستخلَف في الأرض، مغبوطٌ من الملأ الأعلى، فلا غرو أن يعمل الدين على إعلاء «نفخة الرُّوح الإلهي» في كيانه على «قبضة الطين والحمأ المسنون» فيه،

QaradawiBooks.com

وبذلك لا يعيش الإنسان مشدودًا إلى أسفل.. إلى المتاع الأدنى، بل يحيا دائمًا مشرئِبًّا متطلِّعًا إلى الأفق الأعلى.

وتتمثل ثالثًا: في توسيع صلته بالكون العريض من حوله، فهو ليس كائنًا طُفيْليًّا في هذا الوجود الكبير، ولا هو ـ أي الكون ـ بالعدو الذي يصارعه، أو المجهول الذي يطارده، بل هذا الكون كله مسخَّر لمنفعته، وهو كذلك آية تدلُّه على ربه. كما أن الناس ـ كل الناس ـ فيه إخوة له، يشاركونه في العبودية لله والبنوة لآدم.

وتتمثل رابعًا: في مد عُمر هذا الوجود إلى ما بعد هذه الحياة القصيرة الأمد، أي إلى حياة الخلود والأبد، فليست قصة البشرية مجرَّد أرحام تدفع وأرض تبلع، أو كما قال القرآن على لسان الجاحدين: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]، بل الأمر كما قال عمر بن عبد العزيز: «إنكم خُلِقتم للأبد، وإنما تُنقَلون من دار إلى دار»[(١)]!

وهذه المعاني كلها إنما يُنشئها ويحييها تنبيه الإنسان إلى سرِّ وجوده، وحقيقة إنسانيته، والوعي برسالته في الحياة، وكلها من ثمرات الإيمان: الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالخلود في الآخرة، وهما ركنان أساسيان في كل دين.

لا بد من عملٍ لتجديد الإيمان:

ولهذا كان لا بد من عمل لتجديد الإيمان في الأنفس والحياة، بكل الوسائل والأساليب، فإن من أخطر الأمور تركيز الفلسفات والأنظمة التعليمية والتربوية على الجوانب المادية والتكنولوجية والعملية

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٣٤)، في خطبة طويلة.

QaradawiBooks.com

ـ وحدها ـ في مناهجها وكتبها ومدارسها، والنظرة إلى الدين نظرة إهمال أو عـداء، اتباعًـا للعلمانيِّين في الغرب، أو الماركسـيِّين في الشـرق، فالأوَّلون يُسقطونه من الحساب، والآخرون يعادونه سرًّا وعلانية.

فإذا دخل الدين المدرسة أو الجامعة تحت سلطان العلمانية لم يدخل دخول صاحب البيت ورب الدار، بل دخل كأنـه زائرٌ دخيل، أو ضيفٌ ثقيل، ساعة في آخر اليوم الدراسي، أو الأسبوع الجامعي، تُسَد بها خانة، أو يُملأ بها فراغ، حتى تسكت ألسنة المتدينين المتزمتين المُتعبين!

ولا عجـب، أن أصبح التعليم يشـكو الجفاف والجفـاء والخواء.. ويحتاج إلى الرُّوح الذي يوقـظ القلوب، ويُحرِّك المشـاعر، ويردُّ إلى الجثث الهامدة الحياة! ورحم الله الفيلسوف الشاعر المسلم محمد إقبال الذي قال عن هذا «التعليـم الحديث» كما كان يُسـمَّى في عصره: «إنه لا يُعلِّم العين الدموع، ولا القلب الخشوع»!

وما يقال عن التعليم والتربية، يقال مثله عـن الإعلام وأجهزته الجبَّارة المؤثِّرة في التوجيه والتثقيف العام، بل غدا الإعلام اليوم بتقاليده ومواريثه ومفاهيمه السائدة أشدَّ خطرًا من أي شيءٍ آخرَ على الإيمان وأخلاق الإيمان.

إن الإيمان هو سـبيلنا إلى رضـوان الله تعالى، وعُدتنـا في طريق الآخرة، فقد حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشـهوات، ولن نقدر على احتمال المكاره في طريق الجنة، ولا أن نقاوم الشـهوات المُفضية إلى النار، إلا بقوة رُوحية داخلية، تستحبُّ المكاره، وتستعذب العذاب في سبيل الله، كما تركل الشهوات ولذائذ الدنيا كلها، إذا كان من ورائها سُخط الله.

QaradawiBooks.com

وهذه القوة الرُّوحية إنما يصنعها الإيمان، إنه هو الذي يُحَفِّزنا إلى أداء المهمة التي خُلِقنا لها، وهي عبادة الله تعالى، ويَحبِّب إلينا هذه العبادة حتى تغدو لنا قرة عين.

وهو الذي يأخذ بيد المرء ليتقرب إلى الله تعالى بأداء فرائضه الواجبة عليه، ويزداد تقرُّبًا إليه بنوافل الطاعات، حتى يربح حبَّه له، فإذا أحبَّه سبحانه كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وإذا دعاه أجابه، وإذا سأله أعطاه[1].

على أن الإيمان ليس سبيلًا إلى سعادة الآخرة فحسْب، بل هو السبيل أيضًا إلى سعادة الدنيا التي يحرص كل الناس عليها، ولا يجدها منهم إلا القليل، أو أقل القليل، وكم من أشياء يخطف بريقها أبصارهم، فيلهثون وراءها، يحسبون أن فيها السعادة المنشودة، فإذا هي سراب بِقِيعة، يحسبه الظمآن ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

إن الإيمان وحده هو الذي يمنح الإنسان الطمأنينة وسكينة النفس التي هي رُوح السعادة، وسعادة الرُّوح: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

قد يستطيع الإنسان بواسطة المال والثراء أن يوفِّر لنفسه كثيرًا من اللذائذ، وأن يعُبَّ من الشهوات ما يمكن أن يُشترى بالدرهم والدينار، ولكن السعادة الحقيقية لا تُعرض في الأسواق، ولا تُشترى بالنقود، ولا بالنفوذ؛ لأنها تنبع من أعماق النفس، وليست سلعة نستوردها من هنا أو

(١) إشارة إلى الحديث القدسي: «ما تقرب عبدي إليَّ بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها...». رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

هناك، وهي التي قال عنها أحد السلف الصالح على شظَف عيشه: «إننا نعيش في سعادة، لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف»[١]!

وقد يستطيع الإنسان بواسطة العلم أن يعيش في عالَم أوتوماتيكي يضغط بأصبعه على زر عن يمينه أو يساره، أو أمامه أو خلفه، فيدنو له البعيد، ويلين له الحديد، ويتحرك الساكن، ويسكن المتحرك، ويعيش ناعمًا مرفهًا، كأن عشرات من الخدم بين يديه، فهو لا يقل ـ بل يزيد ـ فيما يتمتع به عن قارون العتيد، أو هارون الرشيد. بل استطاع الإنسان بالعلم أن يُحرِّك الأشياء ويُسكنها، وأن يُنطق الأجهزة ويُسكتها، بغير أزرار!

ولكن العلم وإن هيَّأ للإنسان رفاهية الجسم لم يُهيِّئ له طمأنينة القلب. منحه الوسائل، ولم يمنحه غاية يعيش لها؛ لأن هذه ليست مهمة العلم، بل هي مهمة الإيمان.

والإيمان الذي نعنيه، هو الذي ينمِّي في الإنسان حوافز الخير، وكراهية الشَّرِّ، ويملأ ما بين جنبيه شوقًا إلى التزكِّي، ورغبة في الترقِّي عن جاذبية الطين الأدنى، إلى أُفق الرُّوح الأعلى، وهو الذي يعطي الإنسان الطاقة والقدرة للتحليق بأشواقه الصاعدة، فوق مستوى الغرائز الهابطة، وهو الذي يهب الشباب في عنفوانه أمام الشهوات العارمة إرادة كإرادة يوسف الصديق، تقبل ذُلَّ السجن، وترفض إغراء المعصية، وشعاره: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٧٠/٧)، عن إبراهيم بن أدهم، نشر مكتبة السعادة، القاهرة، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

QaradawiBooks.com

الإيمان هو الذي يمنح صاحبه في مواقف التضحية والفداء، صبرًا كصبر إسماعيل، وتسليمًا كتسليمه لأمر الله، إذ قال له أبوه إبراهيم: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

إن الإيمان الذي ننشده هو وحده الذي تنبت في تربته شجرة الأخلاق، وتنمو في ربوعه أزهار الفضائل المثلى والقيم العليا، ولقد أثبت التاريخ والواقع أن الأمم بدون أخلاق لا تنهض بعبء جسيم، ولا تقوم بعمل مبدع.

وإن أمة بلا أخلاق، كبنيان بلا أساس، فهو مهما علا وامتد حتمي الانهيار، ورحم الله شوقي إذ قال:

وإذا أُصيبَ القومُ في أخلاقهم فأقم عليهم مأتمًا وعويلًا[1]!

ولطالما حاول كثيرٌ من الحكام والزعماء والمسؤولين أن يضبطوا سلوك مجتمعاتهم بالقوانين والقرارات وحدها، ناسين أن الإنسان إنما يُقاد من داخله لا من خارجه، فلم تُغْنِ عنهم قوانينهم ولوائحهم شيئًا، وعادوا بالخيبة والخُسْران، وغلب الهوى على الحق، والأنانية على الخير، وعلا صوت الشهوة على صوت الواجب، ولا غرو أن شاعت جرائم كُبرى، وظهرت مآسي وفضائح على أعلى المستويات، وكان مما كتبه أحد القضاة في بريطانيا تعليقًا على الحكم في إحدى هذه القضايا الكبيرة المثيرة: «بدون قانون لا يستقر مجتمع، وبدون أخلاق لا يسود قانون، وبدون إيمان لا تسود أخلاق»!

(١) الشوقيات صـ٤٧٦، تعليق د. يحيى الشامي، نشر دار الفكر العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

والإيمان هو الذي يُفَجِّر الطاقات الكامنة في إنسان شعوبنا المسلمة، فيندفع بقوة العقيدة في الله وفي الدار الآخرة، ليزرع الأعاجيب، ويصنع البطولات، ويُنشئ الروائع، كما رأينا ذلك في التاريخ الماضي، وفي الواقع الحاضر.

إن الإيمان هو الذي يحل مشكلة النزعة الذاتية الفردية عند الإنسان ـ وهي نزعة فطرية أصيلة ـ حين يُعلِّمه أن ما يقدمه من خير للغير، وما يضحِّي به من جهد للجماعة، وما يبذل من مال أو نفس، لن يضيع عند الله منه مثقال ذرة، بل كله مكتوب له، ومردود إليه، ومضاف إلى رصيده عند الله: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧]، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠].

والإيمان هو الذي يضع بين يدي الإنسان قوة هائلة، حين يغرس في نفسه: أن قَدَر الله نافذٌ لا محالة، وأن ما أخطأه لم يكن ليُصيبه، وما أصابه لم يكن ليُخطئه، وأن ما يخاف عليه الناس من رزق أو أجل مكتوب عند الله، لا مجال فيهما لزيادة أو نقصان، فالأرزاق مقسومة، والآجال معلومة، ولو اجتمعت الأمة على أن ينفعوا أحدًا بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضُرُّوه بشَيْء لم يضرُّوه إلا بشيء قد كتبه الله عليه.

هذا اليقين بالقدر، يجعل المؤمن به يشعر أنه في جهاده ودعوته يُمثِّل قَدَر الله الذي لا يُرَد، وقضاءه الذي لا يُغلَب، كما قال قال خالد بن الوليد لأهل قنسرين: إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم، أو لأنزلكم الله إلينا[1]!

(١) تاريخ الطبري (٦٠١/٣)، نشر دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

QaradawiBooks.com

والإيمان كذلك هو الذي يوثِّق الروابط بين أهله، فيجمعهم في ظل الأُخوة ويصل بينهم بأوثق عُرا المحبة، فالإيمان رحم بين أهله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وإذا كانت هناك أشياء تُفرِّق بين الناس بعضهم وبعض، من اختلاف العِرق أو اللون أو اللغة أو الإقليم أو الطبقة أو النسب، أو الثروة أو غير ذلك، مما يحجز الناس بعضهم عن بعض، فإن الإيمان بحرارته وقوته هو الذي يُذيب هذه الحواجز، ولا يعترف بها، ويجعل من وحدة العقيدة رابطة فوق رابطة الدم أو أقوى، ولُحْمة كلُحمة النسب، أو أوثق، حتى إن المؤمن ليؤثر أخاه في العقيدة على أخيه من النسب، بل على ابنه من الصُّلب.

وفي رحاب هذه الأُخوَّة الكبيرة، تختفي الأحقاد الصغيرة، وتهون الدنيا التي يتهارش عليها الناس، وهي أهون عند الله من جناح بعوضة، وتنكمش مشاعر الحسد والبغضاء التي سمَّاها النبي ﷺ «**داء الأمم**»، وقال عن البغضاء بحق: «**إنها الحالقة**»، لا بمعنى إنها تحلق الشعر، و«**لكن تحلق الدين**»[(١)].

ولا يقف الأمر عند سلامة الصدر من الحسد والبغضاء، بل يعمر القلوب حب كبير، منبثق من حب الله تعالى، إنه حب لكل من والاه وآمن به، حيث يرتفع بالإنسان من الأنانية الدنيا إلى الغَيْرية العليا، وفي هذا جاء الحديث الصحيح: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه**

(١) رواه أحمد (١٤١٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٠)، وقال: صحيح. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٦١/٣): حسن لغيره. عن الزبير بن العوام.

QaradawiBooks.com

ما يحب لنفسه»[١]، «**والذي نفْسِي بيده لا تدخلوا**[٢] **الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا**»[٣].

وتتمثل الغيرية في أجلى صورها، عندما تتجسد في هذا المعنى الذي لم يُعرف ولن يُعرف في غير مجتمع المؤمنين، وهو معنى «الإيثار»: أن تجود بالشيء لأخيك وأنت محتاج إليه، وأن تتعب ليرتاح أخوك، وتُعرِّض صدرك لتلقي ضربات السيوف وطعنات الرماح لتحمي أخاك، وأن تبيت على الطَّوَى لتُقدِّم كل ما عندك من زادٍ عشاءً لأخيك، وهذا هو الذي وصف الله به الأنصار في قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وهنا تتحول المشاعر الراقية من الأخوة والمحبة والإيثار، إلى تلاحم في الخير، وتراحم في السراء والضراء، وتعاون على البر والتقوى، صوَّره النبي ﷺ بقوله: «**إن المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدُّ بعضه بعضًا**»[٤]. «**مَثَل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمَّى**»[٥].

إن الإيمان الحق وحده هو سبيل الخلاص، وسفينة الإنقاذ للبشَرية من الغرق المخُوف، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، كلاهما في الإيمان، عن أنس.

(٢) كذا الرواية بحذف النون، وهو شاهد على لغة مَن يحذف النون من غير ناصب ولا جازم.

(٣) رواه مسلم في الإيمان (٥٤)، عن أبي هريرة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٨١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥)، عن أبي موسى الأشعري.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦)، عن النعمان بن بشير.

QaradawiBooks.com

ملامح الإنسان الذي يصنعه الإسلام:

إن الإسلام هو الرسالة القادرة على بناء إنسان قوي متوازن متكامل الشخصية: يمشي على الأرض، ويتطلَّع إلى السماء.. يُعايش الواقع، ويرنو إلى المثال.. يعمل للدنيا، ولا ينسى الآخرة.. يجمع المال، ولا ينسى الحساب.. يأخذ الحق، ولا ينسى الواجب.. يتعامل مع الخلق، ولا ينسى الخالق.. يعتزُّ بماضيه، ولا ينسى حاضره ومستقبله.. يُحب قومه، ولا ينسى بني الإنسان.. يصلح نفسه، ولا ينسى إصلاح غيره.. يهتدي ويهدي، يأتمر ويأمر، وينتهي وينهى.. فهو دائمًا داعٍ إلى الخير، آمرٌ بالمعروف، ناهٍ عن المنكر، حافظٌ لحدود الله، يتواصى مع سائر المؤمنين بالحق، وبالصبر، كما أمر الله: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر].

إنسان ميَّزه الله بالعقل، فيه خوطب، وبه كُلِّف، وعلى أساسه كان ثوابه وعقابه. به يفهم الوحي، وبه ينظر في الكون، وكلاهما أثر من آثار الله، دالٌّ على علمه وقدرته وحكمته، فلا يقيم بينها تعارضًا، بل تعاضدًا، فلا تناقض بين صحيح المنقول وصريح المعقول، بل يؤيد أحدهما صاحبه، فبالعقل ثبت الوحي وفُهِم، وبالوحي سُدِّد العقل وهُدي، حتى اعتبر الوحي «تفكير العقل» عبادة بل فريضة.

إنسان متوازن الشخصية، سويُّ النفس، لا يُطغيه الغنى، ولا يُنسيه الفقر، لا يستخفه النصر، ولا تسحقه الهزيمة، لا تبطره النعمة، ولا تزلزله المصيبة، مطمئنُّ القلب، راضي النفس، متفائل الرُّوح، لا ييْئس وإن سُدَّت في وجهه الأبواب، وتقطعت دونه الأسباب، موقن بأن مع العُسر يُسرًا، وأن بعد الليل فجرًا، وبعد الضيق فَرَجًا،

QaradawiBooks.com

وأنه لا ييئس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون.

إنسان يشعر بأنه مُكرَّم من الله، مُفضَّل من لدنه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وأن الله قد جعله في الأرض خليفة له: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وأن الله فضَّله بالعلم على الملائكة كما في قصة آدم [البقرة: ٣١ ـ ٣٣]، وأن الله سخَّر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، فكلها تعمل في خدمته وتيسِّر مهمته: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

إنسانٌ يولد على الفطرة، لم يُلَوَّث بخطيئة ورثها من أبيه الأول ـ كما تزعم المسيحية ـ ولم يحمل ذنب أحد، إنما يحمل مسؤولية نفسه، إن اهتدى فلها، وإن ضلَّ فعليها، وليس له إلا ما سعى، لا يخاف ظلمًا ولا هضمًا، أقام الله له الحجة، وبيَّن له المحجة، وأزاح عنه العلة، وأرسل له الرسول، وأنزل عليه الكتاب، وملَّكه أمر نفسه، يزكيها أو يُدسِّيها: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا**﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

إنسان يحترم فطرة الله التي فرَّقت بين الذكورة والأنوثة، فلا يمسخ هذه الفطرة، ولا يتمرَّد عليها، باسترجال المرأة أو تأنُّث الرجل، فلكل منهما دوره في الدنيا، وجزاؤه في الآخرة: ﴿**لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ**﴾ [آل عمران: ١٩٥]، و«**لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء**»[1]. يبَرُّ المرأة أُمًّا، ويرعاها بنتًا، ويحبُّها زوجة، ويصلها قريبة، ويحميها أنثى، ويُكرِمها غريبة، ويحترمها إنسانًا، ويرحِّب بها عضوًا في المجتمع.

(١) رواه البخاري في اللباس (٥٨٨٥)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

إنسان يمشي في مناكب الأرض، ويأكل من رزق الله، زارعًا أو صانعًا، أو تاجرًا أو مشتغلًا بأي عمل حلال، يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا. لا يُحرِّم زينة الله التي أخرج لعباده ولا الطيبات من الرزق، ولا تُلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يسعى إلى ذكر الله ويُؤدّي شعائر الله، ثم ينتشر في الأرض مبتغيًا من فضل الله، فلا تناقض بين دينه ودنياه، بل يعتبر عمارة الأرض عبادة، والسعي على المعاش قُربة، وإتقان العمل الدنيوي فريضة، فإن الله تعالى كتب الإحسان على كل شيء، وهو يُحبُّ من كل مَن عمل عملًا أن يُتقنه ويُحسنه فإن الله يحب المحسنين.

إنسان صنعته عقيدة «التوحيد الخالص» الذي تميَّز به الإسلام، فلم تشبْه شائبة الوثنية، فلا يشرك بالله شيئًا، ولا يشرك بالله أحدًا، لا يعبد نجمًا في السماء، ولا حجرًا في الأرض، لا يعبد مَلَكًا في العالَم العلوي، ولا حيوانًا في العالَم السفلي، لا يعبد جِنًّا مستورًا، ولا بشرًا منظورًا، إنما يعبد الله وحده لا شريك له، وهو ما دعا إليه الإسلام أهل الكتاب: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

تكمل هذه العقيدة عقيدة الجزاء، يوم يقوم الناس لرب العالَمين، حيث تُوفَّى كلُّ نفس ما كسبت: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

إنسان صقلته عبادات الإسلام التي حرَّرها من رِق الكهنوت، ومن احتكار الكهان، وفتح بابها للاتصال بالله الواحد الأحد، بلا وسيط ولا سمسار مزعوم: من صلاة تصله بالله كلَّ يومٍ خمس مرات، ومن صيامٍ

QaradawiBooks.com

يربِّي إرادته، ويُعدُّه لتقوى الله شهرًا من كل عام، ومن زكاة تزكِّي نفسه، وتطهِّرها من رجْس الشُّـــح والأنانية: ليُصبح في زمرة المنفقين مما رزق الله، ومن حجٍّ يجمعه مرة في العمر بغيره من المسلمين من أقطار الأرض حول أول بيت وُضِع لعبادة الله.

إنسان هذَّبته أخلاق الإسلام، وجَمَّلت حياتَه آدابُه، ووضَّحت طريقَه قِيَمُه ومفاهيمه، ورقَّته تربيتُه وتعليمُـــه، يعلم علم اليقين أن عليه حقوقًا لازمة، نحو ربه، ونحو نفسه، ونحو والديه، ونحو أولاده، ونحو أقاربه، ونحو جيرانه، ونحو مجتمعه وأهل وطنه، ونحـــو أبناء دينه، ونحو بني جنســـه من البشَـــر، ونحو الحيوانات المذلَّلة له، بل نحـــو الكون كله المســـخَّر له: من فوقه، ومن تحته، ومن حوله، فعليه أن يوازن بين هذه الحقوق، وأن يُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

إنسان هيَّأت له «شـــريعة الإســـلام» بمقاصدها الجامعة، ومبادئها المتوازنة، وأحكامها العادلة، وفقهها الرحْب؛ مناخًا صالحًا، تنطلق فيه حوافزه، وتنمو فيه خصائصـــه، وتزدهر فيه فضائلـــه، ويحمي فيه دينه ونفسه وعِرضه وماله وعقله ونسله، بما شرع الله من أحكام، وما فرض من فرائض، وما أحلَّ من حلال، وحرَّم من حرام، وأوجب من عقوبات، أقام بها الموازين القســـط بيـــن الناس، وحفظ بها مصالـــح العباد في المعاش والمعاد.

إنسان أسرة ومجتمع:

وإنسان الإسلام ليس راهبًا في صومعة، ولا منقطعًا في دَيْر يتعبَّد لله حتى يموت، دون أن يندمج في المجتمع، أو يتأثر به، أو يؤثر فيه.

QaradawiBooks.com

إن المسلم إنسان اجتماعي، وأول ما يبدو من اجتماعيَّته: أنه عضو في أسرة، يتبادل معها الواجبات والحقوق.

فله على أبويه حق التربية والرعاية والإنفاق، حتى يبلغ أشُدَّه، ويكتفي بعمله، ويستقلَّ عنهما.

ولهما عليه حق البر والطاعة والإحسان: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، وخصوصًا في حالة الكبر والشيخوخة: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

وله على أخوته ولهم عليه كذلك: حق «صلة الرحم» و«إيتاء ذي القربى»، لا يجوز لهم أن يتدابروا ويتهاجروا، أو يقول كل منهم: نفْسي نفْسِي! فالإسلام يعُد ذلك من قطيعة الرحم التي هي من كبائر الذنوب: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

والمسلم حين يبلغ مبلغ الرجال ينبغي أن يسعى إلى الزواج، وتكوين أسرة مسلمة، تكون إحدى الخلايا للمجتمع المسلم الكبير، فما المجتمع المسلم إلا بيوت مسلمة، وما الأسرة المسلمة إلا أفراد مسلمون.

وفي عهد النبوة نزع بعض الصحابة إلى لون من الرهبانية، أرادوا فيه أن ينقطعوا عن المجتمع ليعبدوا الله بصيام النهار وقيام الليل واعتزال النساء! فلم يكن من النبي ﷺ إلا أن جمعهم ووعظهم، وقال لهم في بيان صريح: «**إنما أنا أخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوَّج النساء، فمن رغب عن سُنَّتي فليس مني**»[(١)].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، كلاهما في النكاح، عن أنس.

QaradawiBooks.com

وبهذا أعلن النبي الكريم أن: لا رهبانية في الإسلام، كما حثَّ على الزواج في أحاديث كثيرة، منها الحديث الشهير: «**يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجاء**»(١).

وعلى المجتمع المسلم أن يعاون الشاب المسلم في أمر الزواج، حتى يغض بصره، ويُحصن فرجه، ويجد في ظل الزوجية السكون والمودة والرحمة التي ذكرها الله في كتابه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وعندما يتزوَّج المسلم أو المسلمة، يصبح عليه واجبات، كما أن له حقوقًا، وهو ما أشار إليه القرآن بقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وهي درجة القوامة والمسؤولية عن الأسرة المشار إليها في قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

وكما أن المسلم عضوٌ في أسرته، هو عضو في مجتمعه، لا يجوز ـ ولا يستطيع ـ أن ينفصل عنه، فهو يأخذ منه ويعطيه، ويستفيد منه ويفيده، ولا ينبغي له أن يأخذ ولا يعطي، وأن يستفيد ولا يفيد، وأن يستهلك ولا ينتج، أو يساعد في الإنتاج بوجه من الوجوه.

إن الإسلام يغرس في نفس المسلم وعقله: الشعور بالجماعة، وضرورة الجماعة، حتى إنه حين يصلِّي في قعْر بيته يناجي ربه قائلًا:

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠)، كلاهما في النكاح، عن ابن مسعود.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وحين يدعوه يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

فهو عند المناجاة والدعاء يستخدم صيغة الجماعة، وإن كان وحده، ذلك لأنه يستحضر جماعة المؤمنين في ضميره، ويتحدَّث بلسانهم وإن كان بعيدًا عنهم، ويسأل لهم الهداية والتوفيق مع نفسه.

وحين يُخاطَب المسلم بالتكاليف القرآنية يُخاطَب بها ضمن الجماعة المؤمنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، حتى يشعر بأنه جزء من كل، وأنه معهم متضامنون في تنفيذ أحكام الله تعالى، فهي مسؤولية جماعية.

حتى الأحكام التي هي من شأن أولي الأمر مثل تنفيذ العقوبات وإقامة الحدود يُخاطَب بها المؤمنون جميعًا: ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، وغيرها من الآيات، وذلك ليُحسَّ الجميع حُكامًا ومحكومين أنهم مسؤولون مسؤولية تضامنية عن إقامتها وتطبيقها كما أمر الله، فإذا قصَّر الحُكام، لم يُعفَ المحكومون من مسؤولية النصح والتوجيه على الأقل، ثم السعي الحثيث لإقامة حكم الله.

إن الإسلام يريد من المسلم ألَّا يفرَّ من المجتمع بالعزلة والاختباء، بل عليه المصابرة والكفاح، حتى ينتصر الحق والخير، وفي الحديث: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**»[1].

(١) رواه أحمد (٥٠٢٢)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين. والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٧)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨٨)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٣٩)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

وقد جاء في الحديث: «**عليكم بالجماعة، وإيَّاكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بُحبوحة الجنة فليلزم الجماعة**»[١].

فالخير في الجماعة، والشر في الشُّذوذ والانفراد.

ومن ثَمَّ شرع الإسلام صلاة الجمعة والجماعة والعيدين والحج، تأكيدًا لمعاني الجماعة والتجمُّع في الإسلام.

والمسلم باعتباره عضوًا في المجتمع ينبغي عليه أن يقدم له من نفسه وماله ومواهبه وقدراته كل ما يعود عليه بالنفع والخير، وكل ما يدرأ عنه الضرر والشر.

ومن ثَمَّ جاءت الأحاديث النبوية الصريحة توجب على المسلم كل يوم صدقة، على كل سُلامى منه، أو مفصل من مفاصله، وهي ليست صدقة مالية فتقتصِر على الأغنياء، ولا علميَّة فتختص بالمثقفين والعلماء، بل هي صدقة اجتماعية عامة، يؤدِّيها كلُّ إنسان بحسب قدرته واستطاعته.

ومن هنا لا تعرف «الأسر» المسلمة القطيعة أو الانفصال بين الوالدين والأولاد، وأي قطيعة من هذا النوع تعتبر من «العقوق» الذي يعد من كبائر الإثم في نظر الإسلام.

حتى الوالدان المشركان اللذان لا يؤمنان بالإسلام، ويجتهدان في حمل ولدهما على الشرك، يأمر الإسلام ألا يُحْرما حقهما في البر

(١) رواه أحمد (١١٤)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح. والترمذي في الفتن (٢١٦٥)، وقال: حسن صحيح غريب. عن ابن عمر.

والمصاحبة بالمعروف: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان: ١٥].

ولا تقف الأسرة في الإسلام عند الوالدين وأولادهما، بل تتسع لتشمل ذوي الرحم وأولي القربى، من الإخوة والأخوات والأعمام والعمَّات، والأخوال والخالات، وأبنائهم وبناتهم، فهؤلاء لهم حق البر والصلة التي يحث عليها الإسلام، ويعدها من أصول الفضائل، ويَعِد عليها بأعظم المثوبة، كما يتوعد قاطعي الرحم بأعظم العقوبة، فمن وصل رحمه وصله الله، ومن قطعها قطعه الله.

وقد وضع الإسلام من الأحكام والأنظمة ما يوجب دوام الصلة قويةً بين هذه الأسرة الموسَّعة، بما فيها الأقارب، بحيث يكفل بعضهم بعضًا، ويأخذ بعضهم بيد بعض، كما يوجب ذلك نظام النفقات، ونظام الميراث، ونظام «العاقلة» (ويراد به توزيع الدية في قتل الخطأ وشبه العمد على عصبة القاتل وأقاربه).

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

المجتمع الذي يُكوِّنه الإسلام

ويُقدِّم الإسلام إلى البشرية كذلك ـ إلى جوار الفرد الصالح، والأسرة الصالحة ـ المجتمع الصالح، مجتمع الإيمان والفضيلة.. مجتمع المؤمنين الأطهار.. الذين يَعلون على جاذبية المادة، ويصلون حبالهم بالله، ويتعايشون بمكارم الأخلاق، ويتواصون بالعدل والشورى، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٦ ـ ٣٨].

ومن دعائم هذا المجتمع ومُقوِّماته بعد العقيدة والعبادة:

الإخاء والمحبة:

١ ـ الإخاء والمحبة، وهذا مقتضى الإيمان الذي يربط بين أهله برباط العقيدة الوثيق: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقد أثبت التاريخ والواقع أنه لا رباط أقوى من العقيدة، وأن لا عقيدة أقوى من الإسلام.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأدنى مراتب هذا الإخاء: سلامة الصدور من الحسد والبغضاء، التي اعتبرها الحديث النبوي «داء الأمم» وسماها «الحالقة»، ليست حالقة الشعر ولكن حالقة الدين[١].

وكلما عمُقت جذور الإيمان، امتدَّت فروع الإخاء وظلاله وثماره في النفس والحياة، وتحرَّرت الأنفس من الأنانية المقيتة، وتطلعت إلى العطاء لا الأخذ، وإلى التضحية لا الغنيمة، وفي الحديث: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه**»[٢].

وقد يرتقي ذلك إلى درجة الإيثار الذي وصف الله به مجتمع الصحابة بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

التعاطف والتراحم:

٢ ـ التعاطف والتراحم، وهذا من ثمرات الإخاء الحق، وهو ما صوَّره الحديث الشريف أبلغ تصوير حين قال: «**ترى المسلمين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الأعضاء، بالحمى والسهر**»[٣].

وفي الحديث الآخر: «**لا يدخل الجنة إلا رحيم.. أما إنها ليست برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة**»[٤].

---

(١) سبق تخريجه صـ١٩٢.

(٢) سبق تخريجه صـ١٩٣.

(٣) سبق تخريجه صـ١٩٣.

(٤) عزاه المنذري في الترغيب والترهيب (٣٤٠٩) للطبراني وقال: رواته رواة الصحيح. وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٦٧١). ورواه النسائي في الكبرى في القضاء (٥٩٢٨)، والحاكم في البر والصلة (١٦٧/٤)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، بلفظ: «والذي نفْسِي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا...». عن أبي موسى الأشعري.

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأوجب ما يكون العطف والرحمة للضعفاء من الناس من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل، ولهذا اعتبر القرآن من مظاهر الكفر والتكذيب بالدين: القسوة على هؤلاء: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۞ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۞ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۞ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون].

التساند والتعاون:

٣ ـ التساند والتعاون، وهو المظهر العملي للإخاء والتراحم، والتعاون الإسلامي مجاله البر والتقوى وليس الإثم والعدوان، كما بيَّن ذلك القرآن الكريم: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]. ولهذا حرَّم الإسلام الربا والاحتكار لما فيهما من استغلال القوي للضعيف.

وقد مثَّل النبي ﷺ ذلك بقوله: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**»[1]. وهو يشمل التعاون بين أفراد الشعب وفئاته بعضهم وبعض، أو بين الشعب والحاكم، كما ذكر القرآن التعاون بين «ذي القرنين»، وتلك الجماعة المُهدَّدة من «يأجوج ومأجوج» قال: ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥].

التكافل والتضامن:

٤ ـ التكافل والتضامن: بحيث ينهض القوي بالضعيف، ويعود الغني على الفقير، ولا يضيع عاجز ولا مسكين في هذا المجتمع، والحد الأدنى في ذلك هو فريضة الزكاة ـ الركن الثالث في الإسلام ـ والتي

(١) سبق تخريجه صـ١٩٣.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يقوم عليها حـرَّاس ثلاثة: حارس من داخل ضمير الفرد المسـلم، وهو الإيمان.. وحارس مـن داخل المجتمـع، وهو الرأي العام المسـلم.. وحارس من قِبَل الدولة، وهو القانون والسـلطان: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وفي المال حقوق أخرى سـوى الزكاة، وبخاصَّة حـق الجار على جاره، بحيث يتكافل المجتمع له في السرَّاء والضرَّاء.

وفي الحديث: «**ليس بمؤمن من بات شبعان، وجاره إلى جنبه جائع**»[1].

والتكافل الإسـلامي يسـتوعب كل جوانب الحياة مادية ومعنوية، فهو تكافل معيشي وعلمي وأدبي وعسـكري، إلى غير ذلك من المجالات التي فصَّلها الدكتور مصطفى السباعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «اشتراكية الإسلام»، فلتراجع.

التواصي والتناصح:

٥ ـ التواصي والتناصح، وهـذا من التكافل الأدبي، الذي يجعل كل مسلم مسؤولًا عمن حوله من أبناء المجتمع، ينصح لهم، وينصحون له، ويوصيهـم بالحق والصبـر، ويتقبَّـل الوصية منهم كذلـك. وليس في المسـلمين أحد أكبر من أن يُنصح، ولا أحد أصغر من أن يَنصح. وهذا من أساسـيات الدين، وموجبات الإيمان، وشروط النجاة من الخسران، وفـي القـرآن: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصـر]، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٢)، وأبو يعلى (٢٦٩٩)، والطبراني (١٥٤/١٢)، والحاكم في البر والصلة (١٦٧/٤)، وصحَّح إسـناده، ووافقه الذهبي، وصححـه الألباني في الصحيحة (١٤٩)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

وفي الحديث: «**الدين النصيحة: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**»[١]، وفي الحديث الآخر: «**المؤمن مرآة المؤمن**»[٢].

التطهُّر والترقِّي:

٦ ـ التطهُّر والترقِّي، فالمجتمع المسلم مجتمع نظيف يربِّي أبناءه على الطهارة والعِفَّة والإحصان، ويُحرِّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ويعتبر الخمر والميْسِر رجسًا من عمل الشيطان، ويأمر المؤمنين والمؤمنات أن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم، وينهى عن التبرُّج والإغراء بالقول أو بالمشي أو بالحركة، حتى لا يطمع الذين في قلوبهم مرض، وحتى لا يُثير الغرائز الهاجعة، فتنطلق تعبث وتعربد، بلا قيود من خُلُق ولا دين.

والمجتمع المسلم ليس مجتمع ملائكة مطهَّرين، ولكن مَن ابتُلِي منهم، بارتكاب معصية، استتر بها، ولم يتبجَّح بفعلها، أو بالإعلان عنها، وبذلك ينحصِر أثرها، ولا يتطاير شررها، ثم يُرجى منه بعد ذلك أن يتوب منها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

العدالة:

٧ ـ العدالة، وتشمل عدالة التعامل بين الناس في شؤون الحياة، فإن العدل فريضة، والظلم حرام، كما في الحديث القدسي: «**يا عبادي، إني حرَّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرَّمًا، فلا تَظَالموا**»[٣].

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٥٥)، وأحمد (١٦٩٤٠)، وأبو داود في الأدب (٤٩٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩٧)، عن تميم الداري.

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٤٩١٨)، وابن وهب في جامعه (٢٣٧)، والبزَّار (٨١٠٩)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٩٢٦)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، وأحمد (٢١٤٢٠)، عن أبي ذر.

QaradawiBooks.com

وتشمل العدالة الاقتصادية أو الاجتماعية التي تقف في وجه الأقوياء حتى لا يمتصُّوا دماء الضعفاء، بل تعمل على الحد من طغيان الأغنياء، بقدر ما ترفع من مستوى الفقراء، وما تفرض لهم من حقوق في المال: الزكاة أولها وليست آخرها.

وتشـــمل العدالة القانونية والقضائية، بحيث يصل لكل إنسان حقُّه، وإن كان عند خليفة المسلمين، وأن يستوفي عقوبته على جرمه، وإن كان ابن أمير المؤمنين: «**وايْمُ الله، لو أن فاطمة بنت محمد ســرقت لقطعتُ يدها**»[1].

غير مرخصة للطباعة

مجتمع متقدِّم:

٨ ـ ومن أهم ما يوصف به هذا المجتمع الذي يُنشـئه الإسلام: أنه مجتمع متقدم، وليس مجتمعًا متخلفًا بحال.

وهذا أمر يحتاج إلــى تجلية وتوضيــح، فإن كلمة «تقــدُّم» كلمة مطاطة، قابلة لأكثر من تفســير، والحضارة الغربية اليوم تزعم لنفسها أنها حضارة التقدُّم، وأن مجتمعاتها مجتمعات متقدمة، وأن مجتمعات المســلمين وغيرهم من أبناء ما يســمُّونه «العالَم الثالــث» كلهم من المتخلِّفين، وقد يتلطَّفون معهم، فلا يسمُّون بلادهم البلاد «المتخلِّفة»، وإنما يسمُّونها «النامية».

ولا بد لنا أن نجيب بصراحة هنا عن موقفنـــا من التقدُّم ـ أو بعبارة أدق ـ عن موقف الإسلام من التقدُّم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٥)، ومســلم في الحدود (١٦٨٨)، عن عائشة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إن الإجابة عن هذا السـؤال تقتضـي أن نُحـدِّد أولًا مفهوم التقدم فالحكم للشَّيْء أو عليه فرعٌ عن تصوره.

والتقدُّم في معناه البسيط: أن يكون الإنسان قُدَّام غيره، أي في جهة الأمام، ويقابله: التخلُّف، وهو إن يكون الإنسان في الخلف.

والأمامية والخلفية من الأمور النسـبيَّة، فقد تعتبر في الأمام بالنسبة لشخص وراءك، وتعتبر في الخلف بالنسبة لشخص أمامك، وقد تكون أمـام مجموعة كلها مـن المتخلِّفين، فأنـت حينئذٍ أسـبق المتخلِّفين، كالسابق بين العُرجان!

غير مرخصة للطباعة

ارتباط التقدم بأهداف الحياة:

ولكن التقدُّم قد يقاس بالنسـبة لهدف يريد الإنسان أن يبلغه، فكل حركة في اتجاهه تُقرِّب إليه، تُعَد تقدمًـا، بخلاف أي حركة في عكس الاتجاه الموصل إلى الهدف؛ لأنها حركة إلى الوراء حتمًا.

وكذلك التوقُّف والجمود في موضع واحدٍ لا يعدوه صاحبه، لا إلى أمام ولا إلـى وراء، هذا في حد ذاته تخلُّـف؛ لأن توقفك يعطي غيرك فرصة ليخطـو خطوة أو خطوات إلى الأمام، وأنـت واقف في مكانك، فستتخلَّف أنت بقدر ما يتحرك هو. وخصوصًا أن الأصل في الإنسان: أنه حي متحرك، والحركة دليل الحياة.

وهنا يبرز السـؤال الكبير، ما الهدف أو الأهـداف التي يجب على البشر أن يبلغوها ويحققوها في حياتهم حتى يكون القرب منها أو البعد عنها مقياسًا للتقدم أو التخلف؟

نسخة مجانية

الأهداف الأساسية للحياة الإنسانية:

إن الإسلام يجعل لحياة البشر على الأرض أهدافًا أساسية، وأبرزها كما جاء في القرآن العظيم ثلاثة، ذكرهـا الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه القيم «الذريعة إلى مكارم الشريعة»[1]، وهي:

١ ـ العبادة لله تعالى:

وفي هذا يقول الله في كتابـه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والعبادة تعني الطاعة المطلقة للمعبـود المتضمنة لكمال الحب له، وكمال التعظيم له، وهذا لا يكون إلا عـن معرفة بقدره، ومعرفة بحقه، ولهذا قال ابن عباس في تفسير قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾، أي: ليعرفون.

وهذا صحيح، فمن لـم يعرف من يعبده، لم يعبـده حقًّا، لعله عبدَ غيره وهو لا يعلم، وكم من أصحاب الملل والنحـل مَن يزعمون أنهم يعبدون الله، وحقيقـة الأمر أنهـم ما عبدوا إلا بعـض المخلوقات في الأرض أو في السماء.

ومن ثم جعل القرآن غاية الخلق في آية أخرى هي معرفة الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

ولا تنافي بين هذه الآية والآية السابقة، ما دامت العبادة لا تصح إلا بالمعرفة، وما دامت المعرفة لا تتم إلا بالعبادة.

(١) انظر: الذريعـة إلى مكارم الشـريعة صـ ٨٢، ٨٣، تحقيق د. أبو اليزيد العجمي، نشـر دار السلام، مصر، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

QaradawiBooks.com

والعبادة لله لا تصح إلا بإخلاصها له، فلا يُشـرَك به ولا معه أحد ولا شيء.

ومعنى هذا: تحرير الإنسـان من الخضوع لكل ما عدا الله، ومَن عدا الله. تحرير الإنسان من عبادة الإنسان (الملوك والكبراء، والرسل والأنبياء، والأحبار والرهبان... إلخ). وتحرير الإنسـان من عبادة المخلوقات غير المنظورة (الملائكة والجن والشيطان وغيرها). وتحرير الإنسان من عبادة الأشـياء (الطبيعة، الكواكب، الحيوانات، الأشـجار، الأصنام). وتحرير الإنسان من عبادة الذات: عبادة الهوى، وشرُّ إله عُبد في الأرض الهوى.

والعبادة في الإسلام ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1] ـ تشمل كل ما يحبه ويرضاه من الأقوال والأعمال.

٢ ـ خلافة الله في الأرض:

والهدف الثاني للبشـر حسـبما ذكر القرآن هو الخلافة في الأرض، وهذا ما خص الله به آدم وذريته دون الخلائق جميعًا، وهي رتبة تطلَّعت إليها الملائكة فلم ينالوها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣].

(١) مجموع الفتاوى (١٤٩/١٠) وما بعدها، نشر مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

فدلَّت هذه الآيات على منزلة آدم، وأن الله آتاه من المَلَكَات والمواهب ما لم يؤته الملائكة المقرَّبين؛ لأنه دونهم مؤهَّل للخلافة، كما أشارت الآيات إلى أن التفوُّق العلمي هو المرشِّح الأول للخلافة.

وما معنى خلافة الإنسان لله في الأرض؟ معناها: أن ينفذ فيها أمر الله تعالى ويقيم فيها الحق والعدل، كما قال تعالى لعبده ونبيه داود: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦].

وكل إنسان راعٍ في دائرة معينة، وإن لم يكن ملِكًا كداود، فعليه أن يحكم بالحق في حدود دائرته، فمعنى خلافة الإنسان لله تعالى في أرضه ـ إذن ـ أن يقيم الحق والعدل، ويتخلق بأخلاق الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، أي أن على الإنسان أن يجاهد ويجتهد في سبيل الترقِّي، متمثِّلًا الكمال الإلهي الأعلى أمامه، فيهتدي به، ويقتبس منه، كما قال تعالى على لسان نبيه هود: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦].

وإذا كان ربنا على صراط مستقيم، فالإنسان المؤمن يجب أن يكون على صراط مستقيم، كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍۖ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [النحل: ٧٦].

فالإنسان المذموم في القرآن: إنسان سلبي عاجز، لا يتكلَّم بحق، ولا يقدر على شيء، يأخذ ولا يعطي، يستهلك ولا ينتج، كَلٌّ على مولاه، وعالة على غيره، يُحمَل ولا يَحمِل، مُعطِّل الطاقات، أينما ذهب لا يُحقِّق خيرًا، ولا يُفيد أحدًا، فهذا مثل السوء.

QaradawiBooks.com

وفي مقابله الإنسان المحمود: الإنسان الإيجابي الفاعل، الصالح في نفسه، المصلح لغيره، فهو ينطق بالحق، ويأمر بالعدل، وهو في الوقت نفسه على صراط مستقيم: منهج بيِّن، موصِّل إلى الهدف، لا ينحرف يَمنة، ولا يَسرة، فهو حين يأمر بالعدل يطبق العدل على نفسه، وبهذا يكون حقًّا على صراط مستقيم.

٣ ـ عمارة الأرض:

الهدف الثالث للبشر: كما بيَّن القرآن، هو عمارة الأرض، وهذا ما نص عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. ومعنى ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾، أي: طلب عمارتكم لها[1].

وهذا جزء من مهمة الخلافة، ومندرج فيها، ولكن أُفْرِد بالذكر، لئلا يظن الناس أن الدين إنما يهتم بعمارة الآخرة وحدها، ولو بخراب الدنيا، فالحقيقة أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن هذه الحياة ـ وإن كانت قصيرة العمر بالنسبة إلى الحياة الآخرة ـ لها أهميتها؛ لأن فيها التكليف والابتلاء والعمل، فاليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل.

إن هذه المقاصد الثلاثة من خلق الله للإنسان متكاملةٌ ومتلازمة، فعبادة الله تعالى جزء من خلافته، والخلافة والعمارة ضرب من العبادة لله تعالى، والمؤمن الحق هو الذي يجمعها كلها في تكامل واتساق.

وبقدر ما يحقق الإنسان هذه المقاصد أو الأهداف يكون تقدمه حقًّا، وبقدر إخفاقه فيها كلها أو بعضها يكون تخلُّفه.

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة صـ ١٦٣، ١٦٤.

QaradawiBooks.com

والإنسان في حضارة الغرب قد استطاع أن يعمر الأرض، ويعمل على أن تأخذ زخرفها وتتزيَّن، بل تغلو في الزينة كالعروس، بل تُغري بالزينة كالبَغِيِّ، وقد مكَّن العلم الإنسانَ الغربي المعاصر من أشياء لم يكن أحد يحلم بها، فملكه العجب، وركبه الغرور، وأوشك أن يظن أنه على كل شيء قدير، وأن الآخرين في العالَم عبيد له؛ لأنه هو المتقدم وهم المتخلِّفون، مع أن تقدُّمه جزئي لا كلي، وقاصر لا كامل.

وما ذلك إلا لأنه فقد العنصرين الأوَّلَين: العبادة لله، والخلافة عنه، فلم يُغنه العنصر الثالث وحده، بل ربما كان سبب هلاكه ودماره.

والمسلمون لم يحقِّقوا التقدُّم المنشود في الإسلام؛ لأنهم في القرون الأخيرة لم يقوموا «بعمارة الأرض» كما أمرهم الله، ولم يرعوا سنن الله في خلقه، فحكمت عليهم هذه السنن أن يسودهم غيرهم، كما أنهم لم يقوموا بحق «الخلافة» كما ينبغي، فسُحبت القيادة من أيديهم، وسادهم من كانوا له سادة.

أحسن الوسائل لأفضل الغايات:

والإسلام لم يكتفِ بأن ربط المسلم بأفضل الغايات، وأرفع المقاصد، ولكنه أيضًا هداه إلى اتخاذ أمثل الوسائل، وأحسن الأساليب، في الوصول إلى تحقيق مقاصده وأهدافه.

وهذا واضح لمن قرأ القرآن وتدبَّره.

إن القرآن يريد للإنسان المسلم أن يفتِّش دائمًا عن أفضل الوسائل، ويستخدم أمثل الأساليب، سواء في الدعوة ومجادلة المخالفين، أو في

QaradawiBooks.com

مدافعة الخصوم والمبتدئين بالسوء، أو في تنمية أموال القاصرين واستثمارها، فلنستمع إلى هذه الآيات الكريمة:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]. فإذا كانت هناك طريقتان للمجادلة: حسنة، وأحسن منها، فالمسلم مطالَب أن يجادل بالتي هي أحسن.

ويقول تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]. فهو مطالب أن يدفع سيئة المسيء بأحسن الطرق وأوْلاها بالتأثير في نفسية المبتدئ بالإساءة، حتى ينقلب من مُعادٍ إلى صديق حميم.

ويقول سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٥٢، الإسراء: ٣٤].

فإذا كانت هناك طريقتان لتنمية مال اليتيم: إحداهما حسنة، والأخرى أحسن، فنحن مُطالَبون باتخاذ الأحسن.

فـ «الأحسن» هو هدف الإنسان المسلم في كل شيء، ولهذا أثنى الله على أولى الألباب المهديِّين من عباده بقوله: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

وهذا ما أمر الله به عباده بقوله: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٥].

وأوضح من ذلك أن الله جعل غاية خلقه للأرض وما عليها من زينة، وخلقه للموت وللحياة وللكون كله: أن يبتليَ الناس: أيهم

QaradawiBooks.com

أحسن عملًا؟ كأن الذين يعملون السيئات لا مدخل لهم هنا، وإنما الأمر يدور على المحسنين أيهم أكثر إحسانًا لعمله من الآخر، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

لنقرأ هذه الآيات:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧].

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧].

كأن الابتلاء في هذه المقامات لا يهدف إلى إبراز من حسن عمله بالنسبة إلى من ساء عمله، بل الهدف هو إظهار من كان أحسن عملًا من غيره، فالسباق ـ إذن ـ ليس بين سيئ وحسن، بل بين حسنِي العمل، ومَن منهم أحسن وأمثل وأحكم من الآخرين، التنافس يجري حول الأحسن، لا حول الحسن!

تقدم متكامل:

إن التقدم الذي يطلبه الإسلام للحياة: تقدم متكامل، رُوحي ومادي، أخلاقي وعمراني، دنيوي وأخروي، علمي وإيماني، ولا يجد أي تعارض بين هذه المتقابلات، بل هو يجمع بينها في توازن واتساق.

إنه تقدم في الأهداف والغايات، وتقدم في الوسائل والأساليب معًا، فالإسلام أحرص ما يكون على نظافة الوسيلة، حرصه على شرف الغاية، ولا يقبل بحال الوصول إلى الغايات النبيلة بوسائل خسيسة أو قذرة، بل

QaradawiBooks.com

هو يرفض الوصول إلى الحق بطريق الباطل، يرفض أكل الربا وكسب الحرام لبناء المساجد، وتشييد المدارس، فإن الله طيِّب لا يقبل إلا طيبًا.

وفي ضوء هذا المفهوم المتكامل للتقدم قامت الحضارة الإسلامية الشامخة التي جمعت بين الروائع المادية التي تمثَّلت في مُبدعات العمارة والفنون وغيرها، وبين المعاني الإيمانية والأخلاقية التي كانت هي الدوافع الحقيقية وراء هذا الإبداع، وكانت هي السند الرُّوحي والمعنوي لهذه الحضارة التي لا تخطئ العين في عامة مظاهرها ومنجزاتها: أنها حضارة ربانية، محورها الإيمان، وركيزتها الأخلاق.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

إسلامٌ يتمثَّل في أمة

إن الإنسانية اليوم تحت سلطان الحضارة المادية؛ مهددة بطوفان كطوفان نوح، يمكن أن يأتي على بنيانها من القواعد، ولا بد لها من سفينة كسفينة نوح، بها يعصمها الله من الهلاك والدمار.

ولن تكون هذه السفينة إلا رسالة الإسلام، التي جعلها الله رحمة للعالمين وهداية للحائرين.

ولكن هذه الرسالة في حاجة إلى أُمة تُمثِّلها وتتمثَّلها، وتعطي للبشَرية الأسوة والنموذج، كما أعطت أمة الإسلام في القرون الأولى، ودخلت الأمم في دين الله أفواجًا.

أمة يتجسَّد فيها الإسلام، توحيدًا خالصًا، وإيمانًا صادقًا، وعلمًا نافعًا، وعملًا صالحًا، وخُلُقًا فاضلًا، ودعوة إلى الخير، وتواصيًا بالحق والصبر، وتعاونًا على البر والتقوى، وجهادًا في سبيل ذلك كله، حتى تكون بحق خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله.

أمة يرى الناس فيها نموذجًا حيًّا للمجتمع الإسلامي، الذي طال انتظار ميلاده.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

المجتمع الإسلامي بعقائده وتصوراته، بشعائره وتعبداته، بأفكاره ومشاعره، بأخلاقه وفضائله، بآدابه وتقاليده، بقيمه ومُثُله، بتشْريعاته وقوانينه، باقتصاده وماله، بلهوه وفنونه[1]. وهو ليس مجتمع ملائكة، ولكنه مجتمع بشَر تحكمهم في الأرض هداية السماء.

أمة وسط، لا تنتمي إلى اليمين ولا إلى اليسار، لا إلى الشَّرق الشيوعي ولا إلى الغرب الرأسمالي، أمة متميِّزة الوجهة، مستقلَّة الشخصية، ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥].

أمة لا تعيش لنفسها، ولا لهَمِّ يومها، ولا لملء بطنها، بل تعيش لغيرها، وتحمل على كاهلها هَمَّ البشرية المعذَّبة، والإنسانية الحائرة، فهي أمة ذات رسالة عالمية، لم تنبت من ذاتها، بل أنبتها الله، ولم تخرج كنبات البرِّيَّة، بل أخرجها الله، ولم يُخرجها لنفسها، بل أخرجها للناس، وأرسلها برسالة نبيها رحمة للعالمين، وهداية للناس أجمعين: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولن تستطيع هذه الأمة أن تقوم بدورها في إنقاذ البشَرية من سُعار الحضارة المادية، إذا أصابها هي من شَرَرها وشُرورها ما أصاب الآخرين من أدواء المادية والإباحية والنفعية والأنانية.

لهذا كان على هذه الأمة أن تُحصِّن نفسها بالإسلام، وأن تُجدِّد شبابها بالإيمان، وأن تُعرض عما تشكو منه حضارة اليوم من أوصاب وأمراض، وأن تنصر الله لينصرها الله، ويُمكِّن لها في الأرض، ويُحقِّق لها

(١) راجع في ذلك كتابنا: ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، نشر مكتبة وهبة، القاهرة.

QaradawiBooks.com

وعده: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

غير مرخصة للطباعة

شرطان لا بد منهما:

لن تستطيع أمتنا أن تُقدِّم البديل للحضارة المعاصرة، إذا هي قلَّدت هذه الحضارة واتخذتها مثلها الأعلى، واتبعت سننها شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، كما دعا إلى ذلك من دعا من قومنا، في وقت من الأوقات، زاعمين أننا لن نسلك سبيل الرُّقي، ما لم «نَفْنَ» في الأوروبيِّين، وما لم ننقل حضارتهم بجذورها وفروعها، أو ـ كما قال ـ بخيرها وشرها، وحلوها ومرها، ما يُحَب منها وما يُكره، وما يُحمَد منها وما يُعاب[1].

لقد أريد لنا يومًا أن نتخلَّى عن هُويتنا العربية الإسلامية، لنلحق بالبحر الأبيض المتوسط ـ وبعبارة أدق ـ بالشاطئ الأوروبي منه.

كما يراد اليوم أن ننسى هذه الهُوية أو نتناساها، لنلحق بما سموه «الشَّرق الأوسط» ـ وهو التعبير البديل للعالَم العربي والعالَم الإسلامي ـ حتى ننصهر مع «إسرائيل» في بوتقة واحدة، وتجمعنا حضارة «شرق أوسطية» جديدة، لا تُفرِّق بين عربي وإسرائيلي، ولا بين إسلام ويهودية! وبذلك نفقد حضارتنا المتميزة، ورسالتنا المتفردة، ودورنا المنشود.

إنما تستطيع أمَّتُنا أن تقدِّم البديل إذا تمسَّكت «بمشْروعها الحضاري المتوازن المتكامل» واستماتت في الحفاظ على هُويتها ورسالتها، وسيكون هذا في صالحها، وصالح البشرية معها.

(١) هو قول قديم لطه حسين، في كتابه: مستقبل الثقافة صـ ٣٩، نشر دار المعرفة، ط ٢، ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

ليس معنى هذا أن تلفظ أمتنا الحضارة الغربية كلها لفظ النواة، وأن تقف موقف الرفض لكل منجزاتها العلمية والعملية، بدعوى أنها حضارة مادية الوجهة، علمانية النزعة، نفعية الصّبغة، عدوانية الحركة.

فالواقع أن في هذه الحضارة جوانب إيجابية لا بد لنا من الاستفادة منها، ومن ذلك:

١ ـ العلم وتطبيقاته التكنولوجية، وهو في الحق بضاعتنا تُرَد إلينا، فأُسسه قد اقتُبست من حضارتنا، ولكنه اليوم بوثباته الهائلة علم غربي بلا ريب.

٢ ـ حسن الإدارة والتنظيم لشؤون الحياة، وقد بلغوا فيه مبلغًا عظيمًا.

٣ ـ العناية بحُريَّة الإنسان الفرد وحقوقه، ووضع الضمانات العملية اللازمة لحمايتها، من مخالب السلطات الحاكمة وتجاوزاتها، وهذا من حسنات الديمقراطية السياسية الغربية، وإن كان لدينا في أصول حضارتنا ما يغنينا، ولكن لا بأس بأخذ الأساليب والضمانات من القوم.

فهذه جوانب من حضارة القوم لا يسعنا إغفالها أو الإعراض عنها، وإن كان علينا أن نُحوِّر في كل ما نأخذه منهم، بالحذف والإضافة والتعديل، حتى يتلاءم مع قيمنا، وينسجم مع أوضاعنا، ويفقد نَسَبه الأول، ويندمج في كياننا الثقافي والحضاري.

وقد أقرَّ النبي ﷺ أشياء كانت في الجاهلية، مثل بعض أنواع النكاح، والبيوع كالسَّلَم، والشركات كالمضاربة، والعقوبات كالدية، ولكنه أدخل عليها من الشروط والقيود، ما جعلها إسلامية صرفًا، كما اقتبس المسلمون من الحضارات المجاورة ما انتفعوا به، بعد أن تركوا من «بصماتهم» عليه، ما جعله جزءًا من النظم الإسلامية.

QaradawiBooks.com

هذا هو الشرط الأول لتقوم أمتنا برسالتها الحضارية.

أما الشـــرط الثاني فيتعلَّق بالبديل الذي تقدمه أمتنا للعالَم الظامئ، أعني: بالإسلام ورسالته الحضارية.

فإن كثيرًا من المســـلمين ظلموا الإســـلام ظلمًا مبينًا، ومسخوه مسخًا شائهًا.

فمن الناس من يريد أن يفسِّر الإسلام تفسيرًا يجعله «طبعة عربية» من الحضـــارة الغربية، فهو يريـــد أن يأخذ الحضـــارة الغربية بـــكل قيمها وتصوراتهـــا وأوضاعها، ولكن بعد أن يخلع عن رأســـها «القبعة» ليضع مكانها «العمامة»! وبهذا يغدو «الخواجة» الأوروبي أو الأمريكي المادي النفعي الدنيوي «شيخًا عربيًّا مسلمًا»!

وهذا هو موقف «المدرســـة التبريرية» التي تريد أن تضفي الشَّرعية على الواقع الذي صنعه الغرب في أوطاننا. وزادت على ذلك، بشَـــرْح الإسلام شرحًا يجعل المفاهيم الغربية والقيم الغربية، مفاهيم إسلامية! وقيمًا إسلامية! وسوق النصوص قسرًا لتأييد هذا التوجُّه.

إن هذا الاعتساف تحريف للإســـلام من ناحية، وتنفير للغربيين من الاهتداء بنوره من ناحية أخرى؛ لأنهم لم يجدوا فيه بديلًا عن حضارتهم التي يشكون من ويلاتها، بل سيجدون فيه روح هذه الحضارة ولُبَّها في ثياب عربية إسلامية!

وفي مقابل هؤلاء أناسٌ يقدِّمون الإسلام في صورة تقشعرُّ من هولها الجلود، وترتعد من قساوتها الفرائص، وتَوْجل من ذكرها القلوب.

QaradawiBooks.com

إنه الإســـلام الذي يدعو إلى «الجبرية» في العقيدة، و«الشكلية» في العبادة، و«السلبية» في السلوك، و«السطحية» في التفكير، و«الحرفية» في التفسير، و«الظاهرية» في الفقه، و«المظهرية» في الحياة.

إنه الإســـلام المقطَّب الوجه، العبوس القمطرير، الذي لا يعرف غير العنف فـــي الدعوة، والخشـــونة في المجادلـــة، والغلظة فـــي التعامل، والفظاظة في الأسلوب.

إنه الإسلام الجامد كالصخر، الذي لا يعرف تعدُّد الآراء، ولا يعترف بتنوع الاجتهادات، ولا يُقرُّ إلا الرأي الواحد، والوجه الواحد، ولا يسمع للرأي الآخر، ولا للوجهـــة الأخرى، ولا يرى أحدهـــم أن رأيه صواب يحتمل الخطأ، وأن رأي غيره خطأ يحتمل الصواب.

إنه الإســـلام الذي لا يكاد يرى في الإســـلام إلا التشريع، ولا يكاد يرى في التشْريع إلا الحدود.

إنه الإسلام الذي لا يعرف التسامح مع المخالفين في الدين، ولا يقبل الحوار مع المغايرين في الفكـــر، ولا يأذن بوجود للمعارضين في السياسة.

إنه الإســـلام الذي ينظر بريبة إلى المرأة، فهو يدعو إلى حبسها في البيـــت، وحرمانها مـــن العمل، ومـــن المشـــاركة في الدعـــوة والحياة الاجتماعية، ومنعها من التصويت، بَلْهَ الترشيح للمناصب.

إنه الإســـلام الذي لا يعنيه العدالة في توزيع الثـــروة، ولا توكيد قاعدة الشـــورى في السياســـة، ولا إقرار الحرية للشعب، ولا مساءلة اللصوص الكبار عما اقترفوه، لكن يشغل الناس بالجدال في فرعيات

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

فقهية وجزئيات خلافية في العبادات أو المعاملات، لا يمكن أن ينتهي فيها الخلاف.

إنه الإسلام الذي يتوسَّع في «منطقة التحريم» حتى يكاد يجعل الحياة مجموعة من المحرَّمات، فأقرب كلمة إلى ألسنة دعاته وأقلام كُتَّابه: كلمة «حرام».

إن الإسلام بهذه الصورة القاتمة السوداء ـ الذي يقدمه بها نفر من أبنائه المخلصين غالبًا في نياتهم، القاصرين في أفهامهم ـ لن يمكنه القيام بدور «البديل» أو «الوارث» للحضارة الغاربة أو التي توشك على الغروب.

إن الإسلام المنشود، هو «الإسلام الأول».. إسلام القرآن والسُّنَّة، سُنَّة النبي ﷺ وسُنَّة الراشدين المهديين من بعده.. إسلام التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، والرفق لا العنف، والتعارف لا التناكر، والتسامح لا التعصب، والجوهر لا الشكل، والعمل لا الجدل، والعطاء لا الادِّعاء، والاجتهاد لا التقليد، والتجديد لا الجمود، والانضباط لا التسيُّب، والوسطية لا الغلو ولا التقصير.

إسلام يقوم على عقيدة رُوحها التوحيد، وعبادة رُوحها الإخلاص، وأخلاق رُوحها الخير، وشريعة رُوحها العدل، ورابطة روحها الإخاء، وثمرة ذلك كله حضارة رُوحها التوازن والتكامل.

هذا الإسلام وحده هو حبْل النجاة لنا وللبشرية من ورائنا، وهو القادر على إنقاذ سفينة الحضارة قبل أن تغرق ونغرق كلنا معها.

فهل تستطيع أمتُنا أن تقوم بالدور المطلوب منها؟ وبعبارة أخرى: هل تريد أن تقوم بهذا الدور؟ بمعنى أن تتبنى الإسلام عقيدة

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

ورسالة ومنهاج حياة، فتُحسن الفقه له، والإيمان به، والتطبيق له، والدعوة إليه.

هذا ما نأمله ويأمله كل المخلصين، وما ينتظره التاريخ منا، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

عقبات في سبيل اهتداء الغرب بالإسلام

الإسلام وحده هو مَرْكَب النجاة للغرب، وما يعانيه من أزمات روحية وخُلُقية ونفسية واجتماعية، وهو وحده القادر على إنقاذ حضارة العصْر من الغرق في بحر الظلمات، بحر المادية والنفعية والأنانية والآنية.

ولكنْ هناك ـ للأسف ـ عقباتٌ كؤود تعوق الغرب، وتحول بينه وبين الاهتداء بنور الإسلام.

من هذه العقبات: الزهو الغربي:

أول هذه العقبات هو الزهو الغربي، فالغربي مزهوٌّ بنفسه، ينظر إليها باستعلاء، وإلى غيره بازدراء، وسِرُّ ذلك أن الغرب قد ورث الحضارة الرومانية، التي تقسم الناس كل الناس إلى صنفين: رومان وبرابرة، والرومان هم السادة، والآخرون هم العبيد!

ومن هنا كان التمييز العنصري وَفقًا للون والعِرق أمرًا أساسيًّا في صلب الحضارة الغربية، وكان الجنس الأبيض لديها هو الجنس المتفوِّق، والجدير بالسيادة والهيمنة على غيره، فهو قد خُلِق ليسود ويحكم، وأما غيره فشأنه أن يُساد ويُقاد.

QaradawiBooks.com

ورغم أن العلم قد نقض نظرية تفاضل الأجناس، التي راجت يومًا، فالعقل اللاواعي عند الغربي يتقبَّل هذه النظرية ويؤمن بها، ويتعامل على أساسها، وإن نافقوا الأجناس الأخرى أحيانًا بالمعسول من القول، أو الجميل من الفعل، ولكن كثيرًا ما تنِدُّ منهم كلمات أو تصَرُّفات تكشف عن مكنون أنفسهم، وحقيقة أفكارهم ومشاعرهم.

حتى نقلنا عن رجل مثل «ألكسيس كاريل» قوله بتفوُّق الأجناس البيضاء على غيرها من الأجناس الأخرى: سوداء أو ملوَّنة!

وإذا كانت هذه نظرة الغربي إلى نفسه، وإلينا، فإنه يعز عليه أن يلتمس هدايته عندنا، ويشق عليه أن يعتبر نفسه مريضًا، ونحن أطباؤه، وبأيدينا دواؤه وشفاؤه!

ولا ريب أن الكِبْر أو العُجْب من أعظم العوائق عن الإيمان، وقد قال تعالى في شأن فرعون وملئه وموقفهم من موسى وآياته: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]. وقال سبحانه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

الرُّوح الصليبي:

وهناك شيء آخر يُضاف إلى العُجْب أو الاستكبار الغربي، وهو الحقد الصليبي المتوارث لدى الغربيين من قرون، منذ انتصار المسلمين في الحروب الصليبية، وإخفاق غزواتهم التسع أن تحقق أهدافها، وتمكُّن المسلمين أن يستردوا أرضهم بعد قرنين من الزمان.

QaradawiBooks.com

بل نقول: إن هـذه الرُّوح قد سـبقت الحروب الصليبيـة، منذ بدأ اصطدام الإسـلام بالنصرانية، وانتصر عليها عسكريًّا ودينيًّا، وانتزع منها أقطارًا عاشت قرونًا في ظل المسـيحية، ثم دخلت في الإسلام لتحمل راية الدعوة إليه والدفاع عنه، مثل الشام وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا، وكلها غدت قلاعًا للإسلام.

لا أريد أن أستشـهد بما قاله القائد البريطانـي «اللِّنبي» عندما دخل القدس سـنة ١٩١٧م: اليوم انتهت الحروب الصليبية! ولا بما قاله القائد الفرنسِـيُّ «غورو» عندما دخل دمشـق ووقف على قبر البطل المسـلم صلاح الدين، وقال كلمته: ها قد عدنـا يا صلاح الدين! ولا حاجة إلى ذلك، فلدينا من الشواهد ما هو أقرب.

إن هـذه الرُّوح هي التي نشـهدها اليـوم في التعامل مع مسـلمي «البوسنة والهرسـك» الذين وقف الغرب من مأسـاتهم ومن مذابحهم المنكرة موقف المتفرِّج، بل موقف المسـاعد المؤيِّد للصِّرْب، المُدلِّين بقوتهم، المغرورين بعَدَدهم وعُدتهم، المعالنين بصليبيتهم، الذين قالوا بصَراحة: نحن فرسـان الصليب، نحن نقوم بخدمة لأوروبا كلها، ندفع عنهم خطر الإسلام الزاحف عليهم من الشرق.

وقد وقفت أوروبا كلها معهم: روسـيا الأرثوذكسـية، وفرنسـا الكاثوليكية، وبريطانيا البروتسـتانتية، وحرموهم حتى من أبسـط حقوق الإنسان: أن يدافع عن نفسـه، أن يكون له حق شراء السلاح ليحمي حرماته، ويذود عن أعراضه أن تُنتهك، وعن دمائه أن تُسفك، وعن مساجده أن تُدمَّر، وعن بيوته أن تُخرَّب، وعن مزارعه ومصانعه أن تُحرق.

QaradawiBooks.com

وحُجَّتهم في منع وصول السلاح إلى المسلمين غاية في الغرابة، وهي المنع من مزيد سفك الدماء! أي ليظل سَفْكُ الدماء من جانب واحد هو جانب المسلمين المعتدَى عليهم!

وبعد أكثر من سنتين من القتال والتضحيات، طالبت أمريكا برفع الحظر عن تسليح المسلمين، فهدَّدت فرنسا وبريطانيا بسحب قواتهما من الأمم المتحدة!

بماذا نُفَسِّر ذلك يا أولي الألباب، إن لم تكن وراءه الرُّوح الصليبية الحاقدة؟

وشاهد ثان هو: مقاومة الغربيِّين عامة لباكستان أن تملك قوة نووية، مع أن جارتها وغريمتها الهند قد ملكت هذه القوة، والصين قد ملكتها، وإسرائيل أيضًا، ولكن لا بأس أن يملك النصارى واليهود والهُندوس والبُوذيُّون القنبلة. أما المسلمون فلا، ثم لا!

وشاهد آخر نذكره في هذا المقام، وهو موقف فرنسا من الطالبات المسلمات المحجَّبات في مدارسها، وثورة الإدارات المدرسية على هؤلاء التلميذات الملتزمات بآداب دينهن، وهياج الرأي العام الذي تثيره الصحافة وأجهزة الإعلام ضد المسلمين في فرنسا، والذين يزيد عددهم على الأربعة ملايين نسمة[1].

ولقد قال وزير التربية الوطنية في تصريحات له، أخيرًا: إننا لن نسمح بأي «رموز دينية» في مدارسنا، وإن الحجاب للفتيات المسلمات يمثل رمزًا دينيًّا بارزًا! وإن فرنسا لن تفرِّط في علمانيتها بالسماح بمثل هذه الرموز. إلى آخر ما قال!

(١) وقت كتابة الكتاب.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وكنا نعلم قبل ذلك: أن العلمانية الليبرالية تقف موقفًا محايدًا من الدين، لا تدعو إليه، ولا تحرِّض عليه، لا تواليه، ولا تعاديه، بخلاف العلمانية الشيوعية فهي معادية للدين.

ولكننا فوجئنا بموقف فرنسا «أم الحريات» من الدين، إذا كان الدين هو الإسلام، فانقلبت من الحياد إلى العداء، فهي بهذا تفرض على المسلمة أن تتخلَّى عن دينها، وأحكام شرعها، وفرائض ربها! فالواقع أن الحجاب ليس رمزًا دينيًّا بحال، بل هو التزام ديني مفروض من الله تعالى على كل مسلمة حريصة على إرضاء ربها، ومَن تخالف هذا مُعرَّضة لسخط الله تعالى وعذابه، يقول الله تعالى في كتابه: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

والدولة الإسلامية تُلزم المسلمة أن تلتزم الحجاب استجابة لأمر الله تعالى، أما الدولة العلمانية فتترك لها الحرية تلبس ما تشاء، فما سر هذا الموقف من الوزير الفرنسي ومَن يؤيده؟

إنه ينظر إلى الموضوع بعين العصور الوسطى، وأنه تحدٍّ إسلامي، وأنه رمز ديني، وهو في هذا واهم بلا ريب، ومخطئ بلا نزاع.

هذا مع أن من الطالبات مَن يحملن رموزًا دينية صريحة مثل «الصليب» ولا يؤمرن بخلعه، فلماذا الحجاب وحده؟!

إن الرمز هو الذي لا يكون له وظيفة غير أنه شعار وإعلان، مثل القلنسوة (الطاقية) على رأس اليهودي، والصليب على صدر النَّصْراني، أما الخمار ـ أو الحجاب ـ على رأس المسلمة، فله وظيفة معروفة ومحددة هي الستر والاحتشام، المأمور به من رب العالَمين.

QaradawiBooks.com

إن الحضارة المُثلى هي التي تسع المختلفين في دياناتهم وثقافاتهم، كما صنعت الحضارة الإسلامية، فهي لم تفرض على ذي دين أن يتخلَّى عن شيء يفرضه عليه دينه، كلا، بل تسامحت فيما هو أكثر من ذلك، فسمحت للمخالفين بالأشياء التي يُحرِّمها الإسلام إذا كانت مجرد حلال في دينهم، وليست فرضًا ولا واجبًا، مثل أكل الخنزير وشرب الخمر، وشعار المسلمين في ذلك هذه الكلمة الجليلة: اتركوهم وما يَدينون! فما أعظم الفَرْق بين الحضارتين!

لقد تمثَّلت الروح الصليبية في مواقف لا تُحصى: موقف الغرب من إسرائيل وقضية فلسطين، وانتصار الثورة الإسلامية في إيران، وفوز الإسلاميين في انتخابات الجزائر، وتحكيم الشريعة الإسلامية في السودان، وغيرها وغيرها. حتى قال نيكسون في كتابه «نصر بلا حرب» بصراحة: «إذا كانت هناك حرب يتمنَّى الإنسان أن تكون، فهي الحرب العراقية الإيرانية، وإذا كانت هناك حرب يتمنَّى الإنسان ألا ينتصر فيها أحد فهي الحرب العراقية الإيرانية»! يعني أن يظلوا يقتتلون حتى يُفني كل منهما الآخر.

الخوف من الإسلام:

ومن العوائق التي تحجز الغرب عن تقبل رسالة الإسلام: حاجز «الخوف من الإسلام» وبعبارة أخرى: اعتبار الإسلام «خطرًا» يهدد الغرب، ويُنذره بالويل والثبور.

وهذا ما يتردد اليوم على ألسنة كثيرين من قادة الغرب وساستهم، الذين عبَّروا عن الإسلام بـ «الخطر الأخضر» في مقابل «الخطر الأحمر» الذي كان يمثله الاتحاد السوفييتي، و«الخطر الأصفر» الذي تمثله الصين.

QaradawiBooks.com

وبعد تفكّك الاتحاد السوفييتي، ودخول «الدب الروسي» في القفص الأمريكـــي، واقتراب الصين من الغـــرب، بدأ كثير مـــن العقول الغربية تبحث عن «عدو جديد» يســـتثير حماسها، ويحشـــد قواها في مواجهته، حتى لا تســـترخي عضلاتها، ويخلد أهلها إلى الدعة والراحة، فيصيبهم العجز والكسل من ناحية، ويشتغل بعضهم ببعض من ناحية أخرى.

وكان العدو الجديد المرشح ليحل محل «دولة الشَّر» الروسية ـ كما سماها الرئيس الأمريكي الأسبق ريجان ـ هو الإسلام.

المكر الصهيوني:

ولقد ساهمت إسرائيل، وساهمت الصهيونية، وساهم اللُّوبي الصهيوني الأمريكي، بدور ملحوظ في التنبيه على هذا الخطر المزعوم، والتخويف منه، والتهويل من شأنه، بالتذكير بفتوحاته في الماضي، والتضخيم من أمر صحوته في الحاضر، والتحذير من تنامي قوته في المستقبل.

وحتى يتم المكـــر الصهيوني، قالوا لحُكَّام البلاد الإســـلامية: نحن لا نعنيكم بحديثنا عن الخطر الإســـلامي، إنما نعني هذا الشـــيء الآخر الذي يهدِّدنـــا ويهددكم جميعًا: إنه «الصحوة» كما يســـمونها عندكم، أو «الأصولية» كما نسميها عندنا.

وهنا تقدَّمت إســـرائيل للغرب ـ الـــذي لم تغب عـــن ذاكرته نتائج الحـــروب الصليبية، ولـــم ينس اليرموك وفتح الشـــام وبيـــت المقدس وعمُّورية ـ تقول له: أنا وكيلك في المنطقة، وحارسك الخاص من المارد الإســـلامي، الذي يوشـــك أن يخرج من قمقمه، أنا المتكفِّلة بمواجهة «الأصولية» الإسلامية. فاعتبروني هنا مخلبكم ونابكم.

QaradawiBooks.com

هكذا قالت إسرائيل للغرب، وهكذا قالت للهند، فنصرت الوثنية على دين التوحيد، كما فعل آباؤهم من قبل حين قالوا عن المشركين من عُبَّاد الأصنام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۝أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١، ٥٢].

فإذا كان الغرب يعتبر الإسلام عدوًّا يتربَّص به، وخطرًا يجب الاحتشاد لمحاربته، أو على الأقل لمحاصرته وتقليص دوره، وتخضيد شوكته، فكيف يفتح عينيه ليرى ما يقدمه من نور، أو يفتح أذنيه ليسمع ما يعرضه من دعوة؟

الأمل في العقلاء والمنصفين:

إن الأمل معقود بالعقلاء من الغربيين الذين تحرَّروا من العُجْب الغربي، والحقد الصليبي، والكيد الصهيوني، والذين خلعوا المنظار الأسود من فوق أعينهم، ونظروا إلى الأمور نظرة موضوعية محايدة، ونظروا إلى الإسلام كما ينظرون إلى غيره من الأديان، ونظروا إلى المسلمين كما ينظرون إلى غيرهم من أهل الشرق والغرب.

وهذا ما نشهده فعلًا اليوم من بعض المنصفين المعتدلين الذين أنصفوا الإسلام، وأنصفوا المسلمين، ناقدين لموقف قومهم المتعصِّب.

وبعض هؤلاء انتهى بهم البحث والدراسة والتأمل إلى اعتناق الإسلام، كما رأينا ذلك في أمثال «روجيه جارودي» و«موريس بوكاي» من فرنسا، و«د. مراد هوفمان» أستاذ القانون وسفير ألمانيا في المغرب، ومؤلف كتاب «الإسلام كبديل»[1].

(١) نشرته مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا الألمانية.

QaradawiBooks.com

ومنهم مَـن بقي على دينه، ولكنه تحرَّر مـن العصبية، مثل الأمريكي المعروف «جون اسـبوزيتو» صاحب كتاب «الوهـم والحقيقة في الخطر الإسلامي» والذي خلص في نهايته إلى نفي مقولة الخطر، واعتبارها وهمًا.

وهؤلاء الكُتَّـاب الإنجليز الذيـن كتبوا في الصحـف والمجلَّات البريطانية ـ خلال شهر يوليو وأغسطس ١٩٩٤م ـ مقالات ضافية ودراسات تحليلية وافية، ضد الدين يُخوِّفون الغرب من الإسـلام، ومن «الأصولية والإسلامية» دون تفريق بين المتطرفين والمعتدلين، ودون دراسة لواقع المسلمين: جون كيسـي في «التلجراف» وديليب هرنر في «الأوبزرفر» وكيث وارد، وك. ك. أوبريان في «الإندبندنت»، وهذا غير الدراسة التي قدمتها «الإيكونوميسـت»[1]، وهي أهم وأشـمل، فقد كانت هي الملف الأساسـي للعدد، وعنوان غلافه، وقدمت له بهذه الجملة: «عند الإسلام ما يمكن أن يقدِّمه للغرب، ويُثْري بـه تجربته»، كما ختم «هرنر» مقالته بقوله: إن الغرب بمساعدته للاسـتبداد في العالَم الإسلامي، إنما يُشعل جذوة التطرف، ويهيِّئ لها أسباب التوسع والانطلاق!

وقد كان هـذا التوجه الإيجابـي المنصف موضوع مقـال للكاتب الإسلامي المعروف الأستاذ فهمي هويدي في صحيفة الأهرام ـ وغيرها من الصحف العربية ـ في (١٩٩٤/٩/٢٠م) تحت عنوان: «لماذا الخوف من الإسلام؟» وهو عنوان إحدى تلك المقالات.

وقبل هؤلاء رأينا هذا التوجه المتعاطف مع المسلمين، المُنْصف إلى حد كبير لدينهم ورسالتهم، المقدِّر لإسهامهم في الحضارة، ودورهم في التاريخ عند ولي عهد بريطانيا الأمير «تشـارلز»، كمـا تجلَّى ذلك في

(١) نشرت ملخصًا لها نشرة منتدى الفكر العربي، التي تصدر في عمان، عدد سبتمبر ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

خطابه التاريخي الذي ألقاه في أكتوبر ١٩٩٣م في مركز «أوكسفورد» للدراسات الإسلامية، بعنوان «الإسلام والغرب»[١].

الوهن الإسلامي:

وقبل هذه العقبات توجد عقبة أعظم خطرًا وأبعد أثرًا من كل ما ذكرنا، وهي عقبة من داخل المسلمين لا من خارجهم، هي ما نسميه: الوهن الإسلامي، ضعف المسلمين المتفشِّي الماثل للعيان، والظاهر لكل إنسان، يلمسه أهل الغرب في ديار العرب والإسلام كافة: إنه الضعف العلمي، والضعف الاقتصادي، والضعف السياسي والاجتماعي والإداري.. وقبل ذلك: الضعف الإيماني والأخلاقي، الذي يراه الغربيون فيمن يحتك بهم من الحكام والكبراء، الذين يسرقون الملايين ـ وربما عشرات ومئات الملايين ـ من أقوات شعوبهم عن طريق الرِّشا السافرة والمقنعة، التي يسمونها باسم خفيف ظريف «العمولات»!

ويراه الغربيون كذلك في أولئك المترفين والمنحلِّين الذين لا يذهبون إلى الغرب إلا للركض وراء الشهوات، ولا يعرفون في أوروبا إلا الموائد الخُضْر والليالي الحُمْر.

إن بعض الغربيين يرى هؤلاء الناس في بلاده، فيحسب أنهم كل المسلمين، فإذا زار بلاد المسلمين سائحًا أو لعمل ما، رأى القذارة والاضطراب والفوضى ضاربة أطنابها في كل جنبات الحياة، فتنطبع في نفسه صورة دميمة عن الإسلام ورسالته، فمعظم الناس لا يمكنه أن

(١) نشر مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية، نص الخطاب باللغة الإنجليزية، كما نشر ترجمته العربية ويمكن أن يطلب منه لمن أراد.

QaradawiBooks.com

يفصل بين المبدأ وصاحبه، ولا بين الدين وأهله، ولا يدركون أن الإسلام حجة على المسلمين، وليس المسلمون حجة على الإسلام!

وهذا ما قاله الدعـــاة المصلحون من قبل: إن المســـلمين هم الذين يمثلون أغلظ حجاب يستر الإسلام عن أعين الآخرين.

وهذا ما جعـــل أحد الغربيِّين ممن عرف الإســـلام عن طريق القراءة والدراســـة، ثم أراد أن يتعرَّف عليه أكثر، فزار بعض البلاد الإســـلامية، ففوجئ من أحوال المســـلمين بما لم يكن يتوقَّعُه، فقـــال كلمته المعبِّرة والمؤثِّرة: الحمد لله الذي عرَّفني الإسلام قبل أن أعرف المسلمين!

الأمل في الصحوة:

وأملنا كبير في «الصحوة الإســـلامية» المعاصـــرة: أن تعمل بجد وعزم لتنتقل أمة الإسلام من ضعف إلى قوة، ومن فقر إلى رخاء، ومن فوضى إلى نظام، ومن استبداد إلى شـــورى، ومن تفرُّق إلى اجتماع، ومن هَزْل إلى جد، ومن هدم إلى بناء، ومن تفكُّك وتخاذل إلى تناصر وتعاون على البر والتقوى، ومن تخلُّف مـــادي إلى تقدم متكامل في الماديات والمعنويات.

وهذه الصحوة قادرة علـــى أن تفعل الكثير إذا هـــي جنَّدت طاقاتها للعمل لا للجدل، وللعطاء لا للمِراء، وللتشييد لا للتقويض، وللتجميع لا للتفريق، وشغلت أبناءها بالأصول والكليات عن الفروع والجزئيات، وبالقضايا المصيرية عن المعارك الجانبية، ونقلتهم من المختلَف فيه إلى المتَّفق عليه، ومن الأحلام المتخيَّلة إلـــى الواقع الممكن، ومن التعالي على المجتمع إلى التغلغل فيه، وجعلت أكبر شـــغلها التوعية والتربية،

QaradawiBooks.com

وتغيير المجتمع من داخله، أي تغيير ما بنفســه، حتى يُغَيِّر الله أوضاعه، وفقًا لسننه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

هذا أملنا في الصحوة، وندعو الله تعالى أن يحقِّق أملنا فيها، وأملنا بها.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

الفهارس العامة

- فهـــرس الآيات القرآنيـــة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـــريفة.
- فهرس الموضوعات.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

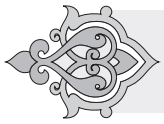

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

غير مرخصة للطباعة

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾	٥	٢٠٠
﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾	٦	١٧٤، ٢٠٠
سورة البقرة		
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴾	٣٠ ـ ٣٣	١٩٥، ٢١١
﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾	١١١	١٧٩
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾	١٤٣	٤، ٩، ١٧٥
﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾	١٦٤	١٨٠
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾	٢٢٢	٢٠٧
﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾	٢٢٨	١٩٩

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة آل عمران		
﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾	٨	٢٣٨
﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ... ﴾	٦٤	١٩٦
﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾	١٠١	١٩٣
﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ... ﴾	١١٠	٢٢٠
﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ ... ﴾	١٤٠	١٤٤
﴿ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾	١٩٠	١٨٠
﴿ لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾	١٩٥	١٩٥
سورة النساء		
﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ ... ﴾	٣٤	١٩٩
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ... ﴾	٤٠	١٩١
﴿ هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۞ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ ... ﴾	٥١، ٥٢	٢٣٤
سورة المائدة		
﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾	٢	٢٠٥
﴿ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾	٣٨	٢٠٠
﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾	٧٩	١٤٣
سورة الأنعام		
﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ... ﴾	٦	١٤٢
﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ... ﴾	٤٤، ٤٥	١٤٦

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾	٥٠	١٨٠
﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾	١٥٢	٢١٥
سورة الأعراف		
﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾	٥٨	٣٩، ٤٥
﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾	٥٩	١٨٥
﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ ...﴾	١٣٧	١٤٥
﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ...﴾	١٤٦	٢٢٨
سورة التوبة		
﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ...﴾	٧١	٢٠٦
﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾	١٠٣	٢٠٦
سورة يونس		
﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ...﴾	٢٤	٨، ١٨٠
﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾	٣٦	١٧٩
سورة هود		
﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ...﴾	٧	٢١٦
﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾	٥٦	٢١٢
﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ ...﴾	٥٩	١٤١
﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾	٦١	٢١٣
﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ...﴾	٨٢، ٨٣	١٤١

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾	٨٣	٧١
﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾	١٠٢	١٤٦
سورة يوسف		
﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾	٣٣	١٨٩
سورة الرعد		
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾	١١	٢٣٨
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ ...﴾	٢٨	١٨٨
سورة إبراهيم		
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا ...﴾	١٣ ـ ١٥	١٤٥
﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ...﴾	٤٥، ٤٦	١٤٤
سورة النحل		
﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ...﴾	٧٦	٢١٢
﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ...﴾	١١٢	٩٦، ١٤٤
﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ ...﴾	١٢٥	٢١٥
سورة الإسراء		
﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا ...﴾	٢٣، ٢٤	١٩٨
﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾	٣٤	٢١٥
﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾	٧٠	١٩٥
سورة الكهف		
﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾	٧	٢١٦

غير مرخصة للطباعة

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾	١٠	٩، ٢٣٨
﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾	٩٥	٢٠٥
﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾	٩٨	١٨٤
سورة طه		
﴿لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾	٥٤	١٨٠
﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾	١١٢	١٩١
سورة الأنبياء		
﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ ...﴾	١٠٥ ـ ١١٢	٤، ١٤٥
سورة الحج		
﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ...﴾	٤٠، ٤١	١٤٥، ٢٢١
سورة المؤمنون		
﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾	٣٧	١٨٦
سورة النور		
﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾	٢	٢٠٠
﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ...﴾	٣١	٢٣١
﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ...﴾	٣٥	٢٢٠
﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...﴾	٥٥ ـ ٥٧	٤
سورة الفرقان		
﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾	٧٤	٦٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الشعراء		
﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ... ﴾	٥٧ ـ ٥٩	١٤٥
﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ... ﴾	١٢٣ ـ ١٤٠	١٤٠
﴿ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ... ﴾	١٤٢ ـ ١٥٢	١٤١
﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم ... ﴾	١٦٥، ١٦٦	٧١
سورة النمل		
﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ... ﴾	١٤	٢٢٨
﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾	٤٠	١٨٤
﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ... ﴾	٥٢، ٥٣	١٤١
سورة القصص		
﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾	٥٨	١٤٤
سورة الروم		
﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ... ﴾	٩	١٤٢
﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ... ﴾	٢١	٥١، ١٩٩
سورة لقمان		
﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾	١٤	٦٤
﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ... ﴾	١٥	٢٠٢
﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾	٢٠	٢٧، ١٩٥

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة سبأ		
﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾	١٧	١٤١
سورة فاطر		
﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾	٢٨	١٨٠
سورة يسَ		
﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ... ﴾	٣٦	٧١
سورة الصفات		
﴿ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ ... ﴾	١٠٢	١٩٠
سورة صَ		
﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ... ﴾	٢٦	٢١٢
سورة الزمر		
﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ ... ﴾	١٧، ١٨	٢١٥
﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ... ﴾	٥٥	٢١٥
سورة غافر		
﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ... ﴾	٨٢ ـ ٨٥	١٤٢
سورة فصلت		
﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا ... ﴾	١٥، ١٦	١٤٠
﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ... ﴾	٣٣	٢٢٦
﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ... ﴾	٣٤	٢١٥

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الشورى		
﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ...﴾	٣٦ ـ ٣٨	٢٠٣
سورة الدخان		
﴿ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۞ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ...﴾	٢٥ ـ ٢٩	١٤٠
سورة الأحقاف		
﴿ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗا ﴾	١٥	٦٤
سورة محمد		
﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾	٢٢، ٢٣	١٩٨
سورة الحجرات		
﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾	١٠	١٩٢، ٢٠٣
سورة الذاريات		
﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾	٤٩	٧١
﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾	٥٦	٢١٠
سورة الرحمٰن		
﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ...﴾	٧ ـ ٩	١٧٤
سورة المجادلة		
﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡ ﴾	٢	٦٤
سورة الحشر		
﴿ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ ...﴾	٩	١٩٣، ٢٠٤

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الطلاق		
﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ ...﴾	١٢	٢١٠
سورة الملك		
﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾	٢	٢١٦
﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾	١٤	١٥٨
سورة القلم		
﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾	٤٤	١٤٦
سورة النبأ		
﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾	٨	٧١
سورة الفجر		
﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۞ ٱلَّتِى لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِى ٱلۡبِلَٰدِ ...﴾	٦ ـ ١٤	١٣٩، ١٤٠
سورة الشمس		
﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾	٩، ١٠	١٩٥
سورة العلق		
﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾	١	١٨٥
سورة الزلزلة		
﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ...﴾	٧، ٨	١٩١، ١٩٦

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة العصر		
﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ...﴾	١ ـ ٣	١٩٤، ٢٠٦
سورة الماعون		
﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۞ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ...﴾	١ ـ ٧	٢٠٥

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

غير مرخص للطباعة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
أُحد جبل يحبنا ونحبه	٢٧
إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها	٥
إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلتْه	١٤٦
إن المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدُّ بعضه بعضًا	١٩٣
إنما أنا أخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام	١٩٨
ت	
ترى المسلمين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد	٢٠٤
د	
«داء الأمم»	١٩٢
الدين النصيحة: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم	٢٠٧
ع	
عليكم بالجماعة، وإيَّاكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد	٢٠١

نسخة محايدة

الحديث	رقم الصفحة
ل	
لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر، ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام	٥
لا يدخل الجنة إلا رحيم.. أما إنها ليست برحمة أحدكم صاحبه	٢٠٤
لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه	١٩٢، ٢٠٤
لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء	١٩٥
ليس بمؤمن من بات شبعان، وجاره إلى جنبه جائع	٢٠٦
م	
مَثَل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد	١٩٣
المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم	٢٠٠
المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا	٢٠٥
المؤمن مرآة المؤمن	٢٠٧
و	
والذي نفْسِي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا	١٩٣
وايْمُ الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها	٢٠٨
ي	
يا عبادي، إني حرَّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرَّمًا، فلا تَظَالموا	٢٠٧
يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر	١٩٩

❊ ❊ ❊

QaradawiBooks.com

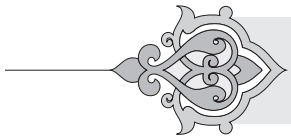

فهرس الموضوعات

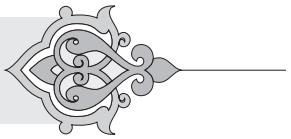

❖ من الدستور الإلهي للبشرية ٤

❖ من مشكاة النبوة الخاتمة ٥

• **مقدمة** ٧

• **الفصل الأول: روح الحضارة المعاصرة وخصائص فكرها** ١١

❖ روح الحضارة المعاصرة ١٣

❖ الجذور الفكرية للحضارة الغربية ١٥

❖ سمات الفكر الغربي وخصائصه ١٧

١ ـ الغبش في معرفة الأُلوهية ١٧

٢ ـ النزعة المادية ١٩

٣ ـ النزعة العلمانية ٢٤

٤ ـ الصراع ٢٦

٥ ـ الاستعلاء على الآخرين ٢٩

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

• **الفصل الثاني: آفات الحضارة المعاصرة وآثارها على الحياة البشرية** **٣٣**

❖ **الآثار الإيجابية للحضارة الغربية** **٣٥**

❖ **الآفات والآثار السيئة للحضارة المعاصرة** **٣٩**

١ ـ الانحلال الأخلاقي ٣٩

تقرير يحمل إنذارًا ٤١

وثيقة مؤتمر السكان بالقاهرة تجسيد لانحلال الحضارة ٤٤

٢ ـ التفسخ العائلي ٥١

العائلة الأمريكية تتقدم نحو الهاوية ٥٥

رجال يعيشون عالة على زوجاتهم المطلَّقات ٥٧

مجتمع غريب! ٥٩

أُمهات للإيجار ٦٤

النفور من الإنجاب ٦٧

الإعراض عن فكرة الزواج أصلًا ٦٩

الأسرة الوحيدة الجنس ٧٠

الأسرة الوحيدة التكوين ٧٣

٣ ـ القلق النفسي ٧٥

الساخطون في هوليود ٧٧

حركات التمرُّد على الحضارة المادية ٨٠

الاكتئاب وحياة العزلة ٨٥

انتحار المراهقين ٨٨

٤ ـ الاضطراب العقلي ٩٣

٥ ـ الجريمة والخوف ٩٦

QaradawiBooks.com

على الخوف تعيش أمريكا ٩٦
الجريمة لماذا؟ ١٠١
كلمة حق من كاتب حر ١٠٢

• الفصل الثالث: عقلاء رجال الغرب يدقُّون أجراس الإنذار ١٠٥

❖ تمهيد ١٠٧
خفوت صوت الإيمان في عصرنا ١٠٧
دقُّ أجراس الإنذار من خطر الحضارة المادية ١٠٧
الجميع يشعرون بخطر المادية المُحْدِق ١٠٨

❖ تحذيرات رجال العلوم ١٠٩
نقد ألكسيس كاريل ١٠٩
نقد رينيه دوبو ١١٤
كلمات هنري لنك ١١٧

❖ تحذيرات رجال الفلسفة والفكر ١١٩
تحذير جون ديوي ١١٩
تحذير توينبي ١١٩
تحذير جارودي ١٢٠

❖ تحذيرات رجال الأدب ١٢٩

❖ تحذيرات رجال السياسة ١٣٣

• الفصل الرابع: الحضارة التي ينشدها العالم ١٣٧

❖ حكم القرآن على الحضارات المادية ١٣٩
أسباب هلاك الأمم ١٤٣

QaradawiBooks.com

قانون المداولة بين الأمم ووراثة الحضارات ١٤٤
ما الدواء؟ وأين الطبيب؟ ١٤٦
الدواء كما يراه «ألكسيس كاريل» وتعليق سيد قطب ١٤٧
كيف الخلاص إذن؟ **١٤٧**
اللورد «لوثين» وتعليق المودودي ١٥١
عجز العلم والفلسفة عن إيجاد المخرج ١٥٨
الماركسية داءٌ لا دواء ١٦٠
عجز الأيديولوجيات الوضيعة ١٦٢
الدين هو معقد الرجاء ١٦٥
عجز المسيحية عن القيام بدور المنقذ ١٦٥
وذلك لعدة أسباب نُجْملها في يلي ١٦٦
اليهودية أشد عجزًا ١٧٠

❖ **الحضارة التي ينشُدها العالَم تتجلى في الإسلام** **١٧٣**
حضارة التوازن والتكامل ١٧٤
تكامل العلم والإيمان في الإسلام ١٧٧
العلم لا يُغني بغير الإيمان ١٨٣
مكانة الإيمان من حياة الإنسان ١٨٥
لا بد من عملٍ لتجديد الإيمان ١٨٦
ملامح الإنسان الذي يصنعه الإسلام ١٩٤
إنسان أسرة ومجتمع ١٩٧

QaradawiBooks.com

❖ **المجتمع الذي يُكوِّنه الإسلام** **٢٠٣**
الإخاء والمحبة **٢٠٣**
التعاطف والتراحم **٢٠٤**
التساند والتعاون **٢٠٥**
التكافل والتضامن **٢٠٥**
التواصي والتناصح **٢٠٦**
التطهُّر والترقِّي **٢٠٧**
العدالة **٢٠٧**
مجتمع متقدِّم **٢٠٨**
ارتباط التقدم بأهداف الحياة ٢٠٩
الأهداف الأساسية للحياة الإنسانية ٢١٠
١ ـ العبادة لله تعالى **٢١٠**
٢ ـ خلافة الله في الأرض **٢١١**
٣ ـ عمارة الأرض **٢١٣**
أحسن الوسائل لأفضل الغايات ٢١٤
تقدم متكامل ٢١٦
❖ **إسلامٌ يتمثَّل في أمة** **٢١٩**
شرطان لا بد منهما ٢٢١
❖ **عقبات في سبيل اهتداء الغرب بالإسلام** **٢٢٧**
من هذه العقبات: الزهو الغربي ٢٢٧
الرُّوح الصليبي ٢٢٨

غير مرخصة للطباعة
نسخة إلكترونية
QaradawiBooks.com

الخوف من الإسلام ٢٣٢
المكر الصهيوني ٢٣٣
الأمل في العقلاء والمنصفين ٢٣٤
الوهن الإسلامي ٢٣٦
الأمل في الصحوة ٢٣٧
• **فهرس الآيات القرآنية الكريمة ٢٤١**
• **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٢٥١**
• **فهرس الموضوعات ٢٥٣**

❊ ❊ ❊

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com